الكنز الثمين

في

تقريب مدارج السالكين

تصنيف

أبي عبدالرحمن سعد بن السيد الشال

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً أما بعد، فإن كتاب المدارج لابن القيم- رحمه الله- كتاب تربية للقلوب، وتزكية للنفوس، ولما بلغنا في التفسير إلى:(إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ)؛ مررنا بكتاب المدارج كاملا، وقد أسفر ذلك- بفضل الله وكرمه- عن تلخيص الكتاب بكامله، وهذه خلاصته، أسأل الله القبول.

١- إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ شفاء:

اعلم يرحمك الله – ورعاك – أن الأمراض أمراض قلوب وأمراض أبدان. ومدار أمراض القلوب على أصلين: فساد العلم وفساد القصد ويترتب عليهما داءان قاتلان وهما الضلال والغضب الأول من الأول والثاني من الثاني، وشفاء الضلال بالهداية في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ وهذا أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كلّ يوم وليلة في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية. وأما فساد القصد فشفاؤه بتحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ علماً وعملاً. وفساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، والعاية تكون فاسدة إذا كانت لغير الله كغايات المشركين ومتّبعي الشهوات وأصحاب الرياسات، فهؤلاء يتبعون أيضاً الوسائل الفاسدة لتحقيق غاياتهم الفاسدة وإذا حال

الحق بينهم وبين تلك الغايات طحنوه وداسوه، وإن جاء الحق ناصراً لهم صالوا به جالوا لا لأنه حق بل لموافقته لغاياتهم الفاسدة ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾. وكذلك الوسيلة تكون فاسدة إذا بُنيت على الظن فتكون من أعظم القواطع عن الغاية. فإذن الفساد يقع في الغاية أو في الوسيلة أو فيهما وكل ذلك فساد في القصد. والشفاء منه في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ المركبة من أجزاء ستة:

١- عبودية الله لا غيره. ٢- بأمره وشرعه. ٣- لا بالهوى. ٤- ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم. ٥- بالاستعانة على عبوديته به. ٦- لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذا دواء مركب من ستة أجزاء وينقص من الشفاء بقدر النقص في هذه الأجزاء.

ثم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ علاج للرياء والكبر. قال ابن تيمية: بقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء قلت: والرياء والكبرياء عوارض لفساد القصد.

فإذن:

المرض	علاجه
الرياء	إِيَّاكَ نَعْبُدُ
الكبر	وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

الضلال والجهل	﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

فإذا عوُفي من هذه الثلاثة عوفي من أمراض القلب بإذن الله تعالى. وكان من ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿غَيۡرِ﴾ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهم أهل فساد القصد الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ﴿وَلَا﴾ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

فهذا شفاء أمراض القلوب. وإذا كان يحصل بهذه الصورة – شفاء أمراض القلوب فحصول شفاء أمراض الأبدان من باب أولى كما شُفى بها اللّديغ لما قُرئت عليه/ خ (٢٢٧٦)، م (٢٢٠١). علماً بأن المحل كان غير قابل إما لكون هؤلاء القوم – أهل اللديغ – كانوا غير مسلمين أو كانوا أهل بُخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً.

بناء هذه السورة:

٢- هذه السورة منقسمة بين الرب والعبد كما في حديث: "قسمتُ الصلاة....." ونصفها الأول للرب سبحانه فذُكر فيها أربعة أسماء: الله، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. وأما النصف الثاني فمبني على النصف الأول: فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مبني على اسم "الله" و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ مبني على اسم "الرب" و﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ مبني على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾. قلت: وتقسيم الخلق في آخرها يقتضي الفصل بينهم في يوم لا ريب فيه فيكون آخرها

مبني على ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤ ﴾. وأما الحمد فيتضمن الأسماء الأربعة فهو المحمود في إلهيته وفي ربوبيته وفي رحمته وفي ملكه.

٣- هناك طوائف من الناس لا يشركون بالله في ربوبيته لكنهم أهل إشراك به في إلهيته؛ في المحبة والتعظيم، وهؤلاء لم يوفّوا ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ حق وإن كان لهم نصيب من "نعبدك" لكن ليس لهم نصيب من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ المتضمن معنى: لا نعبد إلا إياك حباً وخوفاً ورجاءً وطاعةً وتعظيماً، وفـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ تحقيق لتوحيد الإلهية وإبطال الشرك فيها و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ تحقيق لتوحيد الربوبية وإبطال للشرك به فيها.

٤- فيها رد على الجبرية: لما قال المؤمنون ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ دلّ ذلك على اثبات العبادة والاستعانة لهم ونسبتها إليهم ففيه رد على الجبرية الذين يجعلون أفعال العبد هي أفعال الله فهل يحص هنا أن يوصف الله بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده.

٥- في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ اثبات النبوة فإنه سبحانه لا يُعبد إلا بما يحبه ويضاه ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من جهة الرسل فإنكار الرسل إنكار لكونه معبوداً.

٦- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ كلمتان هما سر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب. هما الكلمتان المقسومتان بين الرب والعبد فأُولى الكلمتين للرب والثانية للعبد.

فالعبادة: تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. تقول العرب: طريق مُعَبّد أي: مُذَلّل. فإذا أحببتَ ولم تكن خاضعاً أو خضعتَ ولم تكن محباً، لم تكون – في الحالتين – عابداً حتى تكون محباً خاضعاً.

والاستعانة: تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه. ويتضح الفرق بينهما بأن العبد قد يثق بواحد من الناس لكن لا يعتمد عليه في أمورة – لعدم حاجته إليه -. وقد يعتمد عليه – مع عدم ثقته به – لأنه محتاج إليه وليس هناك من يقوم مقامه. والتوكل مثل الاستعانة أصلاه أصلاها.

٧- وقد جاء الجمع بين هذين الأصلين – العابدة والاستعانة (التوكل) – في مواضع من القرآن؛ غير هذا الموضع ١- الذي في الفاتحة. ٢- قول شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. ٣- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾. ٤- قول المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾. ٥- قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾. ٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ قلت ٧-

في (الشورى) ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾. ٨- في التوبة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩ ﴾. ٩- في الملك ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ ﴾. ١٠- في النحل ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ ﴾. ١١- في الأحزاب: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣ ﴾ / ذكره شيخ الإسلام في رسالته في الفتاوى لما جاء التتر إلى الشام. ١٢- في المائدة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾. ١٣- في التغابن: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾. ١٤- في يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾. ١٥- في النساء: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ ﴾ / ابن كثير. ١٦- في آخر الأنعام: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾ ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبًّا ﴾ / ابن كثير.

٨- لكن لماذا – في الفاتحة – قدّم العبادة على الاستعانة؟

الجواب من أوجه: منها:

١- أن العبادة غاية والاستعانة وسيلة والغايات تُقدم على الوسائل. ودليل أن العبادة غاية بل هي غاية الغايات قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

٢- ومنها: أنه تقدم بيان انقسام السورة بين الرب والعبد ونقطة الانقسام بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والأولى مبنية على اسم الله المقدّم على اسم الرب الذي بُنى عليه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

٣- ومنها: أن (الاستعانة) جزء من (العبادة) فقُدّم الكل وأُفرد منه الجزء.

٤- ومنها: أن (العبادة) طلب له و(الاستعانة) طلب منه. قلت: والمطلوب يُطلب هو أولاً ثم يُطلب منه بعد ذلك.

٥- ومنها: أن (العبادة) لا تكون إلا من مخلص و(الاستعانة) تكون من مخلص ومن غير مخلص. قلت: فَقُدّم المتعلق بأشرف القسمين.

٦- ومنها: أن (العبادة) حقه – سبحانه – و(الاستعانة) طلب الصدقة منه ليعينك على العبادة، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

٧- ومنها: أن (العبادة) شكر نعمته عليك، والله يحب أن يُشكر، و(الإعانة) فعلُه بك وتوفيقُه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رِقِّها أعانك عليها فسبيل (الإعانة) هو (العبادة) وكُلَّما كنت أتم عبودية كانت الإعانة من الله لك أعظم.

٩- اعلم أن (العبودية) محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبداً حتى تقضى نَحْبَك.

١٠- ولماذا قُدّم المعبود والمستعان على الفعلين – يعني: لماذا لم يكون نعبدك ونستعينك؟- والجواب: أن في ذلك مقاصد:

- فيه أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم.

- فيه الاهتمام وشدة العناية به.

- فيه اختصاص المسمى بالحصر فهو كقوله: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك. كقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ فمعناه: لا ترهبوا غيري ولا تتقوا سواى وكذلك يكون: لا نبعد غيرك ولا نستعين سواك.

١١- ولماذا أعيد "إياك"(*) ولم يكن اكتفى بقوله: إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ؟ والجواب: أن في ذلك:

- اختصاص مضمون كل من الفعلين به سبحانه فلا يُعبد إلا هو ولا يُتسعان إلا به كقولك لملِك مثلاً: غياك أحب وإياك أخاف بخلاف قولك إياك أحب وأخاف. قلت: فقد لا يحب إلا هو ويخاف غيره لعدم تكرر الصمير مع الفعل الثاني.

(*) وذكر ابن كثير فائدة في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: أن لما أثنى على ربه قَرُب فخاطب. قلت: ويدل عليه حديث مسلم عن أبي هريرة: "قسمت الصلاة....." ففيها المنجاة والقرب.

- وكذلك إياك وإياك فيه الاهتمام بذكره والاستكثار منه.

١٢- الناس في هذين الأصلين – العبادة والإستعانة – أربعة أقسام:

الأول: وهو أفضل الأقسام وأجلُّها: أهل العبادة والإستعانة بالله عليها. فعبادته سبحانة غاية المراد ولكن لا بد من عونه سبحانه وتوفيقه ولهذا كان أفضل مايُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته وهو الذي علّمه النبي ﷺ معاذاً – وقد أخبره أنه يحبه – أن يقول دبر كل صلاة: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك". وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا الدعاء وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها تجد مصداق ذلك.

قال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته (اللهم أعِنّا على ما يرضيك عنّا) ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

الثاني: المعرضون عن العبادة والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدُهم واستعان به، فعلى حظوظه شهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. فإنَّه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويُمدُّ هؤلاء وهؤلاء. وأبغضُ خلقه: عدوُّه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجةً، فأعطاه إياها، ومتَّعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، ويُعْدِهِ عن الله، وطرِده عنه. وهكذا كُلُّ مَن استعان به على أمر، وسأله

إياه، ولم يكون عوناً على طاعته: كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمَّلِ العاقلُ هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لِسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبدُه الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكُه وشِقوته. ويكون قضاؤها له مِن هوانه عليه، وسقوطِه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً، لا بُخلا. وهذا إنما يفعلُه بعبده الذي يُريد كرامته ومحبته، ويُعامله بطلفه، فيظن – بجهله – أن الله لا يُحبُّه ولا يُكرمُه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسئ ظنه بربه، وهذا حشْوُ قلبه ولا يَشْعُرُ به، والمعصومُ من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حملُه على الأقدار، وعتابه الباطن لها، وكما قيل:

وعَاجِزُ الرَّأيِ مِضْياعٌ لِفُرْصَتِهِ   حَتَّى إِذَا فَاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره، لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمرُ ليس إلى ؟! والعاقل خصم نفسه، والجاهلُ خصم أقدار ربه.

فاحذر كُلَّ الحذر أن تسأله شيئاً مُعَيناً خِيرته وعاقبتُه مغيَّبَةٌ عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بُداً، فعلِّقْه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدِّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له

بمصالحه، ولا قُدرَةَ له عليها، ولا اهتداءَ له إلى تفاصيله، ولا يملكُ لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكِل إلى نفسه، وهَلَكَ كُلَّ الهلاك، وانفرطَ عليه أمره.

وإذا أعطاكَ بلا سؤالٍ: تسألُه أن يجعله عوناً لك على طاعته، وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته. ولا تظن أن عطاءَه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يمنعه لِهوان عبده عليه، ولكنّ عطاءه ومنعه ابتلاءٌ وامتحان يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ ، أي: ليس كُلُّ من أعطيتُه ونعمتُه وخولتُه: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاءٌ مني، وامتحانٌ له: أيشكرني فأُعطيَهُ فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأُخَوِّلَ فيه غيره؟ وليس كُلُّ مَنِ ابتليته فضيقتُ عليه رزقه، وجعلته بَدَرٍ لا يفضُلُ عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبِرُ؟ فأُعطِيَه أضعافَ أضعاف ما فاته من سَعَةِ الرزق، أم يتسخَّط؟ فيكون حظه السخط.

فردَّ الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرامٌ، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فَأَخْبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يُوسعُ على الكافر لا لكرامته، ويُقتِّرُ على المؤمن لا لإهانته، إنما يُكرمُ من يكرمه بمعرفته

ومحبته وطاعته، ويُهينُ من يُهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغنيُّ الحميد.

فعادت سعادةُ الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:

أحدهما: القدرية: يقولون: لا استعانة. لماذا؟ لأن الله – في زعمهم – أمد العباد – مؤمنهم وكافرهم – بالآلات التي تمكِّنه من الفعل فصار العبد يخلق فعل نفسه ولم يعد لله قدرة على الالعبد يعينه بها فلماذا يسأل الإعانة. فإذن الإعانة للفريقين حصلت مرة واحدة ثم المؤمن هو الذي اختار الإيمان والكافر هو الذي اختار الكفر من غير أن يكون الله وفّق المؤمن بتوفيق زائد عن الإعانة الأولى، ولا خذّل الكافر بأمر آخر بعد الإعانة الأولى – التي هي بالآلات الممكّنة من الفعل -.

وهؤلاء القدرية موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الإستعانة – مع أن لهم نوعاً من العبادة – لكنها منقوصة لأنها لا تكمل إلا بالإستعانة، وهم لا يستعينون. قلت: أين هؤلاء من قوله ﷺ : "اللهم أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين".

الثاني: من لهم عبادات وأوراد، ويستعينون لكن حظهم من الاستعانة ناقص، ولذلك لم يجدوا ذوق هذه العبادات والأوراد بالتوكل والاستعانة وإن كانوا وجدوا

ذوقها كعبادات ووظائف. وهؤلاء لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب (الأوراد والعبادات) بالقدر (التوكل والإستعانة)، لم يعرفوا أن الأسباب بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له. نظروا إلى المتحرك (الأسباب) دون المحرّك (القدر) نظروا إلى السبب دون المسبِّب. فهؤلاء موفقون بقدر استعانتهم، ومخذولون بقلة استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله.

لكن ما معنى التوكل والإستعانة؟ الجواب: هو حال للقلب ينشأ عن معرفتِه بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضرر والنفع والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه وأنه مليء به ولا يكون إلا بمشيئته شاء الناس أم أبَوْه. وهذه الحالة تشبه حالة الطفل مع أبويه فهو لا يتعلق إلا بهما رغبة ورهبة. ومن كانت حاله هكذا فشأنه كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾. والحَسْب: الكافي.

الرابع: أهل الاستعانة والتوكل دون العبادة: وهؤلاء لهم حظ من الإستعانة والتوكل وشهود تفرّد الله بالنفع والضر لكن لم يدوروا مع ما يحبه الله ويرضاه، فهؤلاء أنزلوا حوائجهم بالله فقضاها لهم من أموال ورياسة وجاه وأحوال وكشف وتأثير لكن لا عاقبة لهم، وهذه المطالب التي تحصل لهم هي من جنس الملك الظاهر والأموال التي لا تدل على ولاية وإكرام ومن ظن أنها تدل على ذلك فهو

من أجهل الجاهلين قلت: لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ والمال والملك وبال على صاحبه إن لم يلحقه بالأبرار وإلا فهو ملحق له بالفجار والكفار.

١٣- لا يكون العبد متحققاً ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلا بأصلين عظيمين أحدهما: متابعة الرسول ﷺ والثاني: الإخلاص للمعبود. والناس منقسمون – على هذين الأصلين – أقساماً.

الضرب الأول: أهل الإخلاص والمتابعة: أهل قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وقال ﷺ : "من عمل عملاً ليس عليه أمرانا فهو ردّ" /خ(٢٦٩٧)، م (١٧١٨) واللفظ لمسلم. قلت والذي كان عليه أمر النبي ﷺ الاخلاص لله والمتابعة لأمره قال الله عزوجل له ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾. أهل هذا الضرب أعمالهم وأقوالهم وعطاؤهم ومنعهم وحبهم وبغضهم لله تعالى وحده، لا يريدون من الناس جزاء ولا شكورا ولا محمدة ولا منزلة ولا جاهاً قد عّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور لا يملكون شيئاً، كل ذلك لأنهم عرفوا ربهم وعرفوا الناس. ويذكر هنا قول الفضل بن عياض عن قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال أخلصه وأصوبه،

والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة ولا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً صواباً.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. كالمتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله وهؤلاء شرار الخلق وأمقتُهم إلى الله عزوجل ولخم أوفر النصيب من قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [١] يفرحون بما أتوا من الشرك والبدعة ويحبون أن يحمدوا بالاخلاص واتباع السنة، وذلك المنتسبين إلى العلم والفقروالعبادة.

الضرب الثالث: من له إخلاص بلا متابعة كجهّال العبّاد ومن عبد الله بغير أمره ظانّاً أن ذلك قربة كمن يظن سماع المكاء والتصدية قربة وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة وأن الخلوة – مع ترك الجمعة – والجماعات – قربة وغير ذلك.

---

(١) وانظر ابن كثير لمعرفة الأحاديث في ذلك.
- خ م : "من اّعى دعوى كاذبة لتكثر بها لم يزده الله إلا قلة".
- م : "المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبى زور".
- خ م سؤال مروان ابن عباس عن الآية.
- خ م: اخبار أبي سعيد أنها نزلت في المنافقين.

الضرب الرابع: أهل المتابعة بلا إخلاص كطاعات المرائين قتالاً وحجاً وقراءةً للقرآن ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

١٤- أفضل العبادات وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص: اختلف أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ في ذلك أصنافاً:

الصنف الأول: عنده أفضل العبادات أشقها وأصعبها قالوا: لأن الأجر على قدر المشقة، والنفوس طبعها الكسل ولا تستقيم إلا بركوب الأهوال وربما يستدلون بقوله ﷺ لعائشة: "أجرك على قدر نصبك أو نفقتك".

الصنف الثاني: عند أفضل العبادات الزهد في الدنيا واطّراح الاهتمام بها وهذا الصنف قسمان: العوام منه: جعلوا الزهد غاية فشمروا إليه وعملوا ودعوا الناس إليه وقالوا هو افضل من درجة العلم والعبادة. والخواص منه: قالوا هو مقصود لغيره، والمقصود به عكوف القلب على الله والاشتغال بمرضاته وذكره ومراقبته.

الصنف الثالث: عنده أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدٍّ إن كان هؤلاء يردون على أهل الخلْوات والبعد عن الناس فنعم، كالاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم. ١- واحتجوا بحديث "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله" قلت: ضعيف جداً وانظر "الضعيفة" (٣٥٩٠) لكن يقوم مقامه حديث صحيح في "الصحيحة" (٤٢٧) "خير الناس أنفعهم للناس". ٢- قالوا: وقد

قال ﷺ لعلي بن أبي طالب "لأن يهدي الله بك رجالً واحداً خير لك من حُمْر النَّعَم"/ خ (٢٩٤٢) م (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد. ٣- واحتجوا بأحاديث فضل العلم على العبادة. قلت: هي في صحيح الجامع (٤٢١٣ – ٤٢١٥). ٤- واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله بخلاف صاحب النفع المتعدي وربما يستدلون بقوله ﷺ لعائشة : "أجرك على قدر نصبك أو نفقتك". ٥- واحتجوا بأن الأنبياء بعثوا بنفع الخلق والإحسان إليهم لا بالخلْوات والانقطاع والترهب ولهذا أنكر ﷺ على هؤلاء الذين هموا بالانقطاع للتعبد وترك مخالطة الناس.

الصنف الرابع: عنده أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فافضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد وإن آل ألأمر إلى ترك الأوراد من صلاة وصيام بل ترك إتمام صلاة الفرض في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب.

والأفضل في أوقات السحر الإشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والإستغفار. وهلمّ جرّا.

وهذا الصنف هم أهل التبعد المطلق والذين قبلهم أهل التعبد المقيّد، هذا الصنف كلما رُفعت له منزلة عمل على سيره غليها واشتغل بها حتى تلوح له

منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره فإذا رأيت العلماء رايته معهم وكذلك العُبّاد وكذلك المجاهدين والذاكرين والمتصدقين وغيرهم. هذا العبد من هذا الصنف هو العبد المطلق الذي عمله على مراد ربه ولو كانت لذته وراحة نفسه في سواه فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ ملبسه ما تهيأ ومأكله ما تيسر واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً، دائر مع الأمر حيث دار، يأنس به كل مُحِق ويستوحش من كل مبطل كالغيث حيث وقع وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله والغضب إذا انتهكت حرمات الله فهو لله وبالله ومع الله قد صحب الله بلا خلق وصب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البَيْن وتخالى عنهم وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوَسَط وتخلى عنها. فواهاً له ما أغربه بين الناس! وما أشدّ وحشتَه منهم! وما أعظم أُنسَه بالله وفرحَه به وطمأنينتَه وسكونَه إليه!! والله المستعان وعليه التكلان.

١٥- منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها: اختلف فيها الطوائف الصنف الأول: الجبرية: القيام بالعبادة ليس إلا لمجرد الأمر ومحض المشيئة، ليست – عندهم – سبباً لسعادة ولا نجاة في المعاش والمعاد. عند هؤلاء ليست العبادة قرة عين ولا يجدون حلاوتها ولذلك يسمونها "تكاليف" أي: قد كُلِّفوا بها. ولو ادّعى رجل محبة ملِك من ملوك الدنيا وقد أمره بشئ فسمّاه هذا الرجل تكليفاً وقال إنما أفعله

لأنني مكلَّف به لم يُعَدّ مجباً لهذا الملك. ولذلك أنكروا – كثيرٌ منهم – محبة العبد لربه وقالوا إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم لا أنه يحب ذاته فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه. وحقيقة العبودية هي المحبة فإذن هم أنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها. وشيخ هؤلاء هو الجعد بن درهم الذي أنكر أن يكون الله اتخذ إبراهيم خليلاً وإنما إنكاره كون الله محبوباً مُحِباً. والخُلة عندهم هي الحاجة إلى الله – والناس كلهم محتاجون إليه سبحانه مؤمنهم وكافرهم – فهل الناس كلهم أخلاّء؟!!.

الصنف الثاني: القدرية قالوا: العبادات أثمان للثواب والنعيم وهي بمنزلة استيفاء أجرة الأجير قالوا: ولذلك سمىّ الله ذلك أجراً وجزاءً وثواباً لأنه يثوب إلى العامل من عمله واستدلوا بآيات منها ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ وحديث (إنما هي أعمالكم أحيها لكم ثم أوفيكم إياها) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾. قالوا: ويدل على ذلك أيضاً الوزن الذي هو دليل على تقابل الثواب والعقاب بالأعمال.

وهذان الصنفان متقابلان متباينان أشد التقابل والتبيان فالجبرية لا وزن للأعمال عندهم بل يجوز – عندهم – أن يعذّب الله من أفنى عمره في طاعته وينعّم من أفنى عمره في معصيته – لماذا؟ مشيئةً – والقدرية جعلوا الأعمال هي كل شئ حتى قالوا: الثواب بلا عمل تنغيص على العبد باحتمال مِنّة الصدقة عليه بلا ثمن قاتلهم الله، جعلوا تفضل الله وإحسانه بمنزلة صدقة العبد على العبد، فإذن – عندهم – أجر العامل على عمله أطيب له من فضل الله عزوجل عليه بلا عمل.

والصحيح ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب وأن الأعمال الصالحة مِنة من الله وفضل وتوفيق منه لعبده أعانه عليها وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها وحبّها إليه وزيّنها في قلبه وكرّه إليه أضدادها ومع هذا فليست ثمناً للجزاء والثواب بل غايتها – إذا اجتهد فيها الإنسان – أن تكون شكراً له سبحانه على بعض نعمه فلو طالب الله عزوجل العبد بحقّه لبيقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقيم شكرها فلذلك لو عذّب أهل سمواته وأرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم كما ثبت عن النبي ﷺ /د (٤٦٩٩) هـ (٧٧)، آجرى (ص١٨٧) حم (١٨٩/٥) وهق (٢٠٤/١٠) وابن أبي عام (٢٤٥) بسند جيد وصححه ابن حبان (٧٢٧) قاله الحلبي في تحقيق "مفتاح دار السعادة (١٢٠/١). ولذلك "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله" كما قال ﷺ لأن العمل في مقابل شكر بعض النعم، فيبقى ادخال الجنة فضلاً من الله تعالى/ خ (٦٤٦٣)، م (٢٨١٦) عن أبي هريرة. وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ لأن النفي في الحديث والأثبات في الآية لم يتواردا على معنى واحد فالمنفي في الحديث استحقاقها بمجرد الأعمال وكونها ثمناً وعوضاً للجنة، والمثبت في الآية هو كونها سبباً فإنه سبحانه جعل لكل شئ سبباً. وليعلم هؤلاء الدرية – مجوس الأمة – أن أهل السموات والأرض في مِنّة الله عزوجل وهل يتقلب أحد قط إلا في منته ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ

لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾. والمخلوق هو الذي إذا منّ استعلى فيكون الممنون عليه مذلولاً مع أنه ليس كل مّنْ مَنّ مِن المخلوقين كذلك كمنةّ الرسول علينا ومنّة الوالد على ولده فكيف بمنة رب العالمين فكما أنه لا نقص ولا عار على الممنون عليه فيما ذُكر من منة المخلوقين فلا عار علينا أبداً في منته سبحانه علينا وهو سحبانه إذا جعل الجنة بأسباب فهو الذي هدى إليها ، وأعان عليها.

الصنف الثالث: من عنده أن فائدة العبادة رياضة النفس واستعدادها لفيض العلوم عليها، وكذلك إخراج النفوس عن قوى النفوس البهيمية فلو عُطلّت العبادات كانت النفوس من جنس السّباع والبهائم.

الصنف الرابع: هم الطائفة المحمدية الغبراهيمية – وسائر الطوائف حجبوا عنها لما عندهم من شبه باطلة وقواعد فاسدة – وهذه طائفتناوالحكمة من العبادة هي تحقيق الإلهية الحقة لله رب العالمين فما اتباع الأمر واجتناب النهي إلا للبرهان على الحب والذي اللذين هما قوام العبادة، فإذن لا يعرف منفعة العبادة إلا من عرف صفات الرب وعرف معنى الالهية وأن العبادة موجَبُ إليهيته سبحانه وأثرُها ومقتضاها. وهذا يظهر من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فإذن العبادة – التي هي متابعة الرسول – إنما هي علامة على محبة العبد لله فمن لم يكن متابعاً لم يكن محباً فعُلم أن الغرض من المتابعة هو طلب محبة الله تعالى ومن كان تحقيق المحبة مراده واتبع – ولابد – حصلت له المحبة من الله تعالى.

١٦ـ **أركان العبادة الأربعة**: وبتحقيقها يتحقق ما يحبه الله ورسوله.

١ـ قول القلب: اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه، على لسان رسله. ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾.

٢ـ قول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذّبُ عنه وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أمره.

٣ـ عل القلب: المحبة والتوكل والإنابة والخوف والرجاء والاخلاص والصبر والرضا والموالاة فيه والمعادة فيه، والذل والخضوع له، والاخبات، والطمأنينة به وغير ذلك. وأعمال الجوارح بدون أعمال القلب إما عديم المنفعة أو قليلها.

٤ـ أعمال الجوارح: الصلاة، الجهاد، مساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك. فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ اقرار بهذه الأربعة والتزام لها و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ طلب الإعانة علهيا والتوفيق لها، و﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل والقيام بهما وسلوك طريق الساكلني إلى الله بها.

١٧ـ **معالمُ شرف العبودية:**

ـ كل الرسل دعوا إلى العبودية لله وحده التي هي ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ وتأمل ذلك في القرآن خصوصاً وعموماً قال نوح ﴿ ٱعۡبُدُواْ

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وكذلك هود وصالح وشعيب وإبراهيم. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وقال ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ والأخرى ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

- العبودية وصف أكمل الخلق ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾. الأولى وصف لعبيد ربوبيته والثانية وصف لعبيد إلهيته. وقال ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ وقال ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾. ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾. ووصف محمداً أكرم خلقه بالعبودية في عدة مقامات: مقام إنزال الكتاب ﴿ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ومقام التحدي الآية السابقة. ومقام الدعوة

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ ومقام الاسراء ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (لا تطروني ..... فإنما أنا عبد)/ خ (٣٤٤٥) وقال (أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)/ البغوي (٣٦٨٣). وفي البخاري (٢١٢٥) (٤٨٣٨) عن عبدالله بن عمرو قال: (قرأت في التوراة صفة محمد : محمد رسول الله عبدي ورسولي سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر)/ خ (٢١٢٥) (٤٨٣٨).

٣- البشارة المطلقة لعباده ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

٤- عزل الشيطان عن سلطان عليهم خاصة ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.

٥- احسان العبودية أعلى مراتب الدين كما في حديث جبريل/ خ (٥٠) م (٩،١٠).

١٨- لزوم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ حتى الموت: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

وقال أهل النار ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ واليقين هنا: الموت باجماع المفسّرين وفي البخاري (١٢٤٣) في قصة عثمان بن مظعون قال : "أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه" فلا ينفك العبد من العبودية ما دام في الدنيا بل في البرزخ عليه عبودية الجواب عن سؤال الملكين وكذلك ثبتت الصلاة في البرزخ/ ص.ت (٣٥٦١) عن أبي هريرة. بل في القيامة عليه عبودية السجود يوم يدعو الله الخلق للسجود فيسجد المؤمنون ويعود ظهر المنافق طبقاً واحداً فلا يستطيعون فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً يُلهمونه كالنفس لا عناء معه ولا تعب. فإذن من زعم سقوط التكليف عنه فهو زنديق كافر بالله والرسول وإنما وصل إلى مقام النسلاخ من الدين، بل كلما زاد علم الإنسان زادت عبوديته لله وليس الواجب على العامي كالواجب على العالم.

١٩ـ **العبودية عامة وخاصة**، والقنوت عام وخاص، والسجود عام وخاص فالعبودية العامة والقنوت العام والسجود العام هو عبودية وقنوت وسجود الذل والقهر والملك وهذا يستوي فيه جميع المخلوقات ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾. ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ وأما العبودية الخاصة والقنوت الخاص والسجود الخاص فهو عبودية وقنوت وسجود

الاختيار. وأهله هم أهل طاعته ومحبته وهم عبيد الإلهية. والأول: عبيد الربوبية. وتأمل ما في سورة النحل الذي هو سجود الذل والقهر والخضوع ولذلك عمّمه وأما في سورة الحج فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهم أهل السجود الخاص.

٢٠- مراتب ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ علماً وعملاً.

١- علماً (أ- العلم بالله ، ب- العلم بدينه)

أ- العلم بالله (المبعود). ١- العلم بذاته. ٢- وصفاته . ٣- وأفعاله. ٤- وأسمائه. ٥- وتنزيهه عما لا يليق به.

ب- العلم بدينه. (العبادة) وينقسم إلى قسمين. الأمري والجزائي.

الأمري (الشرعي) الصراط المستقيم الموصل إليه.

الجزائي (الثواب والعقاب – الملائكة – الرسل – الكتب)

٢- عملاً (ا- مرتبة أصحاب اليمين ، ب- مرتبة السابقين)

أ- مرتبة أصحاب اليمين. ١- فعل الواجبات. ٢- ترك المحرمات. ٣- ارتكاب المباحات (مع ترك بعض المستحبات وارتكاب بعض المكروهات). ودرجات المرتبتين لا يحصيها إلا الله.

ب- مرتبة السابقين. ١- القيام بالواجبات والمندوبات. ٢- وترك المحرمات والمكروهات. ٣-وخاصتهم مباحاتهم طاعات بالنيات الصالحات.

٢١- قواعد العبودية: (١٥) من كمّلها كمّل مراتب العبودية.

القلب واللسان والجوارح[١] مع الأحكام التكليفية الخمسة.

أولاً القلب: واجب القلب: منه متفق عليه ومنه مختلف فيه فالمتفق عليه (الاخلاص – التوكل – المحبة – الصبر – الانابة – الخوف – الرجاء – التصديق الجازم – والنية (وهي قدر زائد على الاخلاص، فالاخلاص: افراد المعبود عن غيره. والنية لها مرتبتان: تمييز العبادة عن العادة وتمييز مراتب العبادة بعضها عن بعض. وهذه الثلاثة واجبة) – وكذلك النصح في العبودية: وهو ايقاعها على الوجه المحبوب للرب وأصله واجب، وكذلك كل واجب من الواجبات القلبية – له طرفان: واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين وكمال

(١) **القلب:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ والمحبة هي أصل عمل القلب كما أن التصديق هو أصل قول القلب/ وانظر أول صـ١٠ (السلوك) لشيخ الإسلام ابن تيمية وحبّذا لو نقلت منه عبارات.

اللسان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾

الجوارح: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾

مستحب وهو مرتبة المقربين – والصبر واجب باتفاق الأئمة قال أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن أو بضعاً وتسعين وله طرفان كما تقدم.

وأما المختلف فيه : الرضا: والمراد الرضا بالقضاء الكوني فهذا هو الذي اختلفوا في وجوبه وانظر الفتاوى (١٠/٤٠-٤٣)، وأما الرضا بأمره الديني وبه سبحانه رباً وإلهاً فهذا فرض بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا "رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً".

لماذا اختلفوا في الرضا؟ قالوا: لأن الله لم يأمر به في القرآن ولا في السنة وإنما مدح أهله وأثنى عليهم بخالف التوكل والإنابة والخوف والصبر والاخلاص فكل هذه مأمور بها ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ . ولـيُعلم أن التألم لا ينافي الرضا كالمريض الذي يتألم من الدواء وهو راضٍ به وكالصائم يتألم من الصوم في شدة الحر وهو راضٍ به. واختلفوا أيضاً في الخشوع في الصلاة: قولان في مذهب أحمد ومن الحنابلة من أوجب الإعادة على من غلب عليه الوسواس فيها. وأكثرُ الفقهاء على عدم إيجاب الاعادة، قالوا: لأن النبي ﷺ لم يأمر بالإعادة من سها حتى لا يدري كم صلّى وإنما أمره بسجود السهو. ولكن اعلم أنهم لم يختلفوا في أنه لايثاب على شئ من صلاته إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه كما قال ﷺ "إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ... إلى أن بلغ عشرها"/ حديث حسن د (٧٩٦).

وقال ابن عباس: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلتَ منها. فإذن صلاته صحيحة – ظاهراً – لكن الثواب على قدر حضور القلب فقد تكون الصلاة صحيحة ولا يحضر قلبه البتة فلا يثاب عليها. وذلك أن كلمة الصحة تطلق على ما اجتمع فيه الشروط الاصطلاحية ظاهراً دون الأعمال الباطنة من خشوع وحضور وإخلاص فإن هذا لا يعلمه إلا الله، كالمنافق الذي هو مسلم في الظاهر وكافر في الباطن لكن هذه الصحة الظاهرة لا تقتضي سقوط الفرض وعدم المؤاخذة في الآخرة(١). ولو قال إنسان – كثر سهوه - أعيد صلاتي ليُكتب لي خيراً مما كُتب لكان له ذلك والله أعلم.

وهذه الأعمال الواجبة للقلب هي عبوديته – وهو الملك – فالواجب أن يكون قائماً بعبوديته هو ورعيته من الجوارح. وإلا فقد تقوم الرعية بعبوديتها دون القلب وهذه عبادة لاعماد لها.

وأما المحرمات التي على القلب: الفكبر والرياء والعُجب والحسد والغفلة والنفاق. وهي نوعان: كفر ومعصية، فالكفر: كالشك والنفاق والشرك والتوابعها. والمعصية نوعان: كبائر وصغائر فالكبائر: كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم

(١) قال شيخ الإسلام (١٠/١٥): "أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها".

وحسدهم وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن. وهذه الآفات تنشأ من الجهل بعبودية القلب وترك القيام بها.

فوظيفة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وأما الصغائر: فالأمور المتقدمة إذا كانت يسيرة خفيفة وكذلك شهوة المحرمات وتمنيها، ولكن هذه الشهوة متفاوتة في الكبر والصغر فشهوة الكفر والشرك: كفر، وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية فإن تركها مع قدرته عليها أثيب وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدورة في تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته في الثواب والعقاب وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع مثاله: تمنى الزنا وسعى له مقدوره لكن ما تمكن فهذا له عقاب الزاني في الآخرة لا في الدنيا ولهذا قال ﷺ – خ(٦٨٧٥)، م (٢٨٨٨) عن أبي بكرة – "إذا التقى المسلمان...." فنزّ له منزلة القاتل في الإثم دون الحكم ولذلك نظائر. وأما المستحب والمباح والمكروه فعُلم من الكلام على الصغائر.

ثانياً اللسان:

الواجب: النطق بالشهادتين، تلاوة ما يلزمه من القرآن (وهو ما تتوقف عليه صحة صلاته)، تلفظه بالأذكار الواجبة (كالتسبيح في الركوع والسجود وقول: ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال، والتشهد والتكبير وغير ذلك)، رد السلام (وابتداؤه في قولان)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الاستطاعة، وتعليم الجاهل، وارشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

المستحب: تلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، المذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

المحرّم: النطق بكل ما يبغض الله ورسوله: كالبدع والدعوة إليها، وكالقذف والسب والأذى، وكالكذب، وكشهادة الزور، والقول على الله بلا علم.

المكروه: التكلم بما تركه خير (وهو اللغو).

المباح: هل هناك كلام مباح مستوى الطرفين؟ قولان: الأول نعم كما في حركات الجوارح[١] وكثير من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي وهذا شأن المباح. والثاني لا بل كل كلام يكتب كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ولا يكتب إلا الخير والشر.

(١) حرّك يده ليجاهد في سبيل الله الجهاد الواجب (واجب).
حرّك يده ليعتدي بها على إنسان (حرام).
حرّك يده ليحك شعره (مباح).

قال ابن القيم: والتحقيق أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة./ قلت: ولذلك قال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت" وقال: "وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم" وقد قال النووي: اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المحصلة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعد لها شئ أ.هـ/ الرياض ص ٥١٩ ألباني وقال في الحديث المذكور – "من كان يؤمن ....." وهذا صريح في أن ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً – وهو الذي ظهرت مصلحته – ومتى شك في ظهور المصلحة – فلا يتكلم. أهـ. قلت: والأحاديث متظاهرة على ما قال ابن القيم، ذكر النووي في "الرياض" طائفة منها وفي السلسلة الصحيحة لو جُمعت لجاءت كتاباً عظيماً./ قال ابن القيم: فإن كان مما يُرضي الله ورسوله فهو الراجح وإلا فمرجوح وهذا بخلاف حركات الجوارح فإنها – أي الحركات – قد تكون فيما ينفعه في دنياه ولا مضرة عليه في الآخرة وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة لأنه إذا تحرك عند عدم الحاجة كانت هذه الحركة مرجوحة لا تفيده فتكون عليه لا له. وقد يكون الكلام مباحاً مستوى الطرفين لكن حركة اللسان به (وهي الوسيلة إلى ذلك).

ليست مستوية الطرفين كالنذر وسلة إلى الطاعة المنذورة يجب عليك الوفاء بها مع أن النذر مكروه. وكذلك الحلف مكروه مع وجوب الوفاء به أو الكفارة. وكذلك المسألة مكروهة مع إباحة الانتفاع بما أخرجته له المسألة.

الوسيلة	الغاية
(مكروه) - النذر	وجوب الطاعة المنذورة. (واجب)
(مكروه) - الحلف	وجوب الكفارة. (واجب)
(مكروه) - حركة اللسان بالكلام	الكلام (مباح)
(مكروهة) - المسألة	المال المستفاد بها (مباح)

ثالثاً الجواح: (السمع – البصر – الذوق – الشم – اللمس) والحواس خمس على كل جارحة خمس فيكون الحاصل خمساً وعشرين:

١- السمع.

الواجب: استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، واستماع القرآن في الصلاة واستماع الخطبة.

الحرام: استماع الكفر والبدع إلا لمصلحة (كرد أو شهادة على قائله أو زيادة إيمان وتمسك بالسنة بمعرفة الضد؟) ، واستماع صوت المرأة الأجنبية التي يُفتتن بصوتها إلا لمصلحة (كشهادة ومعاملة واستفتاء ومداواة ونحو ذلك، واستماع

المعازف ولا يجب عليه سدُّ أذنه إذا كان لا يريد الاستماع إلا إذا خاف السكون إلى الصوت(١).

المستحب: استماع المستحب من العلم والقرآن والذكر.

المكروه: استماع كل ما يُكره ولا يعاقب عليه كاستمع اللغو ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾. **المباح**: ظاهر.

٣- النظر.

الواجب: النظر في وسائل العلم الواجب عليه، والنظر في الأعيان لتمييز حلالها من حرامها (كالإناء إذا كان فيه ما صار مسكراً) والنظر في الأمانات يؤديها إلى أهلها.

الحرام: النظر إلى الأجنبيات.

١- **إذا كان بشهوة**: حرم مطلقاً.

٢- **بغيرها**: حرم أيضاً لكن يجوز للحاجة كنظر الخاطب والطبيب. ، والنظر إلى العورات (وراء الثياب ووراء الأبواب) "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل....".

---

(١) وانظر تحريم آلات الطرب (١١٦-١٢٠).

المستحب: النظر في العلم المستحب.

المكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه كفضول الكلام.

المباح: ظاهر.

٣- **الذوق الواجب**: تناول الطعام والشراب عند الاضطرار وخوف الموت، ولو ميتةً وإلا مات عاصياً قاتلاً لنفسه.

الحرام: ذوق الخمر والسم وما يحرم على الصائم.

المكروه: كذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وأن تفجأ إنساناً ولم يُرِد أن يدعوك وكطعام المرائين كما في ص.د (نهى عن طعام المتبارين) [١] وكذلك ما يوزعونه من الأطعمة في الإحتفالات المبتدعة. قلت: (وعن معاقرة الأعراب) ومن أطعمك حياءً.

المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله، الأكل مع الضيف ليطيب له الأكل.

٤- الشم:

الواجب: ما لابد منه للمييز بين الحلال والحرام والطيب والخبيث.

(١) الصحيحة (٦٢٦): "المتباريان لا يُجابان، ولا يُؤكل طعامهما"/ أبو داود. أطعمة باب ٧. وإنما كُره لما فيه من المفاخرة والرياء. قلت: وذلك إذا كان من جانب الغالب وأما إذا كان من جانب المغلوب شرطاً فهو القمار ويحرم. والله أعلم.

الحرام: تعمد شم الطيب في الإحرام ومن النساء. قوله "فشم الناس ريحها" ليس فيه إباحة. وكشم الهيروين.

المستحب: شم ما يعينك على طاعة الله "حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء...." وعند م (٢٢٥٣): "من عُرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الريح، خفيف المحمل" وحديث: "ثلاثٌ لا ترد، اللبن والدهن والوسائد"/ الصحيحة (٦١٩).

المكروه: شم طيب اللّمة وأصحاب الشبهات.

المباح: واضح.

٥ـ اللمس:

الواجب: لمس الزوجة عند وجوب جماعها.

الحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

المكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، ولمس فخذ الرجل.

المستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام.

المباح: ظاهر.

وكذلك **٦ـ البطش باليد. ٧ـ والمشي بالرجل. ٨ـ والركوب.**

مصطلحات وأساليب:

١- العلم لوامع وبوارق ولوائح، فإذا عمل به الإنسان صار حالاً له[١] وقد لا يذكر العلم عندئذ وهذا لا يضره. فإذا تمكن من هذا الحال صار مقاماً.

٢- قد ينسلخ السالك من مقام دخل فيه، وقد يعود إليه وقد لا.

٣- هناك مقامات قد تجمع مقامين أو أكثر ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات. **فالمحبة**: (المعرفة والخوف والرجاء والإرادة). **والتوكل**: (التفويض والإستعانة والرضا). **والإنابة**: (المحبة والخشية). **والتوبة**: (المحاسبة والخوف).

والإخبات: (المحبة والذل والخضوع). **والزهد** (الرغبة والرهبة). **والخشية**: (معرفة الله ومعرفة عبوديته) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

والهيبة: (المبحة والإجلال والتعظيم).

ومقام الشكر يجمعها كلها ولذا كان أرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا وهو يتضمن الصبر. والإيمان صنفان صبر وشكر، والصبر داخل في الشكر (وقليل من عبادي الشكور). **والحياء**: (المعرفة والمراقبة). **والأُنس**: (المبحة والقرب).

---

(١) ورد هذا اللفظ في الأثر المعروف تحت الصحيحة (٢٦٤٨). قال ابن مسعود والحسن البصري: من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ص وإقمة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)/ جامع بيان العلم.

والصدق: (الاخلاص والعزم). **والمراقبة**: (المعرفة والخشية). **والطمأنينة**: (الإنابة والتوكل والتفويض والرضا).

٤- كل مقام من هذه المقامات السالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار في أذياله ومقربون في ذروة سنامه.

٥- هذه المقامات مقامات ترقية إذا وصل السالك إلى مقام أعلى صار أحق بإسم هذا المقام مع ثبوت أسماء المقامات التي هي أدنى. أي أنه يدخل المنزل فيخرج منه متصفاً بما فيه إلى منزل آخر وهكذا لكن يُسَمّى باسم أعلى المقامات التي وصل إليها لأن هذا المقام العالي يتضمن ما دونه من المقامات..

٦- كل مقام من هذه المقامات من شرع فيه فهو المريد وهو فوق العابد ودون الواصل. والعارف السالك. إن أراد عموم العبودية فنعم – وهذا مراده – وبقية الأسماء هي ترقى في مقامات العبودية لكن هذه المصطلحات مخيفة ويكفينا أن نقول:

- **مراتب تحقيق العبودية**

(عابد – مريد – سالك – عارف – واصل)

مريد: (بداية الدخول في المقامات إرادة)

عارف: منهم من يرجح المعرفة على العلم بل يَعُد العلم قاطعاً عن المعرفة. وهؤلاء لم يرفعوا بالعلم رأساً..

وأهل الإستقامة من العارفين يوصون مريديهم بالعلم ولا يكون عندهم وليٌّ إلا من أولى العلم والفرق بين العلم والمرعفة عندهم أن المعرفة تنقسم إلى:

١- العلم بالله. ٢- وبالطريقة المولصلة إليه. ٣- وبآفات النفس. ٤- وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة. ٥- وجرّد الدعوة إلى الله عزوجل بما جاء به رسوله لا بالهوى ولا بالآراء.

فإذن – عندهم – العارف: العالم الذي عمل بمقتضى علمه ودعا الناس إليه. قلت: فعندهم المعرفة اصطلاح أوسع ومتضمن للعلم مع أن حقيقة المعرفة وحقيقة العلم متباينتان من وجوه:

أ- المعرفة تتعلق بذات الشئ والعلم يتعلق بأحواله تقول: عرفت أباك وعلمته صالحاً والتعبير بالعلم في القرآن أكثر.

ب- المعرفة – في الغالب – تكون لما أُدرك فغاب عن القلب ثم إذا رآه عرفه فهي ضد الانكار. وأما العلم فهو ضد الجهل.

قلت: أنا لا أوافق على هذه المصطلحات حتى ولو كان لها معنى صحيحاً والواجب التكلم بألفاظ الكتاب والسنة، وأشرف الأسماء العبد والعالم فإن الله

عزوجل مدح العُبّاد والعلماء في غير ما موضع من كتابه قال تعال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ وأرشد نبيه إلى أن يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بعد أن ذكر العمل وهو قيام الليل فعُلم أن العلم الممدوح المراد به العمل به وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ وغير ذلك من الآيات.

٧- السالكون في المدارج وإلى المنازل ينبغي أن يجمعوا بين العلم والحال(١) (أي العمل بالعلم) فلا يشغلهم أحدهم عن الآخر.

٨- هذه المنازل اختلفوا في ترتيبها أيها يُسلك أولاً وأيها يكون المنتهى. والصواب أن كل إنسان له حالة خاصة به فقد يبدأ إنسان بمقام جعلوه أعلى فيحصل له المقامات الأدنى – على زعمهم – كما في التوبة جعلوها أولاً مع أنها أيضاً آخراً قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ وكيف لا تكون أخر المقامات والإنسان لا ينفك عن ذنب والدليل على أن الإنسان لا ينفك عن ذنب. حديث ابن عباس مرفوعاً: "ما من عبد إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفنية...."

(١) ورد لفظ الحال في أثر ابن مسعود والحسن/ انظر تحت الصحيحة (٢٦٤٨) لكن ليس المراد به ما أراده القوم.

فليس في ذلك ترتيب على لازم للسلوك ومع ذلك فقد اختار ابن القيم ترتيباً مستحسناً لا مستحقاً، وهو ترتيبها بحسب ترتيب السير الحسي ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود لتسهيل الضبط وتكميل المعرفة.

٩- السائر لا ينقطع سيره أبداً ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ بل كلما ازداد علمه ازداد سيره ثم انتقد ابن القيم تقسيمهم إلى مريد وسائر وواصل.

١٠- من السائرين من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من السير بقلبه وروحه ومنهم العكس ومنهم الكُمّل الذين يسيرون بالجميع ويكون خلاصة حاله أن مراده تبع لمراد ربه ليس له إرادة في سواه.

١١- اختار ابن القيم أن يتكلم على المنازل على طريقة المتقدمين فيُذكر (المنزلة وبيان حقيقتها – وآفاتها القاطعة عنها – وذكر عامها وخاصها) وهؤلاء المتقدمون غرضهم بذلك (تطهير القلوب – وتزكية النفوس – وتصحيح المعاملة) وكلامهم قليل كثير البركة وكلام غيرهم كثير قليل البركة.

١٢- همّة القوم المتكلمين عن هذه المنازل ثلاثة أشياء:

١- الكشف عن منازل السير.

٢- الكشف عن عيوب النفس.

٣- الكشف عن معاني الأسماء والصفات وحقائق التوحيد.

فنحن نأخذ ما عندهم من حق في هذه الأشياء الثلاثة لنستعين به على مطلبنا، فالكمال المطلق له رب العالمين.

١٣- ويرى ابن القيم أنه عند مخاطبة القوم فيخاطبهم باصطلاحهم لأنهم لو خوطبوا باصطلاح السلف لعدّوهم عوامّاً وهذا كالمتكلمين قالوا عن السلف: كانوا أسلم وهم أعلم وكذلك قال المنتسبون إلى الفقه: إنهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط أصوله والمتأخرون فعلوا هذا.

وكل هذا من جهلهم بطريقة السف فإن المتأخرين ما امتازوا عنهم إلا بالتكلف والإشتغال بالأطراف.

١٤- والخلاصة أن الأولى بنا أن نذكر منازل العبودية التي هي حدود ما أنزل الله على رسوله حتى لا يصيبنا حظ من قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ والعبد يستكمل الإيمان ويكون من أهل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ بمعرفة هذه الحدود دراية والقيام بها رعاية.

والآن نشرع في بيان هذه المنازل:

١- اليقظة:

● **تعريف اليقظة**: العبد قبل وصول الداعي إليه في غفلة – كما هو حال أكثر الناس اليوم: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ ﴾ ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩ ﴾ ونـدم الظالمون أشد الندم يوم القيامة فلم يذكروا إلا الغفلة ﴿ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ – فإذا دعاه الداعي فانتبه فَزِعاً فإن هذا الانتباه مع الفزع يُزعج قلبه فيبدأ في الحركة فهذه هي اليقظة. فإذن اليقظة: هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. قلت: فالذي أزعج قلبه قو فزع الانتباه لا مجرد الانتباه.

● **آثارها**: فإذا حصلت اليقظة ١- لحظة نعمة الله عليه وتحققة بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ ثم ٢- لحظ تقصيره في شكر هذه النعم فقال: فقال: "أبوء لك بنعمتك عَلَيّ وأبوء بذنبي فاغفر لي"، ذنبُه لأنه مقصّر في الشكر. فيصل من هذا إلى ٣- أنه جانٍ فيطلب ٤- التمحيص من جنايته بالنظر إلى ما سلف من إساءته ٥- والتشمير للتمحيص بالعلم والعمل لماذا التمحيص من الإساءة؟ لأنه لابد منه لدخول الجنة قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

طَيِّبِينَ ﴾ وقال: وقال ﷺ : "واعلموا أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة"[(١)] والإيمان هنا أي الكامل واجبه. والجنة دار الطيبين فليس فيها ذرة خَبَث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: (التوبة – الاستغفار – عمل الحسنات الماحية – المصائب المكفرة) فإذا لم تَفِ هذه بتمحيص مُحِّص في البرزخ بثلاث أشياء (صلاة الجنازة عليه – فتنة القبر وضمّه وانتهاره فيه – ما يهُدى إليه من أعمال (ومذهب أحمد في ذلك أوسع المذاهب فعنده يصل إليه كل شئ يُهدى. ويُنقل الاجماع على وصول الدعاء والصدقة لكن في الاجماع على الصدقة كلام راجعه في أحكام للجنائز للألباني) ص ١٧٣).

فإن لم يف هذا بتمحيص مُحِّص يوم القيامة بين يدى ربه بأربعة أشياء (أهوال القيامة – شدة الموقف – شفاعة الشفعاء – فعو الله عزوجل).

فإن لم يفِ هذا بتمحيص فلابد من دخول كيِر جهنم. وبقاؤه فيه على حسب كثرة الخبث وقلته.

أعلى مراتب اليقظة: هو الانتباه إلى ساعات عمره، كم مَرّ منها وكم بقى وكم له وكم عليه فيتدارك ما فاته ويعمّر الباقي، ويعلم أن كل نّفَس يخرج في غير ما

---

(١) خ (٣٠٦٢) وم (١١١) ولفظه "لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة" وفي لفظ: "إلا مؤمن" والحديث له قصة الذي أبلى بلاء حسناً عام خيبر ثم أصابته جراح فلم يصبر فقتل نفسه وهو الذي قال فيه ﷺ: "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

يقرّب إلى الله فهو حسرة على العبد في معاده. وهذا يستقيم للعبد بـ (سماع العلم – وصحبة الصالحين[1] – وتعظيم حرمات الله تعالى إذا دُعي إلى ذلك وذلك أنه بالعلم يعرف مراتب الأعمال وكيف يفعل العمل المناسب للوقت الذي إن فات لم يمكنه التدارك، ثم بسرعة إجابته للداعي وهو العمل بالعمل ثم صحبة الصالحين لمعرفة درجته ومستواه من الصلاح.) وملاك ذلك كله خَلْع العادات. هذه العادات التي ما على العبد أَضَرُّ من مِلكها له، والكفار ما عارضوا الرسل إلا لأجل هذه العادات الموروثات التي نشأوا عليها ومن لم يتخلص من هذه العادات فهو مقطوع ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

٢- **منزلة الفكرة**: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

إذا استحكمت اليقظة أوجبت الفكرة.

وهي: تحديث القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.

---

(١) فيه رد عنيف وتغليظ منيف على هؤلاء المخدوعين بأخذ العلم عن طريق الانترنيت وهجروا المساجد ولن يحصّلوا شيئاً.

وهي نوعان ١- فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة لتمييز الحق من الباطل. ٢- وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة لتمييز النافع من الضار. وهذه يترتب عليها الفكرة في طريق تحصيل النافع وطريق تجنب الضار.

وهذا هو الفكرة في التوحيد بنوعيه ١- العلمي (الربوبية والأسماء والصفات). ٢-العملي (الإلهية لله وحده).

- **ثمرة الفكرة:**

فيصل من ذلك إلى حقيقة البراء والولاء، البراء من عبادة غير الله والولاء لله كما قال إمام الموحدين إبراهيم الخليل كما في سورة الأنعام ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ والزخرف ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ والممتحنة ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وكما قال الله تعالى للخليل الثاني محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ وسمّها ص براءة من الشرك وأمر الصحابيَّ أن ينام على خاتمتها. وهذا ما يُسَمّى أيضاً الفرق والجمع ويُسمّى التجريد والتفريد ويُسمّى المحو والإثبات وهو النفي والإثبات.

٣- منزلة البصيرة: فالبصيرة نتيجة الفكرة.﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾

- إذا صحّت فكرته أوجبت له البصيرة.

- وهي نور يقذفه الله في القلب يرى به البعد حقيقة ما أخبرت به الرسل من (الأسماء والصفات والأمر والنهي والوعد والوعيد) ينفتح في قلبه عين يرى بها ذلك ﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ وليُقرأ ما في ص١٦١-١٦٢ بحروفه فإنه جِدّ نافعٌ.

- **والبصيرة على ثلاث درجات:**

الأولى: البصيرة في الأسماء والصفات: بأن يشهد قلبك ما أخبر الله عزوجل به من ذلك وما أخبر به رسوله ﷺ من ذلك (وليقرأ ما في ص ١٦٢-١٦٣) وحصول هذه البصيرة بحسب العلم بالنصوص النبوية ودفع الشُّبه عنها وأضعف الناس في هذه البصيرة أهل الكلام لبعدهم عن النصوص، والعوام – الذين ليسوا مؤمنين عندهم – أتمُّ بصيرةً منهم وأقوى إيماناً وأعظم تسليماً.

الثانية: البصيرة في الأمر والنهي:

وذلك بـ:

- أن يُجرّدا عن المعارضة بـ (تأويل – أو تقليد) شبهة علمية أو(هوى) شهوة عملية.

- ألا يُعرّضا لتشديد غال. كمن يشترط شروطاً في العبادات والمعاملات يكون من شأنها التضييق والحرج (إفراط).

- ألا يعارضا بترخيص جافٍ كالحيل (تفريط).

- ألا يُحْملا على علة توهن الانقياد فيقال المراد كذا وليس كذلك.

الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد:

شهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. فالمعاد معلوم بالعقل ولكن اهتُدى إلى تفاصيله بالوحي، وإنكار المعاد إنكار لقدرة الله تعالى وإلهيته (قلت: الأخيرة لأن منكر المعاد يلزمه ألا يؤلّه ولماذا يؤلّه وهو لا يُبعث؟!!!) وإنكار المعاد عَجَب من الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ وفيها قولان: ١- أي فعجبٌ قولهم هذا وقد خلقوا مما يعملون وهذا الذي لم يذكر ابن كثر غيره. ٢- أي إن تعجب من شركهم فقولهم هذا أعجب.

- **البصيرة عند صاحب المنازل:**

- هي ما يخلّصك من الحَيْرة.

- والدرجة الأولى منها: تأدية خبر الرسول وأنت موقن بذلك لا يعتريك شك (في العلم) ولا شكوى (في العمل). والغضب على من خالف ذلك غيرةً على الحق أن يضيع. فإن شككت أو لم تغضب عَمِيت عين البصيرة.

والدرجة الثانية منها: شهود العدل في الهداية والإضلال (والمراد بالعدل هنا تفرد الله بذلك ووقوعه منه على وجه الحكمة والعدل، والله أعلم بالشاكرين ولم

يطرد عن بابه إلا من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد ولا يقال فلِم خلق مثل هذا؟ فإن هذا سؤال من هو أفرط في الجهل والظلم والضلال غاية الافراط. والجواب: أَنّه خَلْق الأضداد والمتقابلات من كمال الربوبية كالليل والنهار والحر والبرد والجنة والنار وكذلك المؤمن والكافر). ثم شهود تقريبه سبحانه لك في توفيقه لك فتستدل بالتوفيق على التقريب (قلت: وما أدلّها من علامة. فاللهم يا وليّ الإسلام واهله دُلّنا على التقريب بالتوفيق وثبتنا عليه حتى نلقاك) وإذا رأيت ذلك ازددت محبة له سبحانه وشكراً له جل جلاله.

والدرجة الثالثة: درجة تُفَجّرُ المعرفة وتُنبت الفِراسةَ. قال تعال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾. قال مجاهد للمتفرسين. وقال ﷺ: "إن لله بعاداً يعرفون الناس بالتوسم"/ الصحيحة (١٦٩٣) وأما حديث أبي سعيد عند الترمذي فضعيف في إسناده عطية العَوفى.

والتوسم: تَفَعُّل من السيما أي العلامة فسُمّى المتفرس متوسماً لأنه يستدل بما يشهد على ماغاب. كما هو شأن أولى الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ بخلاف من ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ وهو الحجاب الكثيف المانع من رؤية الحق والانقياد له. وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة، وأحسن الفراسة: ١- كشف

طريق الرسول وتخليصها من الطرق المخالفة. ٢- وكشف عيوب النفس وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين.

٤- منزلة العزم:

- مقدمة العزم قصد يحث على الاقتحام: فإنه إذا استيقظ – على الصفة السابقة ذكرها – وتفكر وتبصر – على ما تقدم – أخذ في القصد الصادق وأجمعه على السفر (الهجرة إلى الله) لأنه يعلم أنه لابد له من هذا السفر فيأخذ في الاستعداد له بالتزود ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هذا الزاد، وأما السفر ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾. وكذلك يستعد له بالتجرد من عوائقه. وقطع العلائق الموانع. مثاله: يريد سفراً إلى جهة ما فالزاد النفقة والتجرد تأكيد الحجز والتأكد من صلاحية الجواز. والقطع: كالتعلق بالزوجة والأولاد.

قال أبو عبدالرحمن: ذُكر دليل الأول وأما الثاني ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾. والثالث: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ . والله أعلم.

وقال أبو عبدالرحمن أيضاً: الزاد فعل للمطلوب والتجرد دفع للعائق الخارجي والقطع دفع للعائق الداخلي الذي هو بإرادة الإنسان واختياره.

- فوائد هذا القصد ١- يبعث على الارتياض (أي السلوك بلا توقف). ٢- ويخلِّص من التردد. ٣- يدعو إلى مجانبة الأغراض (من رياء وسمعة وطلب محمدة أو جاه أو منزلة).

- أثر القصد في صاحبه فإذا تحقق هذا القصد وآتى ثماره المذكورة آنفاً صار صاحبه: ١- منقاداً للعلم ليتهذب به. ٢- وقاصداً إجابة داعي الحكم الديني ليمتثل له. ٣- وإذا عرف ما تضمنه الحكم من الأسرار والحِكم حصلت له المعرفة والمحبة والحمد.

فالعزم هو: استحاك القصد الصادق.

- فإذا استحكم هذا القصد صار عزماً جازماً مستلزماً للشروع في السفر متوكلاً على الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

- والعزم هو القصد الجازم المتصل بالفعل فينشأ عنه الشروع في الحركة ولإتصاله بهذا الشروع ظُن أنه هو.

- وحقيقته: استجماع قوى الإرادة على الفعل.

- والعزم نوعان ١- ليدخل به في الطيقه (وهو من البدايات). ٢- وعزم في حال لسير (وهو من المصطحبات).

- وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ماله وما عليه وهي المحاسبة ليستصحب ماله ويؤدي ما عليه كالمسافر تماماً فإن أخذ في أداء ما عليه والخروج منه فقد دخل في التوبة.

تنبيه لا بد منه يضاف إلى المصطلحات ص١٧١-١٧٣ المقامات المقطوعة لا تُفارق بل هي مصطبحة في كل مقام فاليقظة والبصيرة والتوبة معه في كل مقام فهي أولاً وآخراً وما بينهما كما سيأتي. فيكون ذلك الترتيب من ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له لا أنه مشروط متوقف على شرطه ثم ينفك المشروط عن شرطه.

وكذا إذا وصل إلى مقام الرضا لا يعني أنه فارق الصبر إذ كان الصبر قبله وهكذا.

٥- منزلة المحاسبة:

- المنازل الأربعة المتقدمة لابد منها لكل منزلة فهي كالأساس للبنيان، وعليها مدار السفر إلى الله عزوجل، وهي مرتبة كما مر (يقظة – تفكر – تبصر – عزم) فإذا عزم وأجمع قصده نزل منزلة المحاسبة ولذا شرعت الوصية عند السفر.

- ما هي المحاسبة؟ التمييز بين ما له وما عليه فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه لأنه مسافر سفر من لا يعود

- وهل المحاسبة مقدمة للتوبة أم نتيجة لها؟ الصواب أن التوبة محفوفة بمحاسبتين: سابقة عليها تقتضيها ولا حقة بها تحفظها.

- من أدلة هذه المنزلة قوله تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ فأمر سبحانه بهذا النظر وهو يقتضي المحاسبة هل يصلح ما قدّمه من عمل للقاء ربه أو لا يصلح؟! ووالله إن هذا لهو السؤال؟!! (يصلح أو لا يصلح!!!) والمقصود من هذا السؤال أن يستعد ليوم المعاد وتقديم ما ينجيه من العذاب.

ومن الأدلة قول عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ رواه ابن أبي الدنيا في كتاب "المحاسبة" وأبو نعيم في "الحلية" وذكره الترمذي عند حديث "الكيس من دان نفسه...." وهو حديث ضعيف – قال بعده: ويُروى عن عمر.... وابن المبارك في "الزهد". والألباني في الضعيفة: (١٢٠١) وغرضه تضعيفه مرفوعاً ولذا قال: موقوف وإسناده جيد إن كان سمعه ثابت بن حجاج من عمر، والراجح عدم سماعه منه. فإذن الأثر منقطع. والله أعلم. وقال ميمون بن مهران – كما يحاسب شريكه، من أين مطعمه وملبسه؟

- بداية المحاسبة: مقايسة بين نعمته سبحانه وجنايتك أتليق الجناية في مقابل النعمة؟!!! فحينئذ تعلم قدر نفسك وقدر ربك وأنه المتفرد بالكمال والإفضال، ويظهر لك أنك منبع الشر وأنك جاهل ظالم ولا فكاك لك إلا بعفوه سبحانه ورحمته وأنه لولا فضله ورحمته ما زكى أحد ولولاه ما اهتدى أحد. هذه المقايسة الأولى. والمقايسة الثانية: مقايسة بين الحسنات والسيئات أيهما أكثر وأرجح بالنسبة لك.

- هذه المقايسة (بنوعيها) لاتتم إلا بآلات:

١- **بنور الحكمة**: وهو العلم الذي تميز به بين الحق والباطل والهدى والضلال والضار والنافع والكلام والناقص. والخير والشر والراجح والمرجوح والمقبول والمردود.

٢- **بسوء الظن بنفسك**: وذلك أن حسن الظن بالنفس يمنع من كال التفتيش عن عيوبها ويُلبّس حتى ترى العيوب محاسن. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس.

٣- **بتمييز النعمة من الفتنة**: ليعرف هل هي نعمة حقاً أم استدراج فكم من أ- مستدرج بالنعم وهو لا يشعر. ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ . ب- مفتون بثناء الناس عليه. ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾. ج- مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا

﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥﴾. قال ابن كثير: أي لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا. ليس الأمر كما يزعمون، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وانظاراً وإملاءً. وقال قتادة مُكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح. ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾.

- ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

- وفي الصحيحة (٢٧١٤) عن ابن مسعود مرفعاً: "إن الله تقسم بينك أخلاقطم كما قسم بينك أرزاقطم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من أحب فمن ضن بالمال أن ينفقه وخاف العدو أن يجاهده وهاب الليل أن يكابده فليُكثر من قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

- وقال سليمان عليه السلام (هذا من فضل ربي لبلوني أأشكر أم أكفر). ولا ينفك – بالنسبة لما أُعطى – عن أن يكون نعمة ومنة أو فتنة وحجة عليه كما يتضح مما يلي:

العطاء	نعمة ومنة	فتنة

		وحجة
القوة	لتنفيذ مرضاة الله	وإلاّ
المال	للإنفاق في سبيل الله وتيسير الطاعة	وإلاّ
الفراغ	للاشتغال بمراد الله	وإلاّ
القبول في الناس وتظيمهم له	اقترن بالانكسار لله والمعرفة بعيب النفس	وإلاّ
العلم والحال	اقترن بزيادة في الإيمان والسير إلى الله	وإلاّ

ـ فإذا توغلت في هذه المقايسات فتحت لك المحاسبة باب التمييز بين ما عليك من الطاعة (بفعل الواجب والمستحب وترك الحرام والمركوه) وما لك من (المباح) فتفعل ما عليك وتتمتع بمالك وإياك والإفراط بأن تتجنب ما لك كهؤلاء النفر الذي عزموا على ترك المباح كما رواه أنس عند خ م. وإياك والتفريط بأن تجعل ما عليك من قسم ما لك فلا تفعله.

ـ لكن ينبغي الانتباه إلى شئ بلغ من الأهمية الغاية العظمى ألا وهو أنه بعد التمييز بين ما لك، وما عليك (من الطاعة) إياك والاغترار بالطاعة والرضا بها وإحسان الظن بها لأن هذا يدل على جهلك بنفسك وبربك ويتولد من ذلك من العجب والكبريا ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة كالزنا وشرب الخمر (فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها). ولذا كان الاستغفار بعد الطاعات لأجل التقصير فيها وترك القيام بها كما يليق بجلال الله وكبريائه وأنه لولا الأمر بها لما أقدم أحد على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده.

ومن أدلة الاستغفار:

- قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ .. .. .. وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا بعد الحج.

- وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ مَدُّوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله. قاله الحسن.

- وفي الصحيح أنه ﷺ كان إذا سلّم من الصلاة استغفر ثلاثاً ثم قال : اللهم أنت السلام ...م(٥٩٢) عن عائشة.

- وعند نهاية العمر وأداء ما عليه قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فهي أجل رسول الله ﷺ كما فهم منها عمر وابن عباس.

- وعند خاتمة الوضوء: "سبحانك اللهم وبحمدك...." فهذا الاستغفار في خاتمة: الحج والعمر والصلاة وصلاة الليل والوضوء "الكبرياء ردائي والعظمة ازاري..."

قال بعض العارفين: متى رِضيْتَ نَفسَك وعَمَلَك لله فعلم أنه غير راضٍ به ومن عرف أن نَفْسَه مأوى كل شر وعيب وعمله عُرضةٌ لكل نقص وآفة كيف يرضى لله نفسه وعمله؟!.

وانظر كلام الشيخ أبي مدين ص ١٨٢-١٨٣ وخلاصته أن تنظر إلى أفعالك بعين الرياء وأحوالك بعين الدعوى وأقوالك بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك صغرت نفسك وتضاءل ما تبذله في تحصيله فتعلم أنك لو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته.

- والشئ الثاني الحريّ بالانتباه إليه وهو متمم للأول أن تربأ بنفسك عن تعيير المقصّرين فإنه ناشئ من صولة الطاعة ولعل انكساره لأجل ذنبه أحب إلى الله تعالى من صولة طاعتك فما أقرب المقصّر من رحمة الله وما أقرب المُدِلِّ من مقت الله. (فذنبٌ تَذِلُّ به لديه أحب إليه من طاعة تُدِلُّ بها عليه) (وإنك أن تبيتَ نائماً وتصبحَ نادماً خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجَبا فإن المعجَب لا يصعد له عمل). (وإنك أن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُدِلّ) (وأنين المذنبين أحب إلى الله من زَجَل المسبحين المُدِلّين) ولماذا التعيير وقد قال يوسف عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقال ﷺ: "إذا زنت أمة أحدكم فليُقم عليها الحد ولا يُثرِّب عليها" خ (٢٢٣٤) وم (١٧٠٣) ومما يدفع هذا عنك أن تعلم أن لله سبحانه أسراراً في أهل طاعته وأهل معصيته وقد قدّر هذا وذاك لحكمة بالغة وتعلم ثانياً أن الأمر كله لله من خلال هذه الأدلة وغيرها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا

٢- وقال يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

٣- وكانت يمين رسول الله ﷺ : "لا ومصلب القلوب". /خ (٦٦٢٨) عن ابن عمر.

٤- وقال ﷺ : "ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزوجل إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه". ثم قال: "اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. اللهم مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك" وكذا هذا الحديث المشهور الذي أصله عند مسلم وهو مُطَوّل عند أحمد (٨٢٩٢) وليُقرأ من هناك.

٦- منزلة التوبة:

هي أم المنازل (ص ١٨٥-ص٣٧٠).

١- **التوبة نتيجة المحاسبة** لأنه عرف بالمحاسبة ما له وما عليه فهو يريد أن يفعل ما عليه لينال ما له فإذا شرع في ذلك فقد تاب.

٢- التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقها العبد حتى الممات.

* قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.
خطاب لأهل الإيمان فعُلم أنهم بحاجة إليها على الدوام.

* وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فليس إلا تائب وإلا ظالم. لأنه إن لم يتب فهو ظالم.

* وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: "يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة" واللفظ الآخر "مئة مرة" وهذا رسول الله ﷺ ومع ذلك لا غنى له عن التوبة وقد بيّن ﷺ سبب ذلك بقوله: "إنه ليُغان على قلبي". رواه مسلم عن الأغر المزني.

* وكان أصحابه ﷺ يعدون له في المجلس الواحد يقول: "رب اغفرلي وتب علّيّ إنك أنت التواب الغفور مئة مرة" وفي لفظ "الرحيم" وانظر الصحيحة (٢٦٠٣) فقد جعله هناك من أذكار دبر الصلوات.

٣- بداية التوبة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أي التوحيد والإعانة فهما سبب الهداية التي لا تحصل التوبة إلا بها وهي (رجوع العبد إلى الله ومفارقة أصحاب الجحيم) ولذلك جاء بعد ذلك (إهدنا...) عبودية وإعانة ..... هداية ...... توبة.

٤- أول معاني التوبة: أن تنظر إلى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب وأن الله منع عصمته عنك لأنه خذلك ووكلك إلى نفسك ولو وفقك لَعصَمك وما كان للذنب إليك سبيل ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ ﴾ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ ﴾.

وتنظر أيضاً إلى ما كان من فرحك بالذنب مع تيقنك نظر الخالق إليك فإن المؤمن لا يفرح بالذنب أبداً ومتى فرح به فليتهم إيمانه وليبك على موت قلبه والفرح بالذنب من أكبر المصائب إلا إذا تدارك بثلاثة أشياء: (خوف من الموافاة به قبل التوبة، وندم على ما فات، وتشمير للاستدراك). وينظر أيضاً هل هو مُصرّ على الذنب وعازم على المعاودة وينظر إيضاً هل يجاهر بالذنب فإنه ﷺ : "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"/خ م.

٥- شروط التوبة:

١- **الندم:** وهو لا تتحقق التوبة إلا به لأن من لم يندم على القبيح دل ذلك على رضاه به وإصرار عليه وفي الضعيفة (٦١٥) (٦١٦) ص.ج (٦٨٠٢).: "الندم توبة".

٢- **الإقلاع:** تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

٣- الاعتذار: ليس بأن يقدّم عذره في الذنب – وهل له من عذر وهو المخطئ من جميع الوجوه؟! وإنما المراد الذل والمسكنة أمام ربه بأن غلبه عدوه ونفسه وجهلُه وهو ضعيف القوة فهو يتملّقه ربه فيقول: اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر ولا قوة لي فأنتصر ولكن مذنب مستغفر. والله يحب من عباده المتملقين.

ويضيف ابن عثيمين شرطين. ٤- الإخلاص [(١)]: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ لا لمصلحة. ٥- أن تكون في الوقت: قبل الأجل الخاص: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وحضور الموت إذا بلغت الحلقوم وغرغر لقوله ﷺ: "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر". وقبل الأجل العام: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قال ﷺ: "من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه".

٦- حقائق التوبة:

١- تعظيم الجناية: فعلى قدر ذلك يكون ندمه عليها، ويقع التعظيم هذا بـ(تعظيم الأمر – تعظيم الآمر – والتصديق بالجزاء).

٢- اتهام التوبة: بأن يسأل نفسه هذه الأسئلة:

لماذا تاب؟ أخوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته وإجلالاً له وخشيةً من سقوط المنزلة عنده والطرد عنه والحجاب عن رؤيته (وهذه التوبة النصوح الخاصة التي هي توبة لله عزوجل) أم أنه تاب لأغراض فاسدة:

---

(١) ثم وجدت القرطبي أبا العباس نص على هذا في المفهم كما في الفتح/ دعوات باب ٤ فقد قال: قد يستجمع شروط التوبة لكن لا يكون تائباً شرعاً لأنه إنما قصد ما قصد بتوبته فلا بد من الإخلاص وقال ابن المبارك في شروط التوبة: الندم والعزم على عدم العودة ورد المظلمة وأداء ما ضيع من الفرائض وأن يعمد إلى البدن الذي ربّاه بالسحت فيذيبه بالهم والحزن حتى ينشأ له لحم طيب وأن يذيق نفسه ألم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية.

- حفاظاص على حاله – أو حفاظاً على منزلته بين الناس – أو طلباً للراحة من الكد في الذنب كالذي يترك التدخين لما فيه من الأضرار فقط – أو لضعف داعي المعصية عنده – أو غير ذلك م الأغراض.

هل قُبلت توبته؟ لذلك يسعى دوماً في إحسانها. هل هو ضعيف العزيمة ويتوق إلى الذنب الفينة بعد الفينة أم أنه فُطم. هل هو مطمئن وواثقٌ أنه تاب كأنه أعطى منشوراً بالأمان. هل لا زال جامد العين مستمر الغفلة ولم يحدث أعمالاً صالحة بعد التوبة؟ هل ظهرت عليه علامات التوبة الصحيحة؟ ١- بأن يكون بعدها أحسن مما كان. ٢- وبأن يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله حتى يسمع المّلك يبشره يقول: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهناك يزول الخوف. ٣- وبأن يبقى قلبه منخلعاً متقطعاً ندماً وخوفاً: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ذكر ابن عطية أقوالاً ثلاثة: بالقتل – بالموت – بالتوبة. ولم يذكر ابن كثير إلا الثاني ونقله عن المفسّرين. ولم يذكر السعدي إلا الثالث فقال: بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم ويخافوه غاية الخوف فبذلك يعفو الله عنهم أ.هـ وكذا قال ابن القيم قال: ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة. ومن لم يتقطع قلبه في الدنيا – بالتوبة – فلا بد من تقطعه في الآخرة. ٤- وبأن لا يزال منكسراً، فالندم على مافات يوجب له التقطع. والإنكسار يحتاجه ليستمر تائباً. وهذه الكسرة لا تكون

لغير المذنب فيبقى منطرحاً بين يدى ربه مستسلماً له وما أحلى هذه الحال – وهي حال إجابة الدعاء.

٣- الغيرة لله عزوجل إذا خولفت أوامره ولا يعتذر عن المخالفة بالقدر بل يركب سفينة الأمر الرباني (سفينة الشرع). قلت: فإذا لم يَغَر عُلم أنه يعتذر ربه (سواء عن نفسه أو عن غيره). والإعتذار بالقدر إقامة لحجة قد أبطلها الله عزوجل فإنه لا عذر لأحد في معصية الله مع علمه بذلك وتمكنه من الفعل والترك ومن ادّعى أن ذنبه كان قدراً مقدوراً عليه ويريد بذلك تبرئة ساحته لم يستطيع دفعه فهو ظالم جاهل، وإنما بلاؤه من نفسه قال تعالى في الحديث القدسي: "فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وتأملوا مقولة الشيطان لأهل النار: ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾ ﴾ وهو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه فهو الحجر في طريق ماء حياته وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على قلبه ولا له أعداء أبلغ في نكايته منه ما تبلغ الأعداءُ من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه، يأخذ الشفيق بحُجزته عن النار وهو يأبى إلا أن يدخلها "إلا من أبى". ظهير للشيطان على ربه. يحتج على ربه بما لا يقبله حجةً إذا احتج بها الآخرون عليه، أمره الله بالسؤال ليعطيه فلم يسأل، بل أعطاه سبحانه أجل العطايا بلا سؤال فلم يقبل، دعاه سبحانه إلى الوقوف ببابه فما طَرَقه بل فتحه له فما ولَجه. وأرسل إليه الرسول يدعوه إلى دار الكرامة فما أطاعه ومع ذلك كله لم يُؤْيِسْه من رحمته بل قال: لو

أتيتني بقراب الأرض خطايا ... وقال من تقرب مني شبراً .... بل يفرح بتوبة عبده فرحة بر ولطف وإحسان لا فرحة محتاج فما شأن الرب وشأن العبد، وهم يقيمون أعذار أنفسهم ويحملون ذنوبهم على أقداره.

فإذن التائب حقاً هو الذي ينتظر سفينة الأمر الرباني فمن ركبها نجا ومن تخلف عنها غَرِق ولم ينفعه الاحتجاج بالقدر ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. إن الراكب في سفينة الأمر يدفع القدر كما قال الجيلاني: نازعتُ أقدار الحق بالحق للحق. قلت: كما هو حال الناس في أمور الدنيا يدفعون البرد بالدفء والحر بالهواء والجوع بالأكل وهكذا فلِم لا يكون هذا حالهم في أمور الدين. قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وقال ﷺ لما قيل له يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها، وتُقى نتقي بها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: من قدر الله. (ت حم جه: حسن). وكذا حديث: "إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض" (ك بز طس: حسن).

ودفع القدر بالقدر نوعان ١- نوع انعقدت أسبابه ولما يقع: تدفعه بأسباب أخرى تمنع وقوعه حديث: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء"/ ص.ج (٣٤٠٩). ٢- ونوع وقع فتزيله. كقدر الذنب تزيله بالتوبة.

٧- سرائر حقيقة التوبة:

١- تمييز من العزة: هل قصد تقوى الله عزوجل أو قصد عِزّ الطاعة وشرفها لما رأى الطائعين أعزاء يُجلّهم الناس فدخل في التوبة طلباً لعز الطاعة لا للتقوى.

٢- نسيان الجناية: منهم من قال: ينسى الجناية ويشتغل بصفاء الوقت مع الله عزوجل لأن ذكر الجناية يكدّر هذا الصفاء. ومنهم من قال: بل يذكرها لتوجب له الانكسار كما قيل عن داود: أنه نقش الخطيئة في يده. والصحيح: التفصيل فإن كان الصفاء يوجب له العُجب ونسيان المنة ذَكَر الجناية ليعلم أن ما فيه إنما هو بفضل الله عزوجل. وإن سَلِم من العُجب وكان متذكراً للمنة فالنسيان أفضل لأنه لو تذكر نزل من علو إلى سفل وهذا من حسد الشيطان له.

٣- التوبة من التوبة: وذلك إذا رأى أنه هو الذي تاب ونسى قوله تعالى: (؟؟؟؟) فليتب من هذه الغفلة.

٨- لطائف أسرار التوبة:

هذا أيضاً متعلق بالجناية ففي الحقائق (تعظيم الجناية). وفي أسرار الحقائق (نسيان الجناية). وفي لطائف أسرار الحقائق (لماذا قُضي عليه بها وما المراد بذلك).

* النظر إلى الجناية التي قضاها الله عليه ليعرف مراد الله فيها ولماذا خلّى بينه وبين إتيانها! فالبصير ينظر في الخطيئة – التي أتى بها – إلى أمور أو خمسة أنواع من النظر:

- أمر شرعي (نظر شرعي): (الأمر والنهي) لماذا خالف الأمر وارتكب النهي وهذا يوجب له الاقرار على نفسه بالذنب.

- أمر جزائي (نظر جزائي): الوعد والوعيد) وهذا يوجب له خوفاً يحمله على التوبة حتى لا تفوته الجنة التي هي الوعد وينجو من النار التي هي الوعيد.

- أمر قدري (نظر قدري): (القدر) وهذا يُحدث له معرفة بالأسماء والصفات توجب – أي هذه المعرفة – له عبودية لله تعالى بهذه الأسماء والصفات.

- وهذا في الحقيقة نظر رابع: وهو نظر إلى النفس التي هي محل الجناية ومصدرها فيعرف أنها جاهلة ظالمة تجاه الأمر والنهي فيسعى إلى إزالة جهلها بالعلم وإزالة ظلمها بالعمل. وليعلم علم اليقين أنه لا علاج لهذه النفس إلا بأن يلجأ إلى فاطرها وخالقها ويستحضر هذه الأدلة:

١- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ أي زكاها الله ودسّاها على أحد الأقوال. قلت: قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا ... ... ﴾ يشمل البيان والتوفيق.

٢- دعاء "اللهم أت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها"/ رواه مسلم. "أصلح لي شأني...."

٣- وفي خطبة الحاجة: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا".

٤- وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

٥- وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾.

٦- وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾.

٧- وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾. وفي هذه السورة: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ ﴾.

ومن هذه المعارف: أن يعرف العبد عزةالله في قضائه وأنه سبحانه هو المتفرد بالتحكم في مشيئة العباد دون غيره فإن العباد قد يتحكمون في أبدان الناس وظواهرهم وأما بواطنهم وارادتهم فهذا ليس إلا للخالق سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ فإذن العبد مُدبّر مقهور فيعرف معنى: "ناصتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك". وإذن الكمال والحمد والغنى والعزة كلها لله عزوجل وهو سبحانه هو الذي ستره – مع كمال رؤيته له – ولو شاء لفضحه وهذا من كال بِرّه سبحانه.

ملحق:

خلاصة: العبد في الذنب له نظر إلى أمور (أمر قدري – أمر جزائي – أمر شرعي وهذا فيه نظر إلى أمرين نظر إلى النفس، ونظر إلى الشيطان المسوّل له المعصية). وسبق الكلام عليهاإلا النظر إلى الشيطان وهذا النظر يفيده اتخاذه عدواً وأنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات لا ينزل عن المرغوبة لديه إلا إذا عجز عن الظفر به فيها وهي: **الأولى**: عقبة الكفر. **الثانية**: عقبة البدعة: وذلك باعتقاد خلاف الحق أو بالتعبد بما لم يأذن به الله. **الثالثة**: عقبة الكبائر: وليست القضية في فعلها وإنما في تزيينها وفتح باب الإرجاء الذي هو شر البدع فيقرن له البدعة مع الكبيرة، والبدعة أحب إليه من الكبيرة لأن الكبيرة يتوب منها بخلاف البدعة فإنه يعتقدها حقاً فلا يتوب منها، وهذا هو مُبتغاه وقد جاءت هذه العبارة عن السلف: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. وذلك أن مفاسد البدعة كثيرة: - لا يُتاب منها – تناقص الدين – قول على الله بلا علم – معاداة السنة – قلب الحقائق – والخلاصة أن فيها تبديل الدين. **الرابعة**: الصغائر. فلا يزال يهوّن عليه أمرها ويقول: (إلا اللمم) حتى تصير كبائر ويكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل أحسن حالاً منه فالاصرار على الذنب أقبح ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال ﷺ: "إياك ومحقرات الذنوب وضرب لذلك مثلاً..."/ رواه أحمد عن سهل بن سعد حديث صحيح ص.ح (٢٦٨٧). **الخامسة**: عقبة المباحات. فيشغله بها عن الاستكثار من الطاعات ثم يستدرجه منها إلى ترك السنن ثم إلى ترك الواجبات. ولو عرف الإنسان قدر السعر لما

فوّت على نفسه شيئاً من القربات ولكنه جاهل به. **السادسة:** عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة: فيشغله بالمفضول عن الفاضل ليشغله عما هو أفضل وأعظم كسباً لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب طمع في تخسيره كماله وفضله. فإن الأعمال فيها سيد ومسود كما قال ﷺ: "سيد الإستغفار ...." وكما قال: "... وذروة سنامه الجهاد...". **السابعة:** عقبة لا حيلة فيها ولا ينجو منها أحد حتى الانبياء وهي عقبة تسليط جنده من الجن والإنس، من الجن يوسوسون بل بلأذى المادي كما جاء الشيطان بشعلة نار إلى النبي ﷺ وهو يصلي ولولا دعوة سليمان لأمسك به ﷺ حتى يصبح الناس ينظرون إليه/ خ، ومن الإنس بأنواع الأذى باليد والقلب واللسان، والنجاة من هذه العقبة (أو يقال ومقابلة هذه العقبة) بعبودية المراغمة ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وهي عبودية إغاظة الكفار ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾) وسمّى صلى سجدتى السهو "المُرْغِمتين" ترغيماً لأنف الشيطان. وهذا باب من العبودية من ذاقه بكى على أيامه الأُول، فإذن لا بد من لبس لأمة الحرب لمحاربة العدو الإنسي والجني. ولا بأس بالاختيال والتكبر في مثل هذا الموطن لأنه موضع اغاظة للعدو والله تعالى يحب ذلك ولذا جاز الاختيال أمام الصف عند لقاء العدو والاختيال بصدقة السر ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ في ص.د (٢٣١٦) حديث حسن عن جابر بن عتيك مرفوعاً: "إن من الخيلاء ما يبغضه الله ومنها ما يحب الله فأما التي يحب الله فاختيال الرجل

نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة وأما التي يبغضه الله فالتي عند البغي والفخر".

- وكذا يشهد حِلم الله عزوجل ويعلم اسمه الحليم وأنه لم يعاجله بالعقوبة.

-وكذا يعرف العبد كرم الله عزوجل في قبول العذر منه، فيوجب له ذكره وشكره سبحانه.

- وكذا يشهد فضله سبحانه في مغفرته التي ليست عن استحقاق وإنما هي محض فضل فيعرف ربه باسمه الغفار.

- وكذا أن يَكْمُلَ للعبد مراتب الذل والخضوع فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ولو قدرت لقالت كما قال فرعون فهو أظهر وغيره يُضمر فذُل العبودية هو الذي يخلصها من هذه المضاهاة. وهو – أي ذلك العبودية – على أربع مراتب: ١- ذل الحاجة. ٢– ذل الطاعة. ٣– ذلك المحبة. ٤– ذل المعصية. مرتبة مشتركة بين المؤمن والكافر وهي التي قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقال: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ وقال: ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾. الثانية ذل الطاعة والعبودية (ذل اختيار) كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ وقوله ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾. الثالثة: ذل المحبة – كما تسمع في ذل المحبة لمحبوبه – فإن المحب ذليل وعلى قدر محبته يكون ذله. الرابعة: ذل المعصية والجناية. وحصول هذه المراتب للعبد من أنفع ما يكون ولا يتم له الذي إلا بأن يعصي ويتوب.

- وكذا فإن أسماءه سبحانه تقتضي آثارها كاقتضاء السبب التام للمسبَّب فكما أن اسم الرزاق يقتضي مرزوقاً فكذا اسم الغفور يقتضي مغفوراً له ولا يكون مغفوراً له إلا بأن يعصي ولذا قال ﷺ: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيُغفر لهم"/ رواه مسلم عن أبي هريرة.

- وكذا تحقيق فرح الله بعبده إذا تاب كما في الصحيحين من حديث أنس /خ (٦٣٠٩) وم (٢٧٤٧) وكذا فيهما من حديث انب مسعود أن الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده وسر ذلك ١- أنه سبحانه خلق هذا الإنسان لنفسه وخلق كل شئ لأجله حتى الملائكة تحفظه وتنزل بما ينفعه بدناً وروحاً وشرود العبد عن ربه هو سبي الشيطان له – الذي هو أبغض الخلق إلى الله عزوجل – فإذا تخلص العبد من الشيطان ورجع إلى ربه فهو كخلوص المأسور من السبي ورجوعه إلى أهله، مع أنه سبحانه غني عن العباد. ٢- وموالاة الشيطان تقطع عن العبد فضل الله ورحمته وهو سبحانه يحب العطاء لعبده ويفرح بذلك. ٣- وكذلك من الأسرار أن الله سبحانه خلق الإنسان ليعبده فإذا والى الشيطان ثم رجع فقد رجع إلى عبودية الله عزوجل التي هي أحب الأشياء إلى الله عزوجل. ويُذكر في ذلك قصة أحد العارفين ص٢١٢ ومثل فرحة سبحانه ضحكه من عبده حين يأتي بالعبودية فعندنا فرح وضحك الرب بتحقيق العبد لعبودية ربه وفي ذلك أحاديث:

- خ (٣٧٩٨) وم (٢٠٥٤) في قصة الرجل وامرأته اللذين قبلا ضيف رسول الله ﷺ لأنه صلى لم يكن في بيته إلا الماء، فأطفآ المصباح وأريانه أنهما يأكلان

حتى لا يمتنعُ من الأكل لقلة الطعام وفيه قوله ﷺ: "ضحك الله الليلة – أوعجب – من فعالكما" وأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

- ومن ذلك ما حسّن الألباني في "السنة" (٥٦٩) من قوله ﷺ: "عجب[١] ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حَيِّه وأهله فيقول الله تعالى: أيا ملائكتي انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه ومن بين حيه وأهله رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله عزوجل فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه رغبةً فيما عندي وشفقةً مما عندي فيقول الله لملائكته: "انظروا إلى عبدي، رجع رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي حتى أهريق دمه" وقد رواه أحمد من حديث عبدالله بن مسعود.

- وفي الصحيحة (٤١): "يعجب ربكم من راعي الغنم في رأس شظيّة بجبل، يؤذن بالصلاة ويصلي فيقول الله عزوجل: أنظروا إلى عبدي هذا يؤذن ويقيم الصلاة، يخاف مني، فقد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة".

وهناك أحاديث أخرى. هذا كله في النظر إلى الجناية ليعرف مراد الله فيها. والشئ الثاني وليعرف لماذا خَلّى بينه وبين إتيانها. والجواب: ليقيم الله على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه فإن من حكمته سبحانه أن حقت كلمته (على الذين

(١) أصل العجَبَ: إنكار ما يرد عليك وأُعجب بكذا عجبَ وسُرّ عجبتُ. وهذا كله بخلاف العُجْب الذي هو الكبر والاختيال.

كفروا أنهم لا يؤمنون) وذلك لأنهم غير قابلين لكن ما كان الله سبحانه يعذبهم حتى يكونوا فاعلين للمعصية كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ ﴾ أي علم وقوع، أي تفعلوا فتحق عليهم ﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ لأنهم غير قابلين وغير فاعلين ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي بظلم منه وهم مصلحون أو بظلم منهم متقدم وهم مصلحون الآن فقد تابوا من هذا الظلم المتقد، والقولان صحيحان.

٢- اللطيفة الثانية: أن تنظر إلى السيئة التي فُعلت فتصل من هذا النظر أنه كأن لم يبق لك حسنة وكيف لا وأنت بين مِنّة من الله وعيب النفس والعمل. ولذلك ترى في سيد الاستغفار أنه لم يذكر إلا الذنب ونسى الحسنة فقال: "أعوذ بك من شر ......".

٣- اللطيفة الثالثة: أن يرى التائب قُبح مانهى الله عنه وحسن ما أمر الله به وأنه كان مفسداً لما ركب ما نهى الله عنه، مفوّتاً لمصلحة حين قصّر في تنفيذ ما أمر به.

والتحسين والتقبيح هما في العقل قبل الشرع وقد فطر الله عباده على هذا فلما جاء الشرع ازداد الحَسَن حُسناً والقبيح قبحاً. والأدلة كثيرة جداً في كتاب الله عزوجل على أن النا مفطورون على التحسين والتقبيح قبل ورود الشرع – لا كما يقول الأشاعرة أن الحُسن في الأمر والقُبح في النهي وأن الأشياء قبل الأمر بها أو

النهي عنها على الحياد – قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ﴾﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ .... ﴾﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وقد ضرب الله عزوجل الأمثال الكثيرة لعتبر أولو الألباب وما هذا إلا لأنهم مفطورون على التمييز بين الحسن والقبيح. كقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ .... ﴾ وقال: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ .... أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ .... ﴾. ثم الفقهاء يذكرون علل الأحكام وما ذاك إلا لهذا.

فإذن بهذه اللطيفة يتضح الحسن والقبح فتعرف الفرق بين المحبة والمشيئة وأنهما غير متلازمين فقد يحب مالا يشاء وقد يشاء ما لا يحب وقد دل على هذا الشرع والعقل والفطرة والاعتبار ولم يفهم هذا الجبرية فقالوا: شاءه فهو يحبه ولابد من الرضا به فرضوا بالكفر والمعاصي مع أنه تعالى: يقول: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ وقال: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ فأوّلوا هذه الآيات وقالوا: أي لا يشرعه ديناً أي لا ثواب عليه وهو محبوب له فانظر كيف انحرافهم، والرد عليهم بالكتاب والسينة والعقل والاعتبار، قال ﷺ : "إن الله كره لكم ثلاثاً...." وقال: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته". والناس يقولون في كلامهم: هذا الفعل يحبه الله وهذا الفعل يكرهه الله وأما الرضا بالقضاء ففيه التفصيل أولاً: فيما يتعلق بالله

الذي هو القضاء الذي هو فعل الله نرضى به كله. وثانياً: فيما يتعلق بالمقضي فمنه ما نرضى به ومنه ما نسخطه كما يرضى به ويسخط ربنا جل وعلا.[١]

٩- ذنبو خفية لمن علا كعبه في هذا الدين منها: أن ترى طاعاتك كثيرة (عظيمة) والمعصية قليلة (هينة) فإن العارف من صغرت حسناته في عينه وعظمت ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله والعكس، والسيئات بالعكس. وكلما ازدادت معرفتك بالله عزوجل وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت حسناتك عندك.

١٠- من التوبة (توبة من تضييع الوقت" في اللغو واللهو، والإنسان إما متقدم أو متأخر ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ وإنما الذي يعرض فترة كما قال ﷺ:"...... ولكل شرة فترة"/ ص.ت (٥٦) (٥٧) من حديث عبدالله بن عمرو وأبي هريرة.

وفوق هذا مقام آخر من التوبة وهو توبة الذين يستقلون في حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم فلا يرونها قط إلا بعين النقص فالتوبة لا

---

(١) وقال عبدالله: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار" رواه الترمذي من قول عبدالله في أبواب القيام باب ١٥ وهو في البخاري/ خ(٦٣٠٨).

تفارقهم أبداً. قلت: ولعل هذا هو الذي قال صلى: "إني لأتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة". والله أعلم.

١١- **أحكام التوبة:** تشتد الحاجة إليها ولا يليق بالعبد جهلها.

١- منها: أن المبادرة إلى التوبة فرض على الفور ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فإن أخّر فهذا ذنب آخر تجب منه التوبة على الفور، وقلّ أن يخطر هذا ببال التائب فإنه يتوب وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة وذلك أن له ذنوباً لا يعملها فأخّر وهو لا يشعر والنجاة من هذا: أن تتوب توبة عامة مما تعلم ومما لا تعلم من الذنوب (ومما لا يعلم العبد أكثر مما يعلم ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل. ودليل التوبة العامة (حتى تشمل ما لا يعلمه العبد) مارواه أحمد وغيره عن أبي علي – رجل من بن كاهل – قال: خطبنا ابو موسى فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقام إليه عبدالله بن حَزْن وقيس بن المضارب فقالا والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون. فقال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل" فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله! قال: "قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه"/ ص.ت (٣٦) وقال: حسن لغيره.

وفي خ و م عن أبي موسى أنه ﷺ كان يدعو فيقول: "اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جِدِّي وهزلي، وخطأي وعمدي، كل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت"/خ (٦٣٩٨) وم (٢٧١٩) وفي م عن أبي هريرة مرفوعاً: "اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقّه وجِلَّه خطأه وعمده، سِرّه وعلانيته أوَّلَه وآخره"/م (٤٨٣).

ومنها: هل يُشترط الصحة التوبة من ذنب عدم المعاودة أم أن الشرط هو العزم على عدم المعاودة وقد يعود؟ في ذلك خلاف: فريق قال: إذا عاد بطلت توبته وعاد إليه إثم الذنب الأول والأكثرون قالوا: شروط صحة التوبة هي (الندم – والاقلاع – والعم على عدم المعاودة لا غير وقد يعود) فإذا تحققت هذه الشروط صحت التوبة وزال أثر الذنب فإن عاد استأنف ولا يعود إليه إثم الذنب الأول[١].

وأصل هذه المسألة: أن العبد إذا تاب من ذنب ثم عاوده هل يعود إليه الاثم الأول فيعاقب على الأول والآخر إن مات مصرّاً أو أن الإثم الأول بطل بالتوبة وإنما يعاقب على الآخر إن مات مصراً أيضاً؟ خلاف:

---

(١) قال النووي: وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصراً على ذنب آخر وإن تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كُتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تبطل توبته، هذا مذهب أهل السنة في المسألتين. وخالفت المعتزلة فيها. قال أصحابنا: ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صّحت.

الطائفة الأول: قالوا بالأول وأن المعاودة أبطلت التوبة فيعود إليه الإثم. وأدلتهم ما يلي:

- قالوا: التوبة كإسلام الكافر والمعاودة كردته فكما أن الردة تبطل الإسلام المتغلل بين كفرين (ويصير غير نافع) وتوجب الأخذ بالأول والآخر فكذا المعاودة تبطل التوبة المتخللة بين ذنبين (وتصير غير نافعة) كما في خ (٦٩٢١) وم (١٢٠) مرفوعاً: "من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر" وذلك لأن الإسلام يهدم ما كان قبله.

- وقالوا: ولابد من استمرار التوبة والموافاة عليها كاستمرار الإسلام والموافاة عليه لأن المعلّق على شُرط يُعدم عند عدمه.

- وقالوا: التوبة وجوبها وجوب مضيّق (ليس موسعاً) ومدتها مدة العمر فيجب أن تكون واجبة في مدة العمر كله فإذا عُدمت لحظة صار كمن قطع الامساك في نهار رمضان فيبطل فتبطل. قالوا ويدل على هذا حديث: "إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة...." خ (٦٥٩٤) وم (٢٦٤٣) فإن قيل: هذا يلزم من احباط السيئات للحسنات وهو مذهب المعتزلة، والكتاب والسنة دلاّ على العكس كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ والحديث: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها" قيل في الجواب: وأيضاً دل الكتاب والسنة على الموازنة واحباط الحسنات بالسيئات ولا نمتنع بالقول بذلك لأجل المعتزلة فإن الحق يُقبل من كل ممن قال.

فمن أدلة الموازنة في الأعراف والأنبياء والمؤمنون والقارعة. ومن أدلة الاحباط: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ وليس المراد حصر المبحط في الكفر بل ذُكر لأنه أعظم المبحطات ومنها: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ ومنها: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ومنها: "من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله" خ(٥٥٣) ومنها: قول عائشة: "أخبري زيداً أنه قد أبطل جهاده...." لما باع ببيع العينة وكذلك التألّي على الله كما في الصحيحة (٢٠١٤) "قال رجل: لا يغفر الله لفلان! فأحى الله تعالى إلى نبيّ من الأنبياء: إنها خطيئة فليستقبل العمل" قلت: وفي الحديث الآخر: "قد غفرت له وأحبطت عملك". وكذا حديث ثوبان عند ابن ماجه: يأتي أناس بحسنات أمثال الجبال. وهذه المسألة المصارعة بين الحسنات والسيئات قررها ابن القيم في الزاد وابن حجر وابن أبي العز/ وهي مارسالتي في الصلاة.وقال أحمد: يستدين ويتزوّج إذا خاف على نفسه، لا يقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا ثبت هذا – أي أنه من السيئات ما يُبِبط بالإجماع كالكفر وبالنص – جاز أن تُحِبط سيئة المعاودة حسنة التوبة فترتفع فيلتقي الأثم الأول بالثاني ويكون العقاب عليهما جميعاً.

الطائفة الثانية:

قالوا: لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه إذا نَقَصة توبته لأن هذا الإثم قد ارتفع بالتوبة كما قال ﷺ : "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" حديث حسن/ الضعيفة (٦١٥)، (٦١٦). فكأنه لم يكن وإنما العائد يستأنف إثماً جديداً لا علاقة له بالأول.

وأدلتهم ما يلي مرتبة على أدلة الأولين:

١- قالوا: ليست المعاودة كالردة التي هي كفر لأن الكفر يُحبط جميع الأعمال: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ بخلاف المعاودة فإنها مجرد عود إلى ذنب ليس بكفر فيكف تقاس المعاودة بالردة!!!

٢- وقالوا: لا يُشترط في صحة التوبة الإستمرار لأنه إذا عاد استأنف إثمه ولا يعود إليه الإثم الأول. والتوبة من أكبر الحسنات فلو قلنا بإبطالها واحباطها بالمعاودة لزم أن المعاودة تبطل ما دون ذلك من الحسنات وفي هذا شبه بمذهب الخوارج والمعتزلة الذين عندهم إذا فعل كبيرة (والمعاودة عود إلى فعل الكبيرة) أحبطت جميع عمله لأنه كفر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴾. ثم يُقال: استمرار التوبة شرط في كمالها ونفعها لا شرط في صحة ما مضى منها وليس ذلك كاستمرار الامساك في الصوم، ولا كالصلاة الواحدة لأن هذا عبادة واحدة بخلاف التوبة فهي متعددة وتجزأ وتصويب التمثيل

أن يقالك التوبة كمن يصوم من رمضان أياماً ويفطر أياماً أخرى بلا عذر، فهل ما أفطره بلا عذر يُبطل ما صامه.

قالوا: وما ذكرناه جارٍ على مذهب أهل السنة والجماعة في أن الشخص الواحد يجتمع فيه كفر وإيمان وطاعة ومعصية وولاية وعداوة ويكون على أحد الزوجين المذكورين أقرب إلى الآخر ومعاود الذنب مبغوض من وجه محبوب من آخر فهو مبغوض لمعاودته الذنب محبوب لتوبته السابقة فالحب مرتب على حسنة التوبة والبغض مرتب على سيئة المعاودة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قال أبو عبدالرحمن: كيف ذهل أهل الطائفة الثانية عن حديث الصحيحين خ (٧٥٠٧) وم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال فيما يحكيه عن ربه إن عبداً أصاب ذنباً قال اللهم اغفر لي ذنبي فقال الله تعالى: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب ؟ قد غفر لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً ... الحديث وفيه اعمل ما شئت فقد غفرت لك". قلت: وتتم الدلالة به إذا كان العوْد إلى نفس الذنب لا إلى ذنب آخر كما في بعض الطرق، ولا يقال: (دل الحديث على قبول التوبة إن تكررت ولو ألف مرة والنزاع في هل يعود الإثم الأول أَوْ لاَ؟!) لأنا نقول: علاوة على هذا دل الحديث على مغفرة الذنب الأول والله تعالى الكريم لا يعود في فضله جل وعلا.

وقد نقل الحافظ عن الحُليمي في معنى اسمه تعالى التواب أنه العائد على عبده بفضل رحمته كلما رجع لطاعته وندم على معصيته فلا يحبط عنه ما قدّمه من خير ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان/ قاله الحافظ في رد هذا القول. دعوات باب ٤ قال الحافظ: ويرد هذا القول ما أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد رفعه: "قال إبليس: يارب لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: وعزتي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني" وحديث أبي بكر رفعه: "ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة" أخرجه أبو داود والترمزي قال: والسبعين فيه للمبالغة وإلا فقد ذكر في حديث ابي هريرة " أعمل ما شئت فقد غفرت لك" قلت: فالحمد لله قد استدل به الحافظ في رد هذا القول. قلت: حديث أبي سعيد حسّنه الألباني لغيره في ص.ت (١٦١٧). وحديث أبي بكر في ض.د (٢٦٧) لجهالة مولى أبي بكر راويه عنه رضي الله عنه. قلت: هل يُشكل على هذا حديث أبي هريرة مرفوعاً: "إن العبد إذا أخطأ نكتت في قلبه نكتة فإن هو نزع واستغفر صقُلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ / ص.ت (١٦٠٢) قلت: لا يشكل أما الذنب الأول فقد غفر لكن إن عاد استأنف لكن ليحذر فإن النكتبة في قلبه تعود وتزيد فليحذر والله تعالى أعلم.

تنبية أخير: من أحسن ثم كفر أو كان محسناً في شئ حال كفره، ثم تاب بالإيمان عادت إليه حسناته كما قال ﷺ لحكيم بن حزام "أسلمت على ما أسلفت من خير"

خ (٢٢٢٠) وم (١٢٣) لما سأله عن صدقات وصلات كان يفعلها في الجاهلية فالتوبة من الكفر وصلت الطاعات القديمة بالطاعات الحديثة. وأما بدون الإيمان فكما قال ﷺ لعائشة لما سألت عن ابن جدعان وما كان يحسن فيه في الجاهلية فقال لها: "إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" والمسألة في أحاديث الصحيحة (٢٤٧-٢٤٩).

٣- ومنها: العاجز عن المعصية التارك لها قهراً – بأن عجز العضو الذين يفعل به، كالمغتاب قُطع لسانه، وكالزاني جُبّ، وكالناظر إلى الأجنبيات عَمِيَ ونحو ذلك – هذا إذا تاب هل تصح توبته؟ وذلك أنه ما ترك مختاراً بل مقهوراً؟ والصحيح أنه إذا ندم وصحّت نيته وعزمه صحّت لأنه أتى بما يقدر عليه من شروط التوبة، ولا سيّما إذا تبع ذلك بكاء صادق وحزن وخوف. وذلك أن العاجز عن الطاعة يثاب عليها بالنية الصالحة كما في الأحاديث: "إذا مرض العبد...." / خ (٢٩٩٦) وحديث: "إن بالمدينة ....." خ(٤٤٢٣).

فإذن هو يثاب بالنية مع أنه لا يفعل شيئاً فكذلك التارك للمعصية عجزاً يُثاب بالنية من باب أولى لأن المعصية لا تتطلب إلا تركاً بنية وقد حصل بخلاف الطاعة فهي تتطلب فعلاً بنية فإذا كان يثاب على لا فعل مع أن الفعل مطلوب فَلأَن يثاب على ما لا يُطلب فيه فعل أصلاً من باب أولى.

٤- ومنها: إذا كان الذنب في حق آدمي فلا بد من أدائه أو التحلّل من (أي يسامحه فيه) والحقوق نوعان: مادي: كحق في مال أو بدن، ومعنوي: كحق في عِرض بقذف أو غيبة ودليل ذلك قوله ﷺ: "من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عِرض فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات"/خ (٢٤٤٩) عن أبي هريرة.

فأما الحق في المال أو في البدن فالأمر فيه سهلٌ، إما يؤديه أو يُسامَحُ. وأما الحق في العِرض ففي ذلك ثلاثة أقوال: الأول: لابد من إعلامه بذلك الحق بعينه ويتحلّل منه. الثاني: يُعْلِمه لكن بلا تعيين ويتحلل منه. الثالث: لا يُعلم ولا يُعيِّن بل يتوب فيما بينه وبين الله، ويذكر صاحب الحق بضد ما ذكره في موضعه فيمدحه ويثني عليه ويذكر محاسنه ويستغفر له. القول الأول والثاني اشتركا في الإعلام وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي واستدلوا: ١- بالحديث، ٢- وبأن ذلك حق لا يسقط إلا بالابراء، ٣- وبأن في هذا الذنب حقين حق لله وحق للآدمي ولا بد من أدائهما ٤- وبأن هذا مثل توبة القاتل، لابد أن يمكّن نفسه من ولىّ المقتول. وأما القول الثالث: ففي الرواية الثانية عن أحمد واختارها ابن تيمية وأدلته: ١- أن الإعلام بهذا مفسدة محضة، والإعلام لا يزيد الإمر إلا سوءاً وقد قيل" فإن الذي يؤذيك منه سماعُه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقّل. وما كان كذلك فلا يبيحه الشارع فضلاً عن إيجابه أو استحبابه ٢- وأيضاً أنه ربما سبّب العداوة والبغضاء وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب. ٣- وأيضاً: أن الفرق واضح بين

الحق المادي في المال والبدن والحق المعنوي في العِرض فإنه قد ينتفع بالأول دون الثاني وأنه لا يتأذى بالأول بل ربما يُسَرّ به. قلت: لكن أين نحن من قوله ﷺ في الحديث: "أو عِرض"؟ فيبدو لي أن كل شئ يُقَدّر بقدره ولكل حادثة حديث. والله أعلم. ٥- ومنها: أن العبد إذا تاب من الذنب فما درجته بعد الذنب؟ هل هي الأولى أو أكثر أو أقل؟ الجواب: يختلفون في ذلك بحسب حال التائب بعد توبته وجِدّه وعزمه وحذره وتشميره. ويتفرع من هذا مسألة: أيهما أفضل من لم يعصِ أو العاصي التائب؟

طائفة رجحت من لم يعصِ على من عصى وتاب. وطائفة رجحت التائب (وإن كان الذي لم يعصِ أكثر حسنات) أدلة الطائفة الأولى (مقترنة بالرد الذي هو أدلة الطائفة الثانية).

١- أن الأكمل هو الأطوع، والتائب أقل طاعة لأنه فاته زمن كان الطائع معمّراً له بالطاعة. قلت: قد تبلغ التوبة بالتائب مبلغاً تجعله يسبق فيعوّض ما فاته.

٢- أن غاية التوبة محو السيئات فيصير لا له ولا عليه، والطائع ساعٍ رابح. قلت: قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [1] مع الحديث الذي رواه مسلم (١٩٠): "إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار. يوتى به فيقال: أعرضوا عليه

(١) المسألة مبحوثة باستفاضة في البدائع فارجع إليها وكذلك ذكرها ابن رجب في "روائع التفسير الجامعه طارق عوض الله. لكن ابن رجب هو من تلاميذ ابن القيم فخُذها عالية.

صغار ذنوبه ويُخبّأ عنه كبارها فيُقال عملت يوم كذا كذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من كبارها: فيقال: أعطوه مكان كل سيئته عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها هاهنا، قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه" ومن طعن في دلالة هذا الحديث بأنه في رجل قد عُذّب على ذنوبه بالنار فصار ما أُعطى صدقة من الله عزوجل عليه، وليس في هذا تبديل إذ لو كان لما عُذّب وأنتم تقولون: التائب تبدل سيئاته حسنات؟ والجواب أن هذا من قياس الأولى، فإذا كان الذي طُهّر بالنار أعطى له مكان كل سيئة حسنة فلأن يُعطى التائب ذلك من باب أولى. وهذا قول سعيد بن المسيب وغيره في الآية أن التبديل حقيقي. وأما قول ابن عباس وعمرو بن ميمون ومكحول وعلي بن الحسين فالمراد أن أعماله السيئة تُبدل عوضاً عنها أعمالاً صالحة كما يبدل المريض بالمرض صحةً. فإذن هذا القول يفيد أنه يكتسب حسنات بالتوبة لا مجرد أن التوبة ماحية للسيئات.

٣- أن العاصي جاءت عليه فترة – وهي فترة المعصية – مُقت من الله عزوجل فلما تاب عاد إليه الرضا، والطائع مستمر في الرضا. قلت: فرح الله عزوجل بالتائب هو تمام رضاه عنه فلا يضره ما تقدم من مقت.

٤- أن الذنب مرض والتوبة دواء، وصحة بلا مرض ولا دواء خير من صحة تخللها مرض. قلت: قالوا: وربما صحت الأجسام بالعلل. فيصبح بعد الشفاء أقوى من الأول.

٥- أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً إما مهلكاً أو يُتدارك بالتوبة.

٦- أن العاصي إنما عصى لضعف علمه وضعف عزيمته كما نقل قتادة الاجماع عن الصحابة: أن كل ما عُصى الله به فهو جهالة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾. وقال في آدم: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ على أحد الأقوال.

وأجاب الآخرون بما سبق وبأخرى:

١- أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله عزوجل ولذا يبتلى بالذنب أكرم الخلق عليه كآدم وداود وغيرهم كما قال ﷺ: "ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا"/ الصحيحة (٢٩٨٤).

٢- أن للتوبة منزلة ليست لغيرها من العبادات ولهذا يفرح الله بها ولم يجئ هذا الفرح لغيرها من الطاعات. وسبق أن هذا من أسرار تقدير الذنب على العباد.

٣- أن مراتب العبودية لا تكمل إلا بها وهي (مرتبة الفقر – العبودية – المحبة – الذل والانكسار) ولذا كان العبد أقرب ما يكون من الرب وهو ساجد، وحديث مسلم (٢٥٦٩): "يا ابن آدم استطعمتك....." قال في المريض: "لوجتني عنده" بخلاف الطعام والشراب قال: "لوجدت ذلك عندي" فهو سبحانه عند المنكسرة

قلوبهم قريب منهم ولعل هذا هو السر في استجابة دعوة المسافر والصائم والمظلوم لأن قلوبهم منكسرة.

٤- أن الذنب قد يكون أنفع للعبد فيكسره عن صولة الطاعة التي لو استمرت به لأهلكته ولو لم يكن للذنب إلا هذه الفائدة لكانت كافية وليُقرأ هناك من ص ٢٦٨-٢٧٠ وكذا يحصل له حسنات أكثر وأكبر وأحب إلى الله عزوجل من عصمته عن ذلك الذنب حتى يقول الشيطان: ياليتني ما أوقعته في هذا الذنب، لأنه نال به من فضل الله عزوجل ما لم يخطر على بال هذا اللعين.

٦- ومنها:- وهو أنفع ما وقفت عليه في هذا الباب – أن التوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن التخلي فهي تتضمن التحلي، فليست حقيقة التوبة فقط في التخلي عن الذنوب بل بالتحلي بعمل الصالحات ومن أدلّ ما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾[1] فالتوبة في أول الآية هي التخلي لأنها قُرنت بالتحلي وهو العمل الصالح وجُعل مجموع هذين الأمرين (أي التخلي والتحلي) هو التوبة الحقيقية وعُبّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ وأنظر كيف أُكّد فإن (مَتَابًا) مصدر ميمي والتقدير يتوب إلى الله توبة فلا تكتمل التوبة ولا يوقف على حقيقتها إلا بإضافة العمل الصالح إلى التخلي عن الذنوب. فإذن لفظ التوبة كلفظ التقوى إذا

---

(١) وقد ذكروا في معنى الآية أربعة أقوال ولم يصرّح واحد منها بهذا المعنى الذي ذكرته فلا تستنكف أن تأخذه ممن هو دون.

أفردت دلّت على فعل الأمر وترك النهي وإذا قُرنت بالأمر كان معناها ترك النهي وأيضاً فإنه سبحانه قال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فعلّق الفلاح على التوبة كما علّقه على التقوى بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

وأيضاً: قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فإذا تاب كان من أحد الفريقين الآخرين كما في سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ.... .... ﴾ وإلا فهو ظالم، والفريقان الآخران يأتون بالتقوى على درجاتهم. وأيضاً: قال تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ .... ﴾ مبتدأ متعدد الخبر وفي أخر الخبر ﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهذا الأخير جزء التوبة، والتوبة الكاملة هي مجموع ما ذُكر. لكن لماذا سُمّى تائباً؟ الجواب: لرجوعه من النهي إلى الأمر ومن المعصية إلى الطاعة ومن المكروه لله إلى المحبوب له سبحانه وتعالى وبهذا تكون التوبة هي حقيقة الدين وهي اسم جامع للإسلام والإيمان والإحسان، والتوحيد وحقوقه جزء منها(١)، ومما يدل على ذلك أن التائب حبيب الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وأن الله سبحانه يفرح بالتائب

---

(١) قال أبو عبدالرحمن: وذلك أنه سبحانه فطرهم على التوحيد فمن خرج عنه فإنه يعود إليه بالتوبة فصار التوحيد جزء من التوبة لأنه لولاها ما حصل. قال الله تعالى عن المشركين: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ أي الدين الذي هو الأصل.

هذا الفرح العظيم، وأنها صفة أوليائه. فإذن أكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً.

٧- ومنها: الفرق بين الاستغفار والتوبة. فالاستغفار استفعال بمعنى طلب الغَفْر وهو السَّتْر بأن لا يفضحه الله على رءوس الأشهاد ببيان ذنوبه بل كما جاء في حديث النجوى أنه سبحانه يضع كنفه على عبده المؤمن فيقرره بذنوبه ثم يقول سبحانه: "سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم" متفق عليه لكن هذا الحديث يعطينا زيادة في معنى المغفرة وأنها ليست فقط الستر بل (محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره) فإذن هي: ستر ووقاية كما في المغفر فإن يستر الرأس ويقيها بخلاف العمامة فإنها تستر ولا تقي. هذا هو الاستغفار في مقابل ذنب.

فإذا لم يكن ذنب – كحال نبينا ﷺ - كان الاستغفار بمعنى الستر لا غير وهو ستر عيوب البشرية من الجهل والظلم وذلك بأن يُؤتي الإنسان العلم والهدى فيتحكم في هذه الطبائع البشرية وبهذا يظهر لنا معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.... .... ﴾.

والاستغفار إذا ذكر مفرداً تضمّن التوبة وكذا التوبة إذا أفردت تضمنت الاستغفار لكن عند الاقتران فبينهما فروق من خلال الجدول الآتي.

الاستغفار	التوبة
طلب وقاية شر ما مضى	وطلب وقاية شر ما يستقبل بالعزم على أن لا

	يفعل.
مفارقة الذنب (استغفروا)	الرجوع إلى الطاعة (ثم توبوا)
من باب إزالة الضرر	من باب طلب جلب المنفعة

قلت: وتأمل هذا الموضع الي جُمع فيه بين الاستغفار والتوبة مع عمل الصالحات ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

٨- ومنها: معنى التوبة النصوح. نصح في اللغة بمعنى خلص وصلح تقول لبن ناصح أي خالص صالح فالناصح سُمّى كذلك لأنه يخلص القول يبتغى به الإصلاح قال نوح وهود ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ وقال شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾.

ونصوح فعول بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وهما متلازمان، فتوبة نصوح أي ناصحة بمعنى خالصة تُصلح أو بمعنى مخلوص فيها يحصل بها الاصلاح وعبارات المفسرين تدور حول شروطها السابقة ذكرها، فالتوبة النصوح هي التي اجتمعت فيها شروطها.

قال ابن القيم وهي تتضمن ثلاثة أشياء: (هي كالأركان للتوبة).

١ - الأول يتعلق بما يتوب منه: فيتوب من جميع الذنوب (شمول التوبة).

٢- والثاني يتعلق بمن يتوب إليه: اخلاصها لله عزوجل لا لغرض سيئ.

٣- والثالث يتعلق بالتائب نفسه: اجماع العزم عليها والصدق فيها فلا يتردد.

٩- ومنها: توبة العبد محفوفة بتوبتين من ربه – فالعبد تواب والله توّاب، والجزاء من جنس العمل، يرجع العبد من المعصية إلى الطاعة فيرجع الله عليه بالمثوبة بعد استحقاق العقوبة – توبتان من ربه: قبل أن يتوب العبد وهي توبة إذن الله له وتوفيقه وإلهامه (سابقة). وتوبة بعد أن يتوب العبد وهي توبة القبول والإثابة (لاحقة).

قال تعالى في قصة الثلاثة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾فهذا في التوبة السابقة (وهي توبة الإذن والإعداد) وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فهذه توبة (القبول والأمداد وذلك أنه يمده هداية جزاء اهتدائه.

وهذا في الحقيقة من سر اسمه تعالى الأول والآخر فهو المُعِدّ وهو المُمِد. قتلت: أراد – رحمه الله – أنه سبحانه كان الأول قبل توبة العبد ولولا إذنه له بالتوبة ما تاب، وهو الآخر أي بعد توبته قبل منه وجازاه على توبته بأن زاده هدى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾.

١٠- ومنها: الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر بنص الكتاب والسنة، وبالإجماع والاعتبار.

قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ قلت: جاء مسلم يوم القيامة لم يفعل كبيرة لكن كان يُلم بالصغائر فهذه الصغائر لا تؤثر على حسناته ولا يُقتص منها بها وفائدة ذلك أن تبقى درجته في الجنة لا تؤثر فيها هذه الصغائر ولذا قال تعالى: ﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ فلم يتأثر المدخل الكريم الصغائر. وأبدى ابن القيم – كما في البدائع – معنى آخر هو أنه كما أن اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر فكذا اجتناب الشرك يكفّر الكبائر قال: وهو مضمون حديث: "لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم جئتني لا تشرك بي شئ أتيتك بقرابها مغفرة". لكن قال: التوحيد – الذي هو توحيد – قلت: كصاحب البطاقة فتأمل لا تجد منافاة.

- وفي م (٢٣٣) عن أبي هريرة مرفوعاً: " الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر".

- وجاء في أحاديث كثيرة مثل: "الكبائر كذا"، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر" "أي الذنب أعظم" "من أكبر الكبائر" ....إلخ ص ٢٩٣-٢٩٤.

- وقول ابن مسعود: "إياكم ومحقّرات الذنوب" وقد مَرّ وأما اللمم المذكورة في قوله تعالى: (؟؟؟) فقد قال جماعة إنه من الكبائر ومرادهم أنه يلم بالكبيرة مرة أو مرتين أو ثلاثة ويتوب منها فيُسامح في ذلك. وقولهم هذا لا يقدح في الاجماع على انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر وذلك لدلالة النصوص الأخرى على هذا

التقسيم. وقولهم مبني على أن الاستثناء في الآية متصل قالوا لأن المنقطع لابد من سبقه بنفي وليس موجوداً هنا. قلنا: النفي موجود معنىً لأن يجتنبون بمعنى لا يفعلون. فإذن اللمم يشمل هذا وهذا يشمل الصغائر، ويشمل من ألم بكبيرة وتاب منها.

والمراد بالاستثناء أن الذين أحسنوا يجتنبون الكبائر لكن إذا حصل منهم اللمم سومحوا فيه فالتقدير يجتنبون الكبائر التي هي سبب العقوبة إلا اللمم فلا يعاقبون عليه إذا جاءوا خالصين من الكبائر. وليس المراد مدحهم على عدم اجتنابهم اللمم. والقول الآخر في اللمم أن الصغائر هو الأكثر كما قال ابن عباس ما رأيت شيئاً أشبه باللمم من حديث أبي هريرة "إن العين تزني... الحديث".

- وقد صنّف العلماء في الكبائر واختلفوا لفظياً في ضابطها وهو يعود إلى شئ واحد هو: ما توعد عليه بعقوبة في الدنيا أو الآخرة أنظر الفتح/ أدب باب ٦.

- وأما عن المسامحة المذكورة فهي ثابتة لأولياء الله عزوجل الذين سَلِمت قلوبهم عند حصول الهفوات والزلات وتأمل كيف سامح الله عزوجل موسى في غير ما موضع: لما ألقى الألواح ولما أخذ برأس أخيه يجره إليه ولما قتل نفساً ولما عاتب ربه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ومع كل هذا يحبه الله عزوجل ويكرمه وقارن هذا بما وقع من آدم ويونس فلم يسامحا بل سُجن هذا في بطن الحوت وأهبط ذاك من الجنة. لكن اعتُرض على هذا بأن الوليّ كلما علا كعبه زاد عتابه

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ .... ﴾ وقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ .... ﴾ وقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ وكذا ما حصل ليونس وآدم عليهما السلام. والجواب – كما قال ابن القيم – أن هذا كله حق فيحصل لهم هذا وهذا إن كان هناك عُذر لهم سومحوا وإن لم يكن عوتبوا والله سبحانه وتعالى أعلم بمواقع المسامحة والمعاتبة – أي يسامَحُون ويُشدّد عليهم – قلت: عندي فرق بين ما استدلوا به من فعل موسى على المسامحة وأنه يعارضها ما ذكروه في الوجه الآخر فإن ما فعله موسى عليه السلام إنما فعله لله عزوجل ومع ذلك كان يأتي بالاستغفار ولذا قال بعد إلقاء الألواح وجر رأس أخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ وأما فعل آدم فمعصيته صرفة ويونس ما صبر والمقام يقتضي الصبر ونساء النبي ﷺ لم تقع منهم فاحشة وإنما حُذّروا وأُعلموا أن ما يبدر منهن ليس كالذي يبدر من بقية النساء لأنه لا عذر لهن كيف والنبوة في بيوتهن. والله أعلم.

- ثم أخيراً هذا التنبيه المهم وهو ما يقوم بالقلب عند فعل الحسنة أو السيئة وهذا قد نبّه عليه أيضاً الحافظ ابن حجر وابن أبي العز وقد خطبْنا به في إحدى خطب الجمعة وخلاصته أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه وتأمل ما قام بقلب ساقية

الكلب، وقائتل المئة نفس. وعلى العكس الخوارج وهذا المتألي على الله ونحو ذلك.

والخلاصة أن أنوار ما يقوم بالقلب يحرق الذنوب الكبيرة وهذا يعتمد على قدر هذا النور كما في حديث صاحب البطاقة، وبهذا تعلم أن حديث: "إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" فليس الحكم منوطاً بقول اللسان بل وبقول القلب أيضاً فلابد من هذا وهذا. وكذا ما جاء في الأجور المرتبة على الأذكار لابد في ذلك من قول القلب وإذا لم يوجد كان له أجر قول اللسان فقط، والخلاصة مرة أخرى: أن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بما في القلوب والله سبحانه وتعالى هو علام الغيوب.

١١- ومنها: ولا يستحق العبد اسم "التائب" إلا إذا تخلص من جميع أجناس المحرمات وهي اثنا عشر، والتوبة النصوح هي بالتخلص منها والتحرز من مواقعتها، وإنما يتخلص منها من عرفها، ولذا يكون هذا الفصل من أنفع الفصول.

١- الكفر: أصل الكفر التغطية وذلك أن الكافر يغي الحق ويكتمه ترويجاً للباطل. وهو نوعان كفر أكبر وكفر أصغر، ودلّت نصوص الشريعة الكثيرة على هذا التقسيم، وقاله حبر الأمة ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وللشيخ سليم الهلالي رسالة مستقلة "قرة العيون" في هذا الأثر رواية

ودراية. واعتماداً على هذا التقسيم يمكن أن يقال إن المعاصي كلها كفر لأنها ضد الشكر الذي هو الطاعة قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ والكفر الأكبر خمسة أنواع (الجحود وهو التكذيب – الاستكبار والإباء – الإعراض – الشك – النفاق).

- كفر التكذيب: اعتقاد كذب الرسل وهذا قليل وإنما هو تكذيب باللسان لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا ....﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ....﴾.

- كفر الاباء والاستكبار: ككفر ابليس وأعداء الرسل واليهود وأبي طالب فهم يصدّقون لكنهم أبوا.

- كفر الإعراض: لا يصدق ولا يكذب ولا يوالي ولا يعادي كما قال أحد بني عبد ياليل، وهو كفر الملحدين.

- كفر الشك: لا يجزم بصدقه ولا بكذبه وهذا لا يوجد إلا إذا أعرض عن النظر في معجزات الرسل.

- كفر النفاق: يُسلم بلسانه ويكفر بقلبه.

وقد يجحد جملة ما أنزل الله وهو الكفر المطلق العام وقد يجحد شيئاً بعينه كجحد (فريضة أو تحريم محرم أو صفة غليهة أو خبر إلهي) عمداً. وأما جهلاً أو تأويلاً

فلا يكفر كالذي جحد قدرة الله على البعث جهلاً لا عناداً وتكذيباً والقصة في البخاري وغيره. (٣٠٤-٣٠٧).

٣-الشرك: نوعان أيضاً (وكل شرك كفر وكل كفر شك وتأمل قوله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ .... ﴾ وقال: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾، وذلك أن الكافر أشرك قَواه كما في التنزيل الحكيم).

شرك أكبر: يتخذ من دون الله نداً يحبه كحب الله ويسوّى بربّ العالمين في المحبة والتعظيم، مع اعترافهم بالربوبية. بل ربما يحبون ألهتهم ويعظمونها أعظم من محبة الله تعظيمه: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ .... ﴾ فآلهتهم يذكرونها أكثر من ذكر الله عزوجل، وهي ملاذهم وباب حاجاتهم ويعتقدون فيها أنها تشفع لهم عند الله بلا إذنه وجهلوا فإن الشفاعة لها ثلاثة أصول. ١- لا شفاعة إلا بإذن الله عزوجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى .... ﴾. ٢- ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ .... ﴾ ﴿ ....إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ .... ﴾ يرضى قول وعمل الشافع والمشفوع له. ٣- ولا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد والاتباع خ(٦٥٧٠) حديث أبي هريرة قال: من أسعد الناس بشفاعتك.... الحديث.

ترى هذا الشرك يكذّب حاله قوله، إنه يقول: لا نحبهم كحب الله ولا نسوّيهم بالله ثم هو يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتُهكت ويستبشر بذكرهم إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من الاغاثة وكشف الكرب. قال ابن القيم: رأينا والله منهم هذا عياناً ورمَوْنا بعداوتهم. ولم يكن لهم حجة إلا كحجة المشركين قالوا عاب آلهتنا، وكحجة النصارى قالوا: تنتقصتم المسيح وكحجة عُبّاد القبور قالوا: تنتقصتم أصحابها. وهؤلاء قالوا: تنتقصتم مشايخنا. إن هؤلاء جعلوا لأوليائهم من خصائص الرب سبحانه وتعالى فزعموا أنهم في قبورهم أحياء حياة من جنس حياة الرب سحانه وتعالى.

إن المشركين يرجون النفع من آلهتهم وقد قال تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ فنفى سبحانه وتعالى جميع مراتب النفع التي اعتقدوها ولم يبق إلا الشفاعة بالأصول الثلاثة السابق ذكرها.

وشرك أصغر: وضابطه ما دون الأكبر كيسير الرياء والحلف بغير الله وقول الرجل: ما شاء الله وشئت/ خذ(٧٨٧). وإضافة النعمة لغير الله كما في حديث: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر....). الشرك الأكبر يقدح في أصل التوحيد ويزيله والشرك الأصغر يقدح في كماله.

٣- النفاق: الداء العُضال لأنه خفيّ، قد يكون الرجل متلبساً به وهو لا يشعر.

- نفاق أكبر: موجب للخلود في النار كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ والله سبحانه هتك أستار المنافقين في غير ما سورة في كتابه: البقرة – النساء – براءة – المنافقون – محمد – وغيرها.

- ونفاق أصغر: وهو النفاق العملي. والنفاق ينبت على الكذب وعلى الرياء ومخرجهما من ضعف البصيرة وضعف العزيمة. ونذكر هاهنا بعض أمارات النفاق من كتاب الله عزوجل:

- ﴿ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ويؤخرونها إلى آخر وقتها وينقرونها كما قال ﷺ "تلك صلاة المنافق.....) ولا يحضرون الجماعة "إثقل الصلاة على المنافقين" وقال ابن مسعود: "ولقد رأيتنا وما يختلف عنها إلا منافق معلوم النفاق".

- ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ .... ﴾ "كالشاة العائرة بين الغنمين".

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ .... ﴾.

- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .... ﴾.

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ .... ﴾

- ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ .... ﴾ لعلمهم أن أهل الإيمان لا يطمئنون إليه فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به.

- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ .... ﴾

- ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ .... ﴾. فهم أحسن الناس أجساماً ولساناص وبياناً وأخبثهم قلوباً وأضعفهم حَناناً، خُشب مسنّدة لا ثم لها قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها(١).

- ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ .... ﴾ والآية الأخرى: ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ .... ﴾ وكلتاهما في المنافقين حتى تكون مخالفاً لهؤلاء لابد أن تحزن إذا وقعت مصيبة في المسلمين.

- ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا .... ﴾.

- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ﴾.

---

(١) وأبدى صاحب الكشاف معنى آخر قال: لأن الخشب إذا انتُفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكاً فارغاً غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به في عدم الانتفاع. وكذا اعتمده السعدي. وقد وجدت أنه يستفيد كثيراً من صاحب الكشاف في عبارته الملخصة المفيدة.

- ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... ... ﴾

- ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ ظواهرهم معنا وبواطنهم مع كل ملحد. قال ابن القيم: لا تستطل أوصاف القوم، فالمتروك – والله – أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم لكثرتهم على ظهر الأرض وفي أجواف القبور، سمع حذيفة رجلاً يقول: اللهم أهلك المنافقين فقال: يا ابن أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة السالك. ولذا قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: "إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل" وقال الحسن: "ما أمنه إلا منافق وما خافه إلامؤمن" علّقها البخاري في كتاب الإيمان.

- ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .... ﴾ "آية المنافق ثلاث:......" فالحذرالحذر من صفاتهم والتفتيش التفتيش هل في المرء شئ من هذه العلامات.

٤- الفسوق: أصل الفسق: الخروج. فَسَقت الرُطَبة عن قشرها: خرجت. فإذن هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية فهو مخالفة الأمر وارتكاب النهي، هذا عند الاطلاق فإذا اقترن.

٥- بالعصيان: كان العصيان مخالفة الأمر والفسق ارتكاب النهي وهو ينقسم إلى فسق أكبر مخرج من الملة وأصغر.

فالأكبر: كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ.... ﴾ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ .... ﴾ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ.... .... ﴾ والأصغر: كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ .... ﴾ كقوله ﷺ: "اثنتان من الناس هما بهم كفر" فهم لم يكفروا ولم يفسقوا وإنما بهم فسق وبهم كفر. وكقوله تعالى: ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ .... ﴾ فلو كان كافراً ما تبينّا لأن الكافر لا يقبل خبره حال كفره فإن أسلم قُبل من ما تحمله حال كفره وسبب نزول الآية في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط كما قاله أكثر المفسرين والقصة حسنة بشواهدها كما في تحقيق المسند للأرنؤوط (١٨٤٥٩) ثم وجدتها في صحيحة البحر الألباني عليه رحمة الخالق الباري برقم (٣٠٨٨). فأمر سبحانه بالتبيّن في خبر الفاسق لا برده فإن قامت قرائن على القبول قُبل وأكثر الفساق يصدقون ويكون فسقهم لا من جهة الكذب، فإن كان من جهة الكذب وكثر كذبه ردّ وإن ندر فاختلفوا في ذلك. فائدة: النبأ: الخبر الغائب عنك الذي له شأن&

٦-٧- الأثم والعدوان: كما سبق إن أُفرِدا في الذكر تضمن كل منهما الآخر فالآثم أثِم لأنه اعتدى على أمر الله ونهيه، وهو إذا اعتدى أثِم. وأما عند الاقتران فالاثم: فهو محرّم الجنس والعدوان ما هو محرّم القدْر والزيادة كمن تعدى فيما أبيح له من الوطء فيطأ في الحيض والنفاس وفي امدبر وفي الإحرام، وكمن تعد

فيما أبيح له من النظر إلى المخطوبة والشاهِدة والمعامَلَة والمداواة أو المداوية فأطلق طرْفه في محاسن المنظور.

والعدوان نوعان: عدوان في حقوق الله وعدوان في حق العبد.

٨- وأما البغي فغالب استعماله في حقوق العباد فإذا قُرن بالعدوان كان البغي ظلم العباد بما هو محرّم الجنس كالسرقة والكذب، وكان العدوان تعدّي الحق في استيفائه إلى أكبر منه فحينئذ يكون البغي والعدوان كالإثم والعدوان، قُرن العدوان بالبغي وبالإثم لبيان التعدي فيما أبيح له علاوة عل محرّم الجنس. فإذن اجتنِب محرم الجنس واجتنب التعدي فيما أبيح لك سواء كان في حق الله أو في حق العبد ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ الآية الأولى في الأوامر لأنه سبحانه ذكر فيها إقامة حدود الله بين الزوجين فقال: ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ فإذن الأوامر لا تُعتدى ولا تُتعدّى أي: لا تُتجاوز ولا يُقترب من حد الخروج عنها ولذا قال الزمخشري أنه وجه الآية الأخرى أي (لَا تَقْرَبُوهَا) واحتمل وجهاً آخر اعتمده السعدي وهو أن الأية (فَلَا تَقْرَبُوهَا) في المحرمات.

٩-١٠- وأما الفرق بين الفحشاء والمنكر: فالمنكر ما لم يُعرف في شريعة ولا سنة كما تنكر العين المنظر القبيح والأذن الصوت المستنكر والذوقُ الطعم المستكره وأما الفحشاء فهي المنكر الذي تشتد منه النُفرة فيشتد انكار العقول

والفِطَر له قال تعالى في فعل قوم لوط: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾فهو منكر ثم وصفه تعالى: بـ(ٱلْفَٰحِشَةَ) فقال: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾.

١١- القول على الله بلا علم أعظم الذنوب على الإطلاق وهو أصل الكفر والشرك والبدعة وترتيب الذنوب المذكورة في آية الأعراف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ .... ﴾ وإنما بدأ بالفواحش لأنه تقدم ذكرها قريبا ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً .... ﴾ ترتيب من الأدنى إلى الأعلى كما نبّه ابن القيم ص ٣٣٣ وهذه الأربعة المذكورة لا تكون إلا محرّمة اتفقت الشرائع على تحريمها ولا تباح بحال كالموتة ثلاً cإن المحرمات نوعان: مЭرم لذاته لا qباح بحال ومحرّم في وقت دون وقت.

ШالقولЧ على اللЧ بغير علS جنس تحته أنواع كثيرШ كما قئل تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكم وصف Чالله بxا لم يصف به نفسه أو نفى عنه ما أثبته جل وعا. وكم كذب على ارسول ﷺ فإنه يتبوأ لقعده من النار وهذه يقتضى لزومЧا وكأهل البدع cذنوبهم داЮلة Ъحت هذا الجنس – الشбك – والبدع – تحليل الحرام وتحريم الةلال – الكŌب عل ﷺ .

١٢- اتباع غير سبيل ال٨ؤمنين. وهو البخعة. وق/ ذثكرت في القول رلى الله بلا علم.ومنها مشاكد المعصية. فإن العبد إذا فعل المعeية أو رأى من يفعلها فإن له تЪاه ذلف مشاهد وتأويات وفكر فيما бJاء ذلك. وها هي هذه المشئهد مجزة:

١- مشهد الحوانية وقضاء اشهوة. ٢- لشهع الجَبوذ. ٣ مشهد القَدَر. (aلمنحرفون)

٤- مشهد الحكمة. ٥، مдهد اфتوحيد. ٦، شهد التوفيق والخذфإل. ٧- مуدд الأسماء وئلصفات. ٨- شهد الإمЧن وتعدد ذاهده. ٩% مشهد الرحم. ١ - مشهد اعجز واضع. ١١- مشكد الذ وا cتقار. ١٢- مشهد المحبة والعبوديو. (أهل الإستقامة).

١- مشهد ئلحيوانية. وهو شهد الجهّال الذين لا فرق بينهم وبين الحيواЦ إلا اуتقأمШ الـامة ونطق اللسان، ليس لهم شهود سوى مَيْل نفوسهم وشهواتهم، لم تترق نفوسهم إلى جرحة الإنسانية فضلاً عن درجة الملائكة. وهم متفاوتون في شبههم بالحيوانات فمنهم الكلبي والحماري والسبُعي[1] وضرب الله عزوجل لهم مثل السوء الذي قال النبي ﷺ: "ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب..." قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ ومثله كمثل الكلب أي في الحرص والنهم على ما أخلج إليه. وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾ والحمار أبله الحيوانات. فهم لا يفقهون كانعدام فقه الحمار لما يحمله من كتب ومنهم من طبعه كالخنزير في ترك الطيب وجمع الخبيث في بطنه ومنهم كالطاووس في التزيّن بالريش ليس إلا.

---

(١) الكلب: في الحرص على الجيفة مع أنها جيفة وهمّه شبع بطنه يلهث.
والحمار: في الكدّ والعلف. والسبع: في العدوان.

بخلاف الحيوانات الكريمة التي أكَرمُها الخيل وكذلك الغنم التي من دواب الجنة وكذلك البقر الذي هو أنفع الحيوانات للأرض وبها صلاحها وفلاحها وفيها سكينة وانقياد وتذلّل. قال ابن القيم: وعلى ذلك اعتماد أهل تعبير الرؤيا.

٢- مشهد الجَبْر. يرون ويرون غيرهم أنهم مساكين مقهورون لا حيلة لهم ولا لوم عليهم مطلقاً كيف يُلامون وهم أطاعوا المشيئة الإلهية فيرون أنهم ليسوا عصاة ويبرئون ساحة إبليس وأتباعه ويتوجعون له ويقولون ما ذنبه إذا امتنع عن السجود لغير الله وما ذنبه وقد وافق المشيئة الإلهية فيه، هؤلاء هم أةخىء ال حقاى ونم شر من القدرية قال تعالى فو أمثال هؤلاء: ﴿ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . وقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا في سورء الأنعام في سورة النحل ردّ الله عليهم ذلك بأنهم لا حجة لهم في لك ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾ كيف يكون مجبوراً وقد جعل الله عزوجل له ئذادة قدرة.

٣- مشهد القدر. يرون انهم هم الخالقون لأفعالهم والله زبحاه لا قدرب له على العبد فلا يهدي ولا يضل وأن يقع في الكون ما لا يراؤه اللك تعامى ونه يشا مئ لا ون، يرون أنهم نم العاصمون لأنفسهم من المعاصي ولذا لا يستعينون بالله ولا يسألونه الهداية وكيف يسألونه وهم يعتقد أنه لا قدرة له على فعل العبد. والشيطان ا يؤزهم إل المعاص أنه رضى منهم بهذه البدعة ئلشنيعة وهي أحب إليه ن أن يؤزهم إلى المعصية وله في عدم أزّهم

غرضان: أن يرسّخ ذلصد في قلوبهم وأنهم م العاصمون لأنفّهم وأنهم يتركون ذنوباً يقع فيها أهل ألسنة والثانЪ: أن يخدع بهم ال،هاـ ويصطادهم بكم.

وأما أهل استقامة فينИرون إلى القضاء шЧلقدر بما ـيك مقخر وشر بمنظار الحلكة وأنه سبحانه كل شئ بمشيئته لكنه هو سبحانه ئلحكيم كما قال تعالى ع الملУئصدة ǻلذين تعجبوا كيف يكون في الأرض فساد وشر فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ....﴾ قال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو سبحانه يحب أشياء لا تحصل إلا بتقدير المعاصي وعلى ذلك أمثلة:

- ظهور قدرة الله عزوجل في الغرق العام للكفار وانجاء المؤمنين لم يكن هذا ليحصل إلا بمعصية قوم نوح.

- ظهور آية الله عزوجل في انجاء إبراهيم من النار الم يكن يحصل إلا بمعصية قومه.

- حصول المنازل العاليات لرسل الله وأتباعهم لم تكن لتحصل إلا بمعاصي أقوامهم وابتلاء هؤلاء بأولئك وقد بين سبحانه بعض هذه الحكم في غزوة أحد: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ....﴾ وكذا حصول الخضوع والتزلل للرب من أوليائه إذا رأوا أحوال أعدائه فيشفقون أن يكونوا مثلهم كما حصل

لإبليس وهارون وماروت أمام الملائكة وكما يرى أولياء الله عزوجل مصارع أعدائه.

٤- مشهد الحكمة. فلو قال قائل: هلا حصل هذا بدون هذا قيل له: هذا كفر من وجود المسببات بلا أسباب والملزومات بدون لوازمها وهذا مما تمنعه حكمة الله عزوجل. وهناك حكم أخرى كثيرة وإنما هذا بيان.

٥- مشهد التوحيد. من خلال شهود المعاصي وتقديرها وجريانها على الخليقة يعلم أنه لا عاصم من غضب الله وسخطه إلا هو جل وعلا ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه فالأمر كله لله يهدي من يشاء ويضل من يشاء فيعلم من خلال هذا تفرده سبحانه بالربوبية فيدخل من هذا الباب إلى توحيد الأولوهية. فإذن باب توحيد الألوهية هو توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية. فالحاصل أنه من خلال تقدير المعاصي يشهد تفرد الرب سبحانه بالخلق والحُكم فليج إلى توحيد الألوهية فلا يتخذ غيره إلهاً. والقرآن مشحون بالآيات الدالة على أن باب توحيد الألوهية هو توحيد الربوبية. ومن أوضح ذلك آيات سورة النمل ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي: فعل هذا، فتتم عليهم الحجة فيلزمهم توحيد الألوهية والآيات في ذلك كثيرة. فتأمل كيف كان تقدير المعاصي محققاً للعبد ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾.

٦- مشهد التوفيق والخذلان. وهذا من تمام المشهد السابق لكنه أُفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به. والتوفيق: هو أن لا يكلك الله إلى نفسك والخِذلان: هو أن يخلّي بينك وبين نفسك. والعبيد متقلبون بينهما فإن وفق سبحانه فبفضله وعطائه وإن خذل فبعدله وحكمته كما قال الطحاوي: "يهد من يشاء ويعصم ويعافي فضلا ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله" ا.هـ وحينئذ تعلم ضرورتك إلى التوفيق في كل لحظة فدأب لسانك: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" "يا مصرّف القلوب صرّف

قلبي إلى طاعتك" "يا حي ياقيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" المهم: دوام سؤال التوفيق والاستعاذة من الخِذلان.

التوفيق ما هو؟ إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ويُبغّض إليه ما يَسْخَطه، وهذا مجرد فعله سبحانه، والعبد محل له. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ....﴾ وختمت الآية باسمين مناسبين لمضمون الآية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله. لكن ما مناسبة ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ ....﴾ لما بعدها[١]؟

(١) قلت: هذه السورة – سورة الحجرات – بحاجة إلى تأمل من أولها إلى هذا الموضع، بدايتها في منع التقديم بين يدي الله ورسوله وذلك بإبداء المقترحات – كجهاد الأعداء قبل إذن الله لهم – وهذا من الأدب مع الله ورسوله ثم فصّل الأدب مع الرسول ثم أمر بالتبيّن في خبر الفاسق حتى تكتمل القسمة بمنع أذى قوم من الأقوام – فعلاوة على المنع من أذى الرسول ذكر هذا منعاً لأذى الناس بأن نصيبهم بأذى ونحن نجهل – ثم عاد فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ....﴾ وكونه كذلك يمنع الاقتراحات لأنه رسول يبلغ أمر الله/ كما قال نبي بني إسرائيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا.....﴾ فهذا كافٍ في منع الاقتراحات ومع ذلك ما امتنعوا فأراد سبحانه تربية هذا الجيل على خلاف من سبقهم/ ثم قال تعالى: (لَوۡ يُطِيعُكُمۡ.....) فلو اتبع الحق أهواءكم لفسدت السموات والأرض لأن نفوسكم لا تعلم مواقع المصالح وليس فيها إلا الشر والظلم والجهل ولولا أني مننت عليكم بالإيمان – الذي أنتم عليه الآن – لما حصل منكم فلا تغتروا بما أنتم عليه من إيمان وتنسبوا ذلك لأنفسكم، وإذا كان الأمر كذلك فامتنع كل الامتناع إدلاؤكم بالاقتراحات. والله تعالى أعلم.

أما التوفيق عند مخالفي أهل السنة فهم طرفا نقيض: الجبرية (وهم قدرية مثبتة) قالوا: التوفيق خلق الطاعة والخذلان خلق المعصية، وهذا صحيح لكنهم أنكروا أن لذلك أسباباً وأن وراء ذلك حِكَماً وقالوا: الأمر مجرد مشيئة من غير سبب ولا حكمة. فهذا لا يُبل منهم ويرد عليهم. والقدرية (وهم نفاة القدر): قالوا: التوفيق هو البيان العام والإقدار والتمكين وتهيئة الأساب ، وهذا أمر مشترك بين المؤمن والكافر وهذا حق ولكنهم أنكروا أنه سبحانه خص المؤمنين بتوفيق وقع به الإيمان منهم وأنه خص الكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم وقالوا لو فعل ذلك لكان محاباةً للمؤمن وظلماً للكافر.

والصواب قول أهل السنة أنهم يثبتون الحق الذي عند كل طائفة وينبذون الباطل عندهما فيتحصل لهم الحق وهو اثبات القضاء والقدر ومع ذلك يثبتون الأسباب والحِكَم. فنزهوا ربهم عن قول القدرية النفاة أن يكون في ملكه سحبانه مالا يشاؤه وكذلك نزهوه سبحانه عن قول الجبرية المثبتة أن يكون في فعله سبحانه عبث وأنه لا يفعل لحكمة لأجلها فعل وبسبب به فعل.

٧- مشهد الأسماء والصفات. خلاصة هذا المشهد إن اسم من أسمائه سبحانه له تعبُّد مختص به علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات ولا تحجبة عبودية اسم عن عبودية اسم آخر وخاصته الأسماء المتقابلة فيتعبد لله باسمه المعطي والمانع، والقدير والحليم، وبأسماء البر واللطف والاحسان وأسماء الجبروت والعظمة والكبرياء لأنها بالعدل. وهذه طريقة الكُمّل من السائرين إلى الله وهي مشتقة من القرآن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ....﴾ دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد. وأيضاً اعلم أن كل اسم من أسمائه سبحانه يقتضي صفة والصفة تقتضي فعلاً والفعل يقتضي مفعولاً وكل هذا من لوازم ذاته سحبانه مضار لدينا (ذات – أسماء – صفات – أفعال – مفعول) المهم أن كل اسم مُتَعلَّق، وهو سبحانه من أسمائه الغفور الغفار التواب العفو فلابد لهذه الأسماء من متعلق وهو المعاصي والجناية فقدّر سبحانه هذه المعاصي ليُعبد بهذه الأسماء فلابد من ذنب يُغفر وتوبة تُبل وزلة تُغفر وعثرة تُقال فصار تقدير هذه المعاصي من كمال الأسماء والصفات والأفعال وكذلك هو سبحانه يحب الرحمة والعفو والمغفرة فلا بد لذلك من أسباب.

٨- مشهد زيادة الإيمان ونقصانه. إن هذا مشهد عجيب كيف يزيد الإيمان من خلال الذنوب والمعاصي سواء نظر العبد في معاصي نفسه أو معاصي غيره؟ الجواب: أن الله سحبانه في كتابه ورسوله ﷺ أخبر أن المعاصي سببب كل بلاء وضنك كما كثر ذلك في الكتاب والسنة فإذا رأينا أثر المعاصي كما أخبر الصادق المصدوق زاد إيماننا بالله وبه فإنه مما يزيد الإيمان وقوع الأخبار كما أُخبر بها، وقارن هذا بحال الطاعة وما يترتب عليه من السعادة في الدنيا والآخرة ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً .... ﴾﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾. نعيم في الدنيا قبل الآخرة وجحيم في الدنيا قب الآخرة. وازداد إيمانك بأسماء الله وصفاته وأنه سبحانه بالغ أمره وأنه حكيم في فعله وغير ذلك مما تقدم في مشهد الأسماء والصفات. وشهد أيضاً قسطه سبحانه ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ.... ﴾ فكل ما تراه في الوجود من شر وألم على مدى التاريخ فهو من قيام الرب سبحانه بالقسط وإن أجراه على يد ظالم فالمسلّط له هو أعدل العادلين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ.... ﴾.

٩- مشهد الرحمة. وذلك أن الطاعة لها صولة وغلظة على العصاة، ولا تزول هذه الغلظة وتحل محلها الرحمة على المذنبين إلا إذا قارف العبد الذنوب والله عليم حكيم.

١٠- مشهد العجز والضعف. وأنا أسميه مشهد التخلص من (القدرية) لأنهم يرون أنفسهم أقوياء هم الذين عملوا والحول منهم والقوة، فإذا أذنب الإنسان علم يقيناً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ولا عاصم إلا الله فيعترف بعجزه وضعفه عن حفظ نفسه وأن الله سبحانه وحده هو الحفيظ ومن عرف ربه بالكمال والقوة والقدرة عرف نفسه بالنقص والضعف والعجز والعكس بالعكس. فهذا المشهد يزيل عنك رعونات الدعاوى والإضافات إلى النفس ويعلم أنه ليس له من الأمر شئ وإنما الأمر كله لله كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾.

١١- مشهد الذل والافتقار. وهو كما قال الشيخ تعجز العبارة عن وصفه وإنما يُعرف بالحصول وخلاصته أن تشهد أنك في كل أمرك مفتقر إلى من بيده صلاحك وفلاحك وسعادتك وهداك ترى نفسك كالإناء المرضوض الذي لا يصلح الانتفاع به في شئ إلا إذا جُبر ولا جابر له إلا إلهه ومولاه فيحصل للقلب كسرة وخضوع وهو سجود القلب الذي يتكلم عن العارفون، فحينئذ تخضع جميع جوارحه.

١٢- مشهد المحبة والعبودية. هذا المشهد مُرتب على مشهد الكِسرة المذكور آنفاً فإنه إذا انكسر قلبه وذَلّ وأفتقر عَبَد وأحب واشتاق إلى لقاء ربه، قال الشيخ: هذه الكِسرة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعَبّر عنه. وحَكى عن بعض العارفين أنه قال: أردت الدخول على الله من أبواب الطاعات فإذا هي مزدحمة حتى جئت باب الذل والانكسار فإذا هو أوسع باب ولا مزاحم فيه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية وإذا طالعت منن الله عليك قبل وأثناء وبعد الذنب ازددت حباً له سبحانه لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. قال الشيخ: أُطيل الكلامُ في مقام التوبة لفرط الحاجة إليه والضرورة إلى معرفته ومعرفة أحكامه.

٧- منزلة الإنابة.

عُلم أن النزول في مقام التوبة هو نزول في جميع مقامات الإسلام ومع ذلك فلا بد من إفراد هذه المنازل الأخرى بالذكر لتستبين حقائقها وخواصها وشروطها.

١- الإنابة: ناب ينوب وانتاب إذا اعتاد مكاناً يرجع إليه. والخلاصة أنها في اللغة تعني الرجوع مثل تاب يتوب وثاب يثوب لكن الإنابة فيها معنى الإسراع والتقدم.

٢- وفي الشرع: الرجوع إلى الله في كل وقت والاسراع إلى مرضاته والتقدم إلى محابه. وهي ثلاثة أشياء: ١- الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه. ٢- والرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهداً. ٣- والرجوع إليه حالاً كما رجع إليه اجابةً وكل واحدة من هذه تتحقق بثلاثة أشياء:

١- الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً: فيقلع عن المعصية ويعمل بالطاعة، فالاقلاع اعتذار والعمل بالطاعة إصلاح، تخلٍ وتحلٍ كما قال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ وإنما يستقيم ذلك بثلاثة أشياء أ- الخروج من التبعات. ب- والتوجع للعثرات. جـ- واستدراك الفائتات.

أ- يخرج من التبعات بالتوبة من الذنوب التي بينه وبين الله وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ب- ويتوجع إذا عَثَر تَوَجُّعَ قلبٍ وانصداع فهذا دليل على إنباته إلى الله. وجذلك يتوجع لعثرة أخيه إذا عثر (أي بالذنب) وهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

جـ- ويستدرك ما فاته من الطاعة والقربات بأمثالها لا سيما في بقية العمر، يستدرك ما فات ويحي ما أمات، فإن ما بقى من عمره لا قيمة له. وبهذا الاستدرك يحصل التكميل.

٢- الرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهداً: أخذ سبحانه عليك العهد بالطاعة فقبلت ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ .... ﴾ فدخلت تحت هذا العهد، والمطلوب الآن الوفاء، والدين كله عهد ووفاء ومن علامات النفاق الغدر بعد العهد، أُخذ هذا العهد بواسطة الملائكة ثم إلى الرسل ثم إلى الخلق أو بتكليم الرسل كموسى ومحمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ وهذا شامل لحقوق الله وحقوق عباده. فما أناب من لم يدخل في العهد وما أناب من لم يوفِ به إذا عاهد. وإنما يتستقيم هذا بثلاثة أشياء.

أ- الخلاص من لذة الذنب. ب- ترك الاستهانة بأهل الغفلة مع الخوف عليهم والرجاء لنفسه. جـ- الاستقصاء في رؤية علة الخدمة.

أ- فإذا كانت اللذة لا زالت موجودة فإنابته غير صافية بل لابد من زوالها ويحل محلها الألم والتوجع لكن أي الحالين أعلى: من يجد لذة الذنب فيجاهدها أو من ماتت عنده اللذة وصار مكانها ألم وطمأنينة؟ والجواب: الثاني لأنه وصل إلى الغاية التي يجاهد من أجلها الأول فالثاني مشتغل بالغاية والأول لازال في

الوسيلة وهو – أي المشتغل بالوسيلة – وإن كان أكثر عملاً ومشقة لكن الثاني أرفع منه بنوعية العمل وليست العبرة بكثرة العمل بل بنوعيته كالجهاد والإيمان، وكإيمان الصديق وعمله الذي هو أقل من غيره لكنه فاق الجميع بشئ وقر في قلبه، الثاني قطع المهامه والقفار ووصل إلى الدار والأول لازال يقطع وما وصل بعد.

والنفس لها ثلاثة أحوال: تأمر بالذنب، وتلوم عليه، ثم تطمئن إلى ربها بالاقبال عليه. فهذا الثاني في حالة الطمأنينة والأول لازالت نفسه تأمره بالذنب وتلومه عليه: أمارة لوامة.

ب- لا يستهين بأهل الغفلة ولا يحتقرهم وفي نفس الوقت يخاف عليهم ويرجو لنفسه وإن كان لا محالة مستهيناً – وهذا لابد منه لسوء حالهم البادية لكل ذي عينين وبُعدهم عن ربهم – فإذن يرجع إلى نفسه فيكون أشد مقتاً لها.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً أ.هـ وهذا لا يكون إلا من فقيه: نعم يمقت الناس على ما يرى منهم لكن لو استقصى نفسه لوجدها أحق بالمقت.

جـ- هنا يفتش عن حظوظ النفس – نسأل الله العافية – فكم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع أن يكون العمل لله حتى ولو كان العابد في خلوته وقد يكون في وسط الـUعيون ألمحدقة ه وعمله خالصÖ وكل بصير يلحظ Ōلك من نفسه، فكم بين العمل وأثرن في القلب من مساcة فلا يؤثر العمل فيه لا محبة ولا خوف ولا رج ولا زهد في الدنيا ولà رغبة في الآخرة ولا نور يcرّق به بيĘ الحق والباطل. ثم كف بين القلب والـUرب من مسافة عpيها قطاع الطرʔ من الفبر Ɉالعُجǀǀǀ والإدلال لكن مĘ رحمته تعالى أنه ستōَ عنا هذا فإن المرء لو ōأى هذا لأصيب باليأس والقنوȷ ولترك الظبادة، ولذلك لما ءلف اللحئسبي "الرعاية" وفقها اطلأع على متل هره الآفات عطلت المساجد عن كثير مل عمارها فصϤر كمن عمّر قصراً وهدم مِـٰراً./ وليُقرأ ǿذا الكلام Ęحروفϥ لعظيم فـϤئōته ص ٣٧٧-,٣٨٨

٣- الرجوع إليه حالاً كما رجع إليه ءجابةً: فأنت قلت: لبيك وسعديك وهذا قول فهل لك حال بصدق به ǿذا المʔال فكما رجر إليه سحبانه بالمقال فارجع إليه بالحال. ـأل الحسن: ابن آدم لك قɈل وعمل وعΛلك أوUى بك Λن قوUك،

ولك سريرę وňلانية وسريذتك أملك بك من علانيتك. وإنما يستقيم ذφك بثلاثء أشياء.

أ- الإياس من عملك. ب- معاينة اض رارك& جـ- رؤي لطفن سبحانه بف.

أ- Õيأس من أن لجاتك عملك وحديث الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً معلوم: "لن ينجى أحداً منكف عملُه...." وإنما ما أنت فيه هو محض فضله سبحانه.

ب- حينئذ – أي إذا أيست من عملك عرفت فقرك واضطرارك وعرفت غنى ربك – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ... ﴾ ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ... ﴾ قال شيخ الإسلام: والفقر لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي.

جـ- وحينئذ فلا يبقى إلا لطفه سبحانه فكل ما أنت فيه ما تقدم وما ترجوه من لطفه سحبانه لا بسبب منك فإنه سبحانه منه السبب والمسبب وهو الأول والآخر.

٤- ثمرات الإنابة وجزاؤها بالإنابة. أمر الله سبحانه ومدح المتصفين بها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ ﴾ ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي أقيموا وجوهكم منيبين أو فطرهم منيبين. ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴾ ﴿ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾ ﴿ وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾.

٥- الانابة إنابتان. أ- عامة: كالإسلام العام والفقر العام وهي إنابة الربوبية.

ب- خاصة: كالإسلام الخاص الاختياري والفقر الخاص وهي إنابة الإلهية.

العامة تقع من جميع الناس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ بدليل ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ والخاصة خاصة بأوليائه وهي إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور ١- محبته. ٢- الخضوع له. ٣- الاقبال عليه. ٤- الاعراض عما سواه. فلا يكوϵ منيباϥ غلا من اتصف Ȩنا وتفسير السلف ϕهذه الإنابة يدϣر على هذه الδ٥ور الأربعة.

٨- نزلة التذكر.

١- التذكر قرين الإنئبة وهو من خواص أولϥ اϕألباب. ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ٨ ﴾ لأن Ϥعبد ءذا أنأب إلو الله أبصر مواقع الآيات والعِبَر فتذكر وقال: إي والله فالإϵابة تزيل إعراϯه والتبōرة تذيل ϰماه والآذكرة بزϥل غفلŌه. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٦٩ ﴾ قلب: وهو شأن المؤمϥ كا فъ إديث الصحيحة: "ما فل عبد مؤمن إا وله ذن يعتاده الفنية بعد الفينة أو ذϵب هو مقيم عليه لا Ϥفارقه حتى يفارق الدϥيا، إن ȥلمؤمن خلق مفتناً توابا نسّȃءً ذȥ ȃ٠كّر Ōكر"/ رقم (٢٢٧٦)/ طب عن ابϵ عباس.

٢- العبد الموفق داȀر بين التȃكر والفكر، يتذكر Ϥ؟تcكر فيحَصل له علف فيعΛل به وظله به هو تذكōه قال الحسن: مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على لتفكر وبالتفكر على التذكر. فإذن الЪفكō تآيش، والتذكō حصوɄ الذȦ المطلوȨ بعح اϕتفتيן عليه.

٣- التذكر ضد النزيان وهو حضور ŋرة الفذϣy العلمية في القلب، واختيرŌ له صيغة التفعّل لأنها تدل على حصوله بعد مهلة وتدرج مثل التبصōو لتفهم وأعلّx. المهx أن المرء يتفكر في الآيات المتلوة والمشنودة فيقع على علم ينفعه فإذا عمل بمقتضاه فقد تذكّر، وإذا نسى بعد ذلك فذُكّر تذكر وأثمر العمل فآلة التفكر والتذكر ومحلهما هو هذه الآيات كما قال تعالى: آيات متلوة ﴿

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ﴿ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾. وآيات مشهودة. ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ ﴾.

٤- أبنية التذكر ثلاثة. ١- الانتفاع بالعظة. ٢- الاستبصار بالعبرة. ٣- الظفر بثمرة الفكرة.

١- الانتفاع بالعظة: العظة هي (الترغيب والترهيب) وهذا لا يحصل إلا لمن رَغِب ورَهِب، خاف ورجا فيتحرك للعمل. يتعظ بما يسمع من الآيات والنصائح وبما يرى من الآيات المشهودة ولذا تكرر ذكر السمع والبصر كثيراً في القرآن بل من الله على الإنسان بقوله: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ وشروط الانتفاع بالعظة. أ- شدة الافتقار إليها. ب- العمى عن عيب الواعظ. جـ- تذكر الوعد والوعيد.

أ- يشتد الافتقار إلى العظة إذا ضعفت الانابة والتذكر وأما إذا كان قويين تكون الحاجة حينئذ إلى معرفة الأمر والنهي. قلت: فهل اقبل بعض طلاب العلم على معرفة الأمر والنهي لأن عندهم إنابة وتذكر فلا يفتقران إلى الترغيب والترهيب؟ لعل ذلك يكون. فإذن المنيب المتذكر شديد الحاجة إلى معرفة الأمر والنهي والمعرض الغافل حاجته إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتـصـبـõ حاجÕه إلى المجاϕة كΛا ذكر في اآوШ ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ .... ﴾ ففيكإ ثلاЫة في حق هؤل□ء الثلىئة.

ب- هكذϤ جُШلت النفوس على عدل ألانتفاع بكلء من âل يعمل بعՍمه لكن لا ينبغي أن تنشغل بφيبه عق اانتAأع بعظته قاϕ شعيب□ ﴿ □ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ ...* ﴾ وقا بعض âلسÄف: إذا أردب أن يقبل منـصـ الأمÕ والنyي cإذا أمرت بشÀ كن 8ول اՍاعلين وإذا نهيت عنه فكن أول المEتهين.

وقاـ الشئعً:

يا أيهـــåـ ألـرجل إلمعـــلـل غـــيره هلا لنفســـƁ كاƗĿذأ البعـــɸيم
تصف اـóواء لذي السʡام فن ëلضنى   وفق الضنى تُمسɯ وأنت سـʑيم
وأراƁ تلقـح بـåـلـ@ر_дـ‌pـد عقـʑولنا   نصحئً وأنت من اÕƱشʑاخ عدɋم
Ʊئ تنـــ@ه عن خلــʑʑـق Ɉتـــأتي   مثـــله   عåرٌ عليــك إذأ فعلب ظظيـــم
Ʊئ تنـــ@ه عن خلــʑʑـق Ɉتـــأتي   مثـــله   عåرٌ عليــك إذأ فعلب ظظيـــم
Чبـــدأ بنفســـــك فـنɇهـــا عن   غʢɋهـــا إ فـــإذا   انÕهـت عƗه فـــألت حyي
فهنpـــاك يُـۦبـــل   فا تقـــول ويُقتـــدى   بالقـــول منـۦك ويƗʔع التɸƱيمً

ɯهذه الأبيات كتب ƗƖƱЪ إلسماِك الـواعظ بЧلكوفـة بعدمȦ وعظ وآبyف فـلـا قرأهå مرض ولات/ محئسƱ الأشعار لأي عبدالϬحمن ر٣./ ɳ٣٨٣ من تهذوب لمدارÕ،

جـ- فلا ينتفع إلا Λن آمـ بـالوΫد والوعيد ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

لـۦن ذلـك هـو الـذي ينـآفع ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ ﴾ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝٤٥ ﴾.

٢- **الاستبصار بالعبرة:** تَفَكَّر: في مواطن العبرة فاعتقل المعاني من ذلك فتحصل له البصيرة فيتحرك نحو المطلوب فحينئذ تذكّر وهو يحصل بثلاثة أشياء.

أ- حياة العقل. ب- معرفة الأيام. جـ- السلامة من الأغراض.

أ- حياة العقل: صحة ادراكه وقوة فهمه لما ينفعه ويضره، وهو نور يخص الله به من يشاء.

ب- معرفة الأيام: وأنها قصيرة ما بقى منها إلا صبابة الماء كما قال عبتة ابن غزوان: "أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصُرْمٍ وولّت حذّاء ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الاناء يتصابها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال هلا فانتقلوا بخير ما بحضرتك..."/ م (٢٩٦٧). وكما في الصحيحة: "إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليلاً وما بقى منها إلا القليل من القليل، ومَثَل ما بقى من الدنيا كالثّغْب

– يعني الغدير – شُرب صفوه وبقى كَدَرُه"/ الصحيحة (١٦٢٥). هذا في الدنيا كلها من أولها إلى آخرها فما بالك بعمرك أنت، أعتقد أنه لا شئ، فما أنت إلا أنفاس معدودة منصرمة فما أولاك أن تجعلها فيما يحبه الله عزوجل والإنسان إذا صرف هذه الأنفاس في المحبوب دون الأحب لله عزوجل لكان مفرّطاً فما بالك فيمن صرفها فيما لا ينفعه؟ فما بالك فيمن صرفها فيما يمق عليه الرب سبحانه وتعالى؟ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي الحياة الحقيقية

وفن فررفة الأوئم معرفة #يام اɸله ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ إلَّا ﴾ وهق وقȧئعم س إانه وتعالى بأعد ه ونعمч التي ساقها لأوليائч، وزمɋت النعم واللقم أياx لأق اـأياف ظرف لها كمȧ يـولون: فلان اɄم بأياف العرب أɋ بالوقاƵع التɈ وɂعت في تɄك ȧلأوȧم.

جـ- السلامة فن الأغرчض٨ من اتĘاع الهوى واـئنȂيا للنفس чلأمـارة. ȧتباع الهɈى يطمس نوَ العـل Ɉيهعمى بصيōة القلب ويصد عن اتباع!الحق. كما قال علي رزق الله عنه: "إن Ɣخوف ما أخاف عليكم اع الهوى وطɈل الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الǮق وأما Ɉɿل ȧلأم ɄɔÎنسي الأÔرة Xلا إن ألƐليا ـد ارتحɸت مدĘرة..*"/ شيب في الفـ٥نف"، بك فق ألزهد" وعلّق الĘخاري آÓر ٥Ȯ !ȧلأثō ي كتاب الرقاق باب ٤ ن صاحب الفوى يلتبس عليك чلأمر فيرى الШق Шاطلاً وȧلباطل حقاы، والعياذ بالɄه .

٣) الظفر بثɅرة zلفكرة الفɃرة تثمذ ثمرآين 8- حصوɄ اللطɄوب (علم). ب- والعمل بمـجبه (عمل). ʔؤذن ōمرة الفكرة لعلم الƎافع والعمل الɳالح لكن متى يكوƎ العɅل لصالح ويحصل إÓا ترقى م ال*فكً إلى التذكً الذي هو أعلى مرتبة من التچكر ʔإذن (تفكر – علɅ نافع – تذكر – عمل صالح). وإنما تُجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء أ- قصر الأمل. ب- تدبر القرآن. جـ- تجنب مفسدات القلب الخمسة.

أ- قصر الأمل: عظيم الفوائد للمرء يجعله يُبل على الآخرة ولا يأخذ من الدنيا إلا ما ينفعه في آخرته، وقد سبق ذكر قصر الأمل من كلام عليّ رضي الله عنه. وقصر الأمل بناؤه على أمرين ١- تيقن زوال الدنيا ومفارقتها. ٢- تيقن لقاء الآخرة ولقائها.

فقايس بين الأمرين. وتأمل كتاب الله تعالى في الآيات الواردة في ذلك: ﴿

أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ

يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾.

ب- تدبر القرآن: فلا ينتفع بالقرآن إلا من تدبره وعَقَله وكيف يعقل بلا فهم والعقل هو الحبس وهو هنا حبس المعاني ثم يتذكرها فيعمل، وكيف لا يتدبر كلام الرب سبحانه وتعالى والذي كل حرف من حروفه فيه دلالة الناس على كل خيير وتحذيرهم من كل شر، كتاب الله تعالى المشتمل على التعريف بالرب سبحانه وبالطريقه الموصلة إليه وبما لك من الكرامة عند القدوم عليه سبحانه وفي المقابل يعرّف القرآن بما يدعو إليه الشيطان وبسبله إلى ذلك وبما للمستجيب له من الإهانة والعذاب. وبالجملة فلم يُفّرط في الكتاب من شئ، ومضمون القرآن في التوحيد وبراهينه وحقوقه وجزائه وعقاب من خالف.

جـ- تجنب مفسدات القلوب وهي خمسة ١- كثرة الخِلطة (أي: العِشرة). ٢- التمني. ٣- التعلق بغير الله. ٤- الشبع& ٥- المنام.

القلب إذا ح ى بمحبة الله وذكره ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ كان في جن عاجلة قبل الآجلة قال ابن تيمية: cي الدناي جنة من لم يدخلها لم qدخل جنة الآخرة.

ـقئـ 8خر: إنه ليمر IIIالقلب أوقات أقول: إن كاɆ أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: Ʉساكъن أهل الدنيا خرجوا مهها وما ذاقوا أطيب ما فيها،... محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعōاض йما سواه. لكن يؤثر علو هذا هذه القواطع الخمسة؛ تُطفЦ نوره وتُعْور بصيرته وتثقل سمعه – إن لم تُصمه وتبكمه – وتُضعف قوàه وتنكسه إلى الوراء.

فأماòكثرة الخِلطة: آفة الناس إلا الناس، انظوا فا الذي حال بين أب طالب وبيЦ اζإيماɆ؟!!! ذهч àلخلطة التъŌكɈن عɄى نوع Λودę في الدنيا تلقلب عداوة يوم القيامة قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .... ﴾ □

والكابط الناع في أمر التلسة: أن يخالط في الخير ويجبنب في الشر وفضول المباحات. كما قال ابن عوف: ثلاث أحبهن لنفسي ولأصحابي: هذه السنة أن يتعلموها وهذا القرآن أن يتفهموه وأن يدعَوا الناس إلا من خير" خ في كتاب الإعتصام. فإن أكره على مخالطتهم في الشر فلا يوافقهم أبداً ويصبر وسيَعْقُب ذلك تعظيمَه وإجلاله منهم وإلا – أي إن وافقهم – استهانوا به. وأما المباحات فيقلبها مجالس نافعة ولا يُسلِّ للوارد الشيطاني أنك تفعل هذا رياءً. فإنه لم يمكنه فِعْلُ ذلك حضر ببدنه وغاب بقلبه، فإياك أن تسلّم لهم قلبك.

وأما التمني: هو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، فالمنى رأس مال المفاليس، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ الأماني بحر لا حقيقة له. وصاحب الهمة العالية أمنيته في الإيمان والعمل الصالح ولا يحصل له هذا إلا بالعلم النافع ومتمني الخير هو وفاعله في الأجر سواء كما في حديث أبي كبشة الأغاري/ رواه الترمذي.

وأما التعلق بغير الله: وهذا أعظم المفسدات على الإطلاق لأن هذا هو أساس الشرك وقاعدته التي تُبنى عليها. والمتعلق بغير الله مذموم مخذول كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

والقسمة رباعية: - مذموم مخذول: المتعلق بغير الله. – محمود مخذول: كالذي قُهر بباطل. – مذموم منصور: كالذي قَهَر بباطل. – محمود مEصور: كàUذي قَهَر بح?.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

وأما الّب: دع أكل الحرام فإن هذا معلم أثره¶على القلب ولعلك ﷺ لما جعل الحرام مانعاًЧ من إجابة ادعو لأن القلب فَسَد فكيف تستجاب الدعوة إنɇاō يئنئذ مجرد كلمات على اللسان Ʉا فائدة فيها. لكن الذ ɋъهمنا هنا هـ اɸɭبφ المفرط من الحلال فإنч إذا أɃل كōيراً شرب yثيōاً فـɆام كثيراً فـЮسر كثيراً. قال ﷺ: "مـا مـلأ آدمـي وعـاء شōاً مـن بطـنɇ بـح ب ابـق آدم لقيمـات يققـن صلبه...."- الصحيحة (٢٢٦٥)*

وأما المɆأم: فـإن النـوم الكثيـر يʔسد الтلب ويمقتـه ويثʔل البدن وъضيع العمر، وأنʔع الɆوم مـا كـان йنـد شـدة الحاجـة إليـه، ونـوم أول الليـل أنفـع مـق آخره وكذا سدره الأخير، ونـوم ورط النهـأر أنفةم طرفيـه. ومن المyروه نـوم قبل العشاء بين ُلاة الصبح وطشع اɸشمس فإن السـائرين لا ينامونـه إلا اضطراراɋ لȣнч وقت تـزول اɄأرزȣق Ɉالركـة التـي دعـا بهـا النШي ﷺ فقال: "اللهم بـارك لأمتـي فـي بكورهـا" قلـت: ولـذلك كـان يـدعو ﷺ بعد صـلاة الصШح "اللهم إني أسألك علماً نافعاً وйملاً متقبɄاً ورزاтً طيإًاً". وكذا من المفسـدات مدافعـة النـوم وهجـره فـzنـه يكـون سـبĘاً لسـوء المـزاج وجفـاف الرطوبات. وماقامت السموات والأرض إلا بالعدل في كل شئ. أ.هـ.

٩- منزلة الإعتصام[١]

(١) هذه المادة تدل على المنع من الزلل والخطأ قال بن فارس: أصل يدل على امساك ومنع وملازمة. عصمة الله: منعه من سوء ما يقع فيه. واعتصم بالله: إذا امتنع. واستعصم: التجأ. والعِصمة: كل شئ اعتصمت به. وسميت القلادة عصمة لملازمتها العنق. ومِعصم المرأة موضع السوارين منها وسُمّيَ

١- الاعتصام أفتعال من العصمة التي هل ما يعصمك فهي الحِمية، والاعتصام هو الاحتماء والتمسك. ومنه عاصمة الدولة لأن بقية السكان يعتصمون بهيئة الحاكم فيها. ومعصم اليد.

٢- وهو نوعان: أ- اعتصام بالله: يعصم من الهلكة: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ ﴾ ويدفع عن البعد الشبهات والشهوات، والشيطان، والنفس الأمارة. ب- اعتصام بحبل الله: يعصم من الضلالة: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ .... ﴾ والبدعة. كالسائر على الطريق: الدليل يهديه حتى لا يضل، والزاد يحميه حتى لا يهلك.

والاعتصام بحبل الله ١- المحافظة على طاعته. ٢- مع مراقبة أمره لا لمجرد العادة. كما قال طلحه بن حبيب في التقوى: "أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب....." وهذا هو الإيمان والاحتساب الذي يذكر مع الطاعة فالإيمان: هو مراقبة الأمر وإخلاص الباعث بأن يكون الإيمان هو الأمر لاشئ سواه. والاحتساب: رجاء الثواب.

٣- وهو على ثلاث درجات (اعتصام العامة): أ- اعتصام بالخير استسلاماً وإذعاناً بتصديق الوعد والوعيد. ب- تعظيم الأمر والنهي. جـ- تأسيس المعاملة على اليقين والانصاف.

أ- استسلاماً أي من غير منازعة – أي من غير شك – بل إيماناً.

ب- وكذا الأمر والنهي، يفعل ويترك إيماناً لا من أسس معاملته على التردد والشك والاحتياط كما قال قائلهم:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأجساد قلت: إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخس عليكما

كذلك لامساكه السوار ثم سُمّى كذلك وإن لم يكن سوار فاليوم عندك دَلّها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم.

هذا يقوله على سبيل الشك والتردد بخلاف المؤمن ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡ ﴾ فهذا من باب التنزل كما هو معروف في علم البلاغة كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَـٰنِ وَلَدٌ ﴾.

جـ- وأما الانصاف فهو انصاف في معاملة الحق بأن يعطى العبودية حقها ولا ينازع ربه كبرياءه، وكذا ينصف في معاملة الخلق.

٤- ويزيد اعتصام الخاصة على ذلك بإسبال الخُلُق على الخَلْق بسطاً ورفضه العلائق عزماً. والأصل قطع علائق الباطن فإن قطعها لم تضره علائق الظاهر كما قيل لأحمد أيكون الرجل زاهداً ومعه ألف دينار؟ قال نعم شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت. وكان الصحابة أزهد الناس مع أنالمال بأيديهم وقيل لسفيان أيكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد شكر وإن نقص شكر وصبر.

لكن يُحمد قطع علائق الظاهر في موضعين أ- إذا خاف ضرراً على دينه. ب- إذا لم يكون فيها مصلحة راجحة والكمال من ذلك قطع علائق الشبهات والشهوات لأنها سبب الكلاليب على الصراط.

٥- ذروة الإعتصام إذا حصل القرب من الله: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ "ما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه...." "أقرب ما يكون العبد من ربه....." "أقرب ما يكون الرب من العبد في جوب الليل الآخر".

١٠- منزلة الفرار.

قلت: ١- هذه المنزلة مأخوذة من قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وهذا الجزء من الآية يتضح معناه بتأمل السورة من أولها إلى هذا الموضع ثم تأمل ما بعد ذلك. فالسورة في تقرير يوم الدين وأنه آت لا محالة قال الله عنه: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ وقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ

﴿لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ . ثم ذكر سبحانه صوراً من إهلاك المكذبين بيوم الدين وذكر اجمالاً أدلة قدرته سبحانه على مجئ هذا اليوم فإذا كان الأمر كذلك فما السبيل؟.

الجواب: الفرار إلى الله تعالى ومبنى هذا الفرار على التوحيد ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. وقال في نفس السورة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وأمر سبحانه نبيه أن يكون تذكيره بذلك فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

٢- فالفرار مما سوى الله إلى الله وحده والفرار من معصيته إلى طاعته ومن عقابه إلى ثوابه وعلى هذا يدور كلام السلف. كان ﷺ يقول في سجوده: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك". فما أوضح هذا الحديث وأظهره في الفرار. وهذا هو فرار السعداء. وأما فرار الأشقياء فيفرون من أرحم الراحمين إلى من لا يملك شيئاً، يفرون من الغني سبحانه إلى الفقير بكل معاني الفقر، يوبقون أنفسهم ويهلكون أنفسهم، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

٣- والفرار درجات فأدناه ١- الفرار من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً. ٢- ومن الكسل إلى التشمير جدّاً وعزماً. ٣- ومن الضيق إلى السعة ثقةً ورجاءً.

١- عقداً: بأن يحصّل العلم النافع ويعتقد مضمونه ويعرفه ويتبصر فيه سعياً: بأن يعمل بهذا العلم فيحصل العمل الصالح والسعي المشكور والجهل ضد هذين فهو إذن نوعان: أ- عدم العلم بالحق النافع. ب- وعدم العمل بموجَبه ومقتضاه.

وقد دلّ على هذا اللغة والعُرف والشرع. كما قالوا لموسى ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ فالاستهزاء عمل قال لهم: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ وقال يوسف الصِّدّيق: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي بفعل المحرّم ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ فيصير بفعل المحرم مع الجاهلين. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ . قلت: قوله تعالى: ﴿ بِجَهَـٰلَةٍ ﴾ ليس قيداً حالياً بل هو قيد لازم – أو قل: حال لازمة – فكل من يعصي جاهل وهذا إجماع الصحابة. قلت: فأطلق الجهل على المعصية وهي عمل.

وقال ﷺ: "فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل" بأن يعتدي على غيره بالقول أو بالفعل.

٢- الجِدّ: صدق العمل وبذل الجهد فيه وتخليصه من شوائب الفتور والتسويف. والعزم: صدق الإرادة واستجماعها. والله سبحانه أمر بتلقي أوامره بالجد والعزم. قال تعالى: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ....فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ .... ﴾.

٣- إن من أضر الأشياء على النفس صنيعها بالهموم والأحزان، كما يضيق بقلة الرزق وكما يضيق بأذى الآخرين فسواء كان الضيق من نفسك أو بسبب الآخرين ففر منه إلى سعة الثقة بالله عزوجل والتوكل عليه والوثوق بلطفه سبحانه وبره ومن أحسن كلام العامة: "لا هَمَّ مع الله". قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ قال الربيع بن خثيم: من كل ما ضاق على الناس وقال أبو العالية: من كل شدة. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ . وتأمل

كيف قال صاحب المنازل: "إلى السعة ثقةً ورجاءً"[١] فإن السعةالحقيقية وانشراح الصدر لا يكون إلا بالثقة بالله ورجاء ما عنده.

٤- وأما أبعد الفرار وأبلغه فهو ١- الفرار من الرسوم إلى الأصول. ٢- ومن الحظوظ إلى التجريد. ٣- قلت: ومن مخالطة الناس إلا من خير فإن ذلك أعز ما يكون.

١- الرسوم: ظاهر العبادة وهذا محله البدن. والأصول: روح العبادة وحقيقتها وهذا محله القلب فالزنادقة كالصوفية وغيرهم قالوا: دعوا الشريعة فالمراد هو الحقيقة فأرادوا الوصول إليها من غير طريق الرسول فإذا بهم وصلوا إلى الالحاد والانسلاخ من الدين ومما ساعدهم على ذلك أنهم رأوا أهل الشريعة لا يهتمون بحقائق العبادة والاعتناء بأعمال القلوب. والكل خطأ فهم ملحدون زنادقة لأنهم تركوا الشريعة وقالوا عنها أنشتغل بالوسيلة عن الغاية. والأخرون مقصّرون. والكُملّ هم الذين جعلوا حقائق العبادات هي الأصل واعتنوا بالعبادات لأنها لابد منها لصلاح القلب وتأمل هذه الأحاديث: "إلا إن من الجسد مضغة....." "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه" الصحيحة (٢٨٤١). "استووا ولا تختلفوا فتخلتف قلوبكم". وغير ذلك.

قلت: فعلى هذا ليس المراد بهذا الفرار هجر الرسوم وإنما المراد أن المقصود الأصلي هو الأصول وهي أعمال القلوب.

٢- ثم لا يكتمل له هذا الفرار إلا بالفرار من حظوظ نفسه إلى التجريد، وحظ النفس كل ما سوى مراد الله وهذا يحتاج علماً لمعرفته وتمييزه ليُجتنب. وصاحب التجريد لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه إلا بالله ولا يفرح بما حصل له دون الله ولا ييأس على ما فاته سوى الله، ولا يفرح إلا بموافقته مرضاة ربه ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله فكله بالله ولله ومع الله وإلى الله فهو لا يريد إلا من إذا حصل له حصل له كل شئ وإنما يأخذ من الدنيا حظاً يعينه على هذا الأمر فالحظ الذي يزاحم الأمر يتركه والحظ الذي يؤازر الأمر ينفّذه.

---

(١) الثقة: الائتمان فأنت واثق أنه سبحانه سيعطي ما وعد به.

الرجاء: الطلب. وهو لا يكون إلا من موثوق به.

١١- منزلة السَّماع.

السماع اسم مصدر كالنبات قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ﴾ أي انباتاً. فكذلك السماع بمعنى الاستماع وهناك فرق بين سمع واستمع الأول غير مقصود بخلاف الثاني.

٢- السماع أمر الله عزوجل به في كتابه وأثنى على أهله فقال في غير ما آية: ﴿ وَٱسۡمَعُواْ ﴾ وقال: ﴿ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ وفي الثناء قال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ .... ﴾ وقال: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ.... ﴾. وجعل سبحانه السماع منهم واسماعه لهم دليلاً على الخير فيهم وبهم فقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ....لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ وقال ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ ﴾ وأخبر سبحانه عن أعدائه أنهم هجروا السماع كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾.

٣- إن هذه المنزلة من الأهمية بمكان في زمان أعرض فيه المسلمون عن سماع ما ينفعهم وقد عُلم أن مفتاح الخير بالإنسان وللإنسان هو سماع ما ينفعه، بل استبدل أكثر المسلمين سماع ما ينفعهم بسماع ما يضرهم أشد الضرر وهم لا يشعرون. فالسماع هو رسول الإيمان إلى القلب وكم في القرآن من آية ﴿ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ .

٤- السماع هو أصل العقل وأساس الإيمان الذي يُبنى عليه وهو رائد الإيمان وجليسه ووزيره لكن الشأن كل الشأن في المسموع.

٥- حقيقة السماع ليست كما يظن الكثير أنها مجرد سماع الأذن بل حقيقته أكثر من هذا فهي ادراك بالأذن وفهم بالعقل ثم إجابة وقبول فصار السماع تحريكاً للقلب والجوارح لكن إلى أين؟ هذا الذي هو الشأن.

٦- أقسام الناس في آلة السماع. أ- م من يسمع بطبعه وهواه فمسموعه ما وافقه الهوى. ب- ومنهم من يسمع بإيمانه وعقله. ومنهم من يسمع بالله.

٧- لتحديد السماع المحمود والمذموم فلابد من معرفة. أ- المسموع وحقيقته. ب- سببه والباعث عليه. جـ- ثمرة السماع وغايته.

٨- المسموع. ١- مسموع يحبه الله ويرضاه ويأمر به ويُثني على أهله. ٢- مسموع يبغضه ويكرهه وينهى عنه ويمدح المعرضين عنه. ٣- مسموع مباح لا يحل تحريمه ولا ادّعاء أنه قربة.

١- هذا القسم هو أساس الإيمان ويذم من تركه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ هو سماع الوحي. وهذا القسم ثلاثة أنواع. أ- سماع إدراك: بحاسة الأذن. ب- سماع فهم وعقل: بالقلب. جـ- سماع إجابة وقبول: بالقلب واللسان والجوارح.

أ- كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا ﴾ ففي هذه الآية اجتمعت الأنواع الثلاثة مرتبة. وكما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ ﴾. قلت: سمعوا فهموا واستجابوا والرابعة ودعوا غيرهم إلى مثل ما هم عليه والدعوة دليل على كمال الإجابة.

ب- وأما سماع الفهم فسبق وأيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ ﴾ فهذا السماع المنفي عن أهل الإعراض

والغفلة هو هذا النوع؛ سماع الفهم، وأما سماع الإدراك فهو حاصل هلم وقامت به عليهم الحجة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لأفهمهم لكن لا داعي لا فهامهم لأنهم لن يستجيبوا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

جـ- وأما سماع القبول والإجابة ففي قوله تعالى ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾. قلت: وكل نوع متأخر يشمل ما قبله يقيناً فمن أجاب فقد أدرك وفهم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ فهذا هو سماع المؤمنين ادراكاً وفهماً وإجابة وثمرات هذا النوع من السماع. أ- حادٍ للقلوب وسائق لها إلى ما ينفعها. ب- محرّك ومنادي ودليل وداعٍ لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً. جـ- لا تعدم من فائدة: (حجة – عبرة – تذكرة – دلالة – ترغيب – ترهيب – دواء – شفاء.....). د- الوصول إلى الله عزوجل.

٢- السماع المذموم: هو سماع الباطل واللغو ولهو الحديث. أما الباطل فكعصارة أهل البدع وزخمهم، لا تسمعه إلاى لرده وإبطاله والإعتبار به فإنه الضد يظهر حسنَه الضد كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني حباً له سمعي حديثَ سواكا

وأما اللغو ولهو الحديث فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾

قال محمد بن الحنفية: اللغو الغناء. وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ وهو الغناء(١).

قال ابن مسعود: "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل" قال ابن القيم: وهذه مقولة عالم بأثر الغناء. قلت: نعم زامعه لا يجتمع في قلبه Λحبة الغقاء ومϿبة القرآن وإذا لم يحب القرآن فـ□و منافق وترى أهل هذا السماع ثَقُل القōآن على قلوبهم وتبرّموا من القارئ إّا أطال في الصلاة وإذا استحيوا وسكتوا – أي لم يصيحوا بالقارئ – فإنهم لا ينتفعون بسماعه. وهϕنا يحسن أن نقول:

ثَقُل الكتـاب عليهـمُ لما رأوا   تقييـده بأوامـــرَ ونواهي
وعليهـمُ خف الغنــا لما رأوا   إطلاقه في اللهو دون مناهي
يافـــرقةً ما ضرَّ دينَ محمـــد   وجنـــى عليـه ومَلّه إلا هي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى   زجراً وتخويفاً بفعـل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن   شـهواتها ياويحهــا المتنـــاهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها   فلأجـل ذاك غدا عظيمَ الجاهِ

استدل هؤلاء(٢) على هذا السماع الماجن بخيالات وأوهام توهموها في أدلة الشارع وبزبالات الأفكار الردية.

قالوا: تستلذه النفوس وترتاح إليه. وقالوا: الطفل يسكن إلى الصوت الطيب والجمل يهون عليه تعب السفر بالحداء.

وقالوا: الصوت الطيب نعمة. (أليست الصورة الحسنة نعمة فهل يباح النظر إليها؟ وهذا مذهب الإباحية).

(١) وانظر أحاديث تحريم الغناء وآلات الطرب في رسالة الشيخ الألباني من ص ٣٦ ذكر الشيخ سبعة أحاديث السابع منها في سبب نزول آية سورة لقمان. وكذا انظر ص ١٤٢.

(٢) يعني الصوفية وغيرهم ممن أباح الغناء كابن حزم ومن تبعه كأبو زهرة والقرضاوي والغزالي والشعراوي وانظر نص سؤال شاب على الفطرة يسأل أبا زهرة وماذا كان الجواب/ تحريم آلات الطرب ص٥. ومحقق رسائل ابن حزم إحسان رشيد عباس ص١٤. انظر شبهاتهم في ذلك ص ١٠٦ وما بعدها.

وقالوا: وقد ذمّ الله الصوت الفظيع فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

وقالوا: قال الله في أهل الجنة: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ وهو السماع الطيب .

وقالوا: "ما أذن الله لشئ كأَذنه – أي كاستماعه – لبنى حسن الصوت بتغنى بالقرآن".

وقالوا: استمع النبي ﷺ لأبي موسى وهو يقرأ وأثنى عليه بحسن صوته وقال " لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود" وقال: " ليس منا من لم يتغن بالقرآن" وقال: " زينوا القرآن باصواتكم". وقال أحمد: يحسّنه بصوته ما اΓتطاع(١).
وقالوا: قصة الجاريتين(٢).

وقالوا: الإذن به في العُرس وقد سمع النبي ﷺ الحُداء وسمع الصحابة وهم يرتجزون يوم الخندق: نحن الذين بايعوا محمداً.... وسمع رَ،َز ابن رواōة يوم ـتح مكة وحدى به الحادي منصرفه من خيبر والله لولا الله ما اهتدينا ... واستنشد الأسود بن سريع قصائد يحمد بها ربه (قلت: في الأدب المفرد للبخاري) ودعا لحسان فقال: اللهم أيّده بروح القدس ما دام ينافح عن النبي ﷺ وقال له: "اهجُهم وروح القدس معك".
وقالوا: ابن عمر رخص فيه وعبدالله بن جعفر وأهل المدينة(١).

---

(١) وأنتم نقلتم هذا الاستحسان إلى صوت النسوان بالغناء المقرون بالمعازف وذكر القَدّ والنَّهد والخَصر ووصف العيون والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر بل لا نسبة بينهما في ذلك.

(٢) أُيستدل بهذه القصة على هذا الغناء المركب بهذه الهيئة الاجتماعية، وهما جاريتان صغيرتان عند امرأة صبيته في يوم عيد بأبيات عربية في وصف الشجاعة والحروب بل هذه القصة حجة عليهم لأن الصديق قال: مزمور الشيطان وأقره النبي ﷺ على هذا الفهم لكن بيّن له أنه مثل هذه الصورة في مثل هذا اليوم مُرخص فيها.

وقالوا: السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى محبوبه فإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة.

وقالوا: التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة والفم بالطعوم الطيبة فهل هذه اللذات حرام؟!!

قال الشيخ: والجواب عما أوردوه أن هذه حيدة عن المقصود وروغان عن محل النزاع. قلت: وأسجّل الردود عليهم بالقلم الآخر كل جواب أمام شبهته. ثم لينظر العاقل في مفسدة الشئ فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة فإنه يستحيل أن يبحيه الشارع وكيف يعقل أن يحرّم سبحانه رأس إبرة من الخمر لأنها تؤدي إلى السكر ثم يبيح ما هو أعظم من ذلك وهو "رقية الزنا" كما قال ابن مسعود فما عالج أحد الغناء إلا زنى وفسد وبغى.

٣- ثم انظر كيف أن الغناء يقطع القلب عن عبادتين من أعظم العبادات فان القلب له حالة حزن عند المصائب وحالة فرح عند النعمة فعند الأولى الصبر والرضا للأبرار والمقربين. وعند الثانية الشكر بدرجتين للأبرار والمقربين أيضاً فيحل محل هاتين النعمتين الندب والنياحة عند الفوات واللهو والغناء عند الوجود وهذان لا ينفكان عن المعرض عن السماع القرآني وهذا معلوم من حالهم جزع عند المصيبة ودعاء بالويل وفرح وأشر ولهو عند النعمة. ولذا قال ﷺ: "صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة ورنة عند مصيبة"/ الصحيحة (٤٢٧) ومنافاة النَّوح للصبر والغناء للشكر أمر معلوم بالضرورة من الدين فإن الشكر هو الاشتغال بالطاعة لا بالصوت الأحمق وكذلك النّوح ضد الصبر.

٤- ثم ليعلم أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير قال الشيخ: والذي شاهدناه وعرفناه بالجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم

---

(١) هذا لا يصح بل صح عن مالك أنه قال: "إنما يفعله عندنا الفُسّاق" وكذا قال إبراهيم بن المنذر وهو مدني/ تحريم آلات الطرب ص١٠٠ ثم انظر الرد على هذه النسبة إلى عبدالله بن جعفر/ تحريم آلات الطرب ص ١٠١-١٠٤. وليُقرأ من هناك ثم كيف يُحشر ابن عمر في زمرة المبيحين وهو راوي حديث ص ١١٦ آلات الطرب.

وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلّط الله عليهم العدو وبُلوا بالقحط والجدب وولاة السوء. نسأل الله العافية والمخرج من دار المعصية.

وعلاج من ابتلى بالغناء أن يُنقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة مع تدبر معانيه حتى ينخلع قلبه عن سماع الغناء فحينئذ سيعلم أنه لم يكون على شئ وكنت أرى أنه قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما فوقها ليَ مطلبُ فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب.

١٢- منزلة الخوف.

١- من أَجَلِّ المنازل وأنفعها للقلب.

٢- وهذه المنزلة فرض على كل أحد قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾.

٣- وقد مدح الله أهل هذه المنزلة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) ﴾ وحيدث عائشة في ذلك عند (حم ت) وهو في "الصحيحة" (١٦٢) Tالت: يا رسول اللq أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر قاU: لا يا بنت الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه".

قال الحسن: عملوا والله بâلطاعات واجتهدوا فيها وخافوâ أن تُرد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية والمنافق جمع إساءة وأمناً.

وقال الألباني في/ الصحيحة (١٦٢) ما خلاصته: والسر في هذا الخوف هو أنهم يخافون أن لا يكونوا قاموا بالأمر كما ينبغي وفي هذا حث على مراقبة العمل بالاخلاص والاتباع. وذكر الشيخ أن شيخ الإسلام ابن تيمية نبّه على مثل هذا.

٤- هناك ألفاظ يقرب معناها من معنى الخوف ولكنها غير مترادفة قلت: يندر أن تجد في اللغة ترادف. ولنذكر هذه الألفاظ.

١- الخوف: قلت: منهم من يذكر سببه ومنهم من يذكر أثره والتحقيق أنه حالة قلبية يضطرب فيها القلب ويتحرك توقعاً لحصول مكروه فيترتب على ذلك حركة لدفعه وهرباً منه.

٢- الخشية: خوف بسبب العلم. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فحصر الخشية فيهم وقال ﷺ: "إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية" خ م. وفي الصحيحة (٨٥٢): "أطت السماء..." فالخوف حركة والخشية أنقباض وسكون.

٣- الرهبة: فقال الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز (١٠٠/٣)ك خوف مع تحرّز واضطراب كما قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قلت: ليسكن قلبه بوضع اليد عليه وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي طلبوا ما تحصل به الرهبة لهم. ورهب من باب عَلِم: رهْباً ورهَباً ورُهباً ورهبة ورَهَبَاناً. واعلم أنه المترتب على الرهبة الامعان في الهرب. فالرهب يؤدي إلى الهرب.

٤- الوجل: رَجَفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه أو لرؤيته كما في الآية: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾.

٥- الهيبة: خوف يقارن التعظيم والإجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. كما كانت على رسول الله ﷺ هيبة ومن يهابه عن محبة ومعرفة وإجلال وتعظيم. وكما يقال: وكان مالك ألقيت عليه المهابة ونحو ذلك مما هو مأثور عنهم.

٦- الإجلال: تعظيم مقرون الحب.

فإذن:

الخوف	الخشية	الهيبة	الإجلال
لعامة المؤمنين	للعلماء	للمحبين	للمقربين

٥- الخوف سوط اله يقوّم به الشاردين عن بابه.

٦- الخوف سراج في القلب به يبصر الخير والشر.

٧- كل أحد إذا خفته هربت منه إلا اللم عزجل فإذا خفته هربت إليه.

٨، قالوا: ما فارق الخوف قلبي إلا خَرِب – إذا سكن الخوف القلوب أحōق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها. – الناس على الطريق مåلم يِسُل الخوف عنهم فإذا زال عنهم ضلوا ال3ريق.

٩- الخوف ليس مɀصوداً لذاته بل لغيره ولهذا يزول عن أهل الجنة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ قلت: بخلاف المحبة فهي باقية بين الله وأوليائه.

١٠- الخوف يتعلق بأفعال الله عزوجل والمحبة تتعلق بالذات والصفات فأنت تحب الذات والصفات وتخاف من عقاب الله عزوجل وهو فعل له سبحانه وتعالى، والمحبة تبقى في الجنة كما سبق ولهذا كانت منزلة المحبة أعلى وأرفع من منزلة الخوف.

١١- الخوف المحمود ما حجز عن محارم الله عزوجل بحيث لا يزيد عن حده وإلا صار يأساً وقنوطاً.

١٢- الخوف عند صاحب المنازل: "هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر". قلت: هذا من أثر الخوف وليس هو الخوف. فتنخلع من سكون الأمن وذلك بالعلم بالوعد والوعيد ومطالعته.

١٣- أول الخوف هو الخوف من العقوبة ولا بد منه لصحة الإيمان وهو يتولد من أ- تصديق الوعيد. ب- ذكر الجناية. جـ- مراقبة العاقبة: "الجنة أم النار".

قلت: وأعلى من ذلك: الخوف من أن يفوتك النعيم العالي والدرجات العاليات في الغرفات. ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وحديث: "إن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف كما تتراءون الكواكب الدرىّ الغابر في السماء" متفق عليه وفي ص.ج "إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعِما"./ ص.ج (٢٠٣٠).

وفي ص.ت "في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها" فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: "لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام".

١٤- الخوف مستوق بالشعور والعلم ولابد لأنه محال أن يخاف الإنسان مما لا شعور له به. ثم له متعلّقان – نفس المخوف. – والطريق إليه. كالخوف من النار ومن الطريق إليها. ولابد منهما. وهذا هو الذي قاله صاحب المنازل: تصديق الوعيد: فهذا هو المخوف وذكر الجناية: وهذا هو السبب.

١٥- ومن أنواع الخوف المحمود: الخوف من مكر الله عزوجل وأن تنقلب عليك الأمور وذلك مدة العمر كلها – أي مدة جريان الأنفاس – كما في الحديث: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة.... " الحديث فكم من مغبوطٍ بحال (أي حال رضا مع الله عزوجل) انعكس علهي الحال ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال. بينما بَدْرُ أحواله مستنير في ليالي التمام أصابه الكسوف، نسأل الله العافية. ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول: "يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك...." وكان أكثر قسم رسول الله ﷺ: "لا ومقلب القلوب".

١٦- القلب في سيره على الله عزوجل كالطائر. لكن استحب السلف في حال الصحة غلبة الخوف وعند الخروج من الدنيا حالة الرجاء وقال آخرون: بل اعتدال الرجاء والخوف وغلبة المحبة، فالمحبة مركَب والرجاء حادٍ والخوف سائق. والله المستعان والموصِل بمنه وكرمه.

١٣- منزلة الاشفاق.

١- قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ ﴾.

٢- الإشفاق لغةً من أشفق فهو مشفق ولا يُقال شَفِق إلا نادراً. وهذا أصل يدل على رقة في الشئ تقول: أشفقت من الأمر إذا رقَقْت وحاذرت. ومنه الشّفقه لرقته. وهو: رقة الخوف، خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه فهو بالنسبة إلى الخوف كالرأفة إلى الرحمة فكما أن الرأفة ألطف الرحمة وأرقها فكذلك الاشفاق ألطف الخوف وأرقه.

٣- بداية الاشفاق: اشفاق على النفس. أ- أن تجمح إلى العناد. ب- أو تسرع إلى طريق الهوى والعصيان.

واشفاق على العمل: أ- أن يضيع الآن بالرياء والمخالفة. ب- أو أن يصير إلى الضياع في المستقبل جـ- إما بتركه. د- أو بما يحبطه.

أ- ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي .... ﴾ ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾
"اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها".

ب- ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ ﴾.

جـ- حديث "لا تكن مثل فلان كان يقيم الليل فترك قيام الليل"/ متفق عليه.

د- ما رواه البخاري عن عمر لما سأل جلساءه عن قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ .... ﴾ وأجاب ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل: لرجل غني يعمل بطاعة الله فبعث إليه الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق جميع أعماله"/خ (٤٥٣٨).

٤- أوسط الاشفاق: اشفاق على الوقت الذي هو فرصة عمره إما يحصّل فيه الجنة أو الأخرى التي لا شاءها الله لنا.

- فيُشفق مما يفرّقه عن الحضور مع الله.

- ويشفق على القب من مزاحمة العوارض. أ- فترة: ضعف. ب- شبهة. جـ- شهوة.

٥- نهاية الاشفاق: اشفاق: أ- يصون سعيه عن العُجب. ب- ويكفُّ عن مخاصمة الخَلْق. جـ- ويحمل صاحب الارداة على حفظ الجد.

أ- مُفسد للعسي كالرياء.
ب- مُفسد للخُلُق. (نعم والله لكن هناك مخاصمة لابد منها وهي مخاصمة أهل الباطل قولاً وفعلاً فإن هذا مما يزيد الإيمان ويجلب محبة الرحمن فإنه سبحانه يحب عبده الغيور على دينه.

جـ- باجتناب الهزْل واللعب لأنه يفسد الإرادة فإذا صح عمله وخُلُقه وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحالُه.

١٤- منزلة الخشوع.

١- **الخشوع لغة**: خشع أصل يدل على التطامن يقال خشع: إذا تطامن وطاطأ رأسه وهو قريب المعنى من الخضوع غلا أن الخضوع في البدن والاقرار بالاستخذاء (المستأخذ: المطأطئ رأسه من وجع والمستكين الخاضع). والخشوع في الصوت والبصر كما قال تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ والخُشعة من الأرض: قطعة غلبت عليها السهولة

قال الخليل: خَشَع سنام البعير: إذا ذهب إلا أقله./ انظر معجم المقاييس. وفي بصائر ذوي التمييز (٥٤١/٢): والخشوع: السكون والتذلل والضراعة والسكوت. وقيل: أكثر ما يُستعمل في الجوارح والضراعة أكثر ما يُستعمل في القلب قالوا: إذا ضرع القلب خشع الجوارح. قلت: يُروى أن عمر رأى رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب". قلت: وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أن للقلب خشوعاً. فالحاصل أن الخشوع يكون في القلب والجوارح وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره.

قال ابن القيم: الخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون قلت: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً .... ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ....﴾ فكانت منخفضة ساكنة فصارت تهتز وربت أي ارتفعت بالنبات الذي نبت فيها فما أحسن هذا في بيان الخشوع. وانظر بقية كلام الفيروز آبادي في الموضع المذكور وهو مأخوذ من كلام ابن القيم.

٢- تحقيق أحاديث وآثار في الخشوع: من ذلك: قول ابن مسعود: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين/ رواه مسلم (٣٠٢٧). ومنها: قول ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن" إسناده ضعيف لضعف صالح المري وللانقطاع بين قتادة وابن عباس وانظر ابن كثير.

ومنها: م (٢٥٦٤) عن أبي هريرة مرفوعاً: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا.... التقوى ههنا" ويشير إلى صدوره ثلاث مرات – "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم...." وفي رواية: "إن الله لا ينظر

إلى صوركم وأجسامكم...). قال النووي: ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب وهو من نحو قوله ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة...." أ.هـ.

ومنها: ما يُروى أن ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"/حديث موضوع/ الضعيفة (١١٠) رواه الحكيم الترمذي عن أبي هريرة. لكن ذكر الشيخ أن هذا الكلام جاء بإسناد جيد عن سعيد بن جبير رواه أحمد بإسناده إليه في مسائل ابن صالح وكذا ذكر العراقي أن هذا معروف عن ابن المسيّب.

ومنها: أثر حذيفة: "إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع".

ومنها: أثر عمر المتقدم.

ومنها: "أول ما يُرفع من الناس الخشوع" ص.ج(٢٥٧٦).

ومنها: أثر عائشة أنها رأت شباناً يمشون ويتماوتون في مشيتهم فقالت: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسّاك، فقالت: "كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع وإذا أطعم أشبع وكان هو الناسك حقاً". قلت: ما أظن هذا يصح، والنسبة إلى النبي ﷺ أولى فقد قال ﷺ: "نُهينا عن التكلف" وقال الله عزوجل له: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾. وكان ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب"/ صحيح الشمائل (٤).

ومنها قول الفضيل: كان يُكره أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

٣- كلمات في تعريف الخشوع:

- قالوا: هو قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه.
- وقالوا: هو الانقياد للحق. قلت: هذا من موجَبات الخشوع ولوازمه وعلاماته.
- وقالوا: هو خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدور وإشراق نور التعظيم في القلب.
- وقال الجنيد: هو تذلل القلب لعلاّم الغيوب.

قلت: الخشوع حالة قلبية ومنحة ربانية توجب الاستسلام ظاهراً وباطناً وعدم التكبر.

٤- وجماع الخشوع. ١- التذلل للأمر. ٢- والاستسلام للحكم. ٣- والاتضاع لنظر الحق.

١- وذلك يحصل بأمور. أ- تلقيه بالقبول والانقياد والامتثال مع الذل. ب- مواطأة الظاهر الباطن مع إظهار الضعف. جـ- الافتقار إلى الهداية إليه قبل وحال وبعد الفعل فيزداد له قبولاً.

٢- وذلك بعدم معارضته برأي ولا شهوة.

٣- وذلك لإطلاعه سبحانه على تفاصيل ما في القلب ونظره سبحانه وتعالى إلى العبد كما في الحديث: "....... ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". فينكسر العبد ويتضع ولا ينخفض ولا يرفع رأساً على ربه بل يرفع رأساً بربّه سبحانه. قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية. وهذا يوجب للعبد خشوع القلب لا محالة وكلما كان أشد استحضاراً له، كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق الخشوع القلب إذا غفل عن هذا الاستحضار. وفي الآية قول آخر هو: مقام العبد بين يديّ الرب يوم القيام. قلت: والمعنيان مقبولان لا يتنافيان لأن الأول في الدنيا والثاني في الآخرة.

٥- نمو الخشوع: ١- ترقب آفات النفس والعمل. ٢- رؤية فضل كل ذي فضل عليك.

١- يوجب لك الخشوع لأنك ترى نفسك ناقصاً فإذن لماذا العُجب والكبر، وترى عملك لا يليق بأن تقدمه لله عزوجل.

٢- ولا ترى لنفسك فضلاً على أحد، فتؤدي ما عليك من حقوق وما لك لا تجعله معارضاً لذلك فتقول: عملت له كذا وكذا ولم يعمل لي شيئاً فلا تتعامل بالمعارضة. يقول شيخ الإسلام: العارف لا يرى له على أحد حقاً ولا يشهد له على غيره فضلا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب.

٦- كمال الخشوع: ١- بتصفية الوقت من مراءاة الخلق. ٢- وتجريد رؤية الفضل.

١- لا تُظهر للناس خشوعك فيُعجبك اطلاعهم عليه فيفسد عليك الوقت والقلب والحال. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالكٍ والمعصوم من عصم اللهُ تعالى. أتدّعى الشرف في الإسلام وهو لم يصح لك بعدُ! فَسرَ نفسك لا شئ، يقول شيخ الإسلام مالي شئ ولا مني شئ ولا فيّ شئ. وكان إذا أثنى عليه إنسان قال: والله إني إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً. قال ابن القيم: وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطّه من نظمه:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المُسيكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلبَ منفعة ... ولا عن النفس لي دفعُ المضرات

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لا زمٌ أبداً ... كما الغنى أبداً وصفٌ له ذاتي

وهذه الحال حالُ الخلق أجمعِهم ... وكلُّهم عنده عبدٌ له آتي.

٢- إذا جرّدت أن الفضل كله لله عزوجل كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ فكل ما أنت فيه من خير وفضل فالله عزوجل هو معطيه ومانحه فهل يوجب الخشوع أعظم من استحضار مثل هذا: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ . ويدخل في المنة ما زُوى عنك من الدنيا وما أصابك فيها من سوء قال بعضهم: يا

ابن آدم لا تدري أيَّ النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زُوى عنك؟

وقال عمر: "لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنى إنّ فيه للشكر، وإن كان الفقر إن فيه للصبر".

وقال آخر: "نعمتُه فيما رَوَى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بَسَط لي منها، إني رأيته أعطاها قوماً فاغتروا".

١٥- منزلة الإخبات.

١- الخَبْت في اللغة: المكان المنخفضه من الأرض. قلت: فهو كالخُشعة ولذا فُسّر الإخبات بالخشوع. قلت: هذا من باب التشابه في الشئ المشترك ولكل حقيقة تخصه وأقوال المفسرين في الاخبات تدور على معنيين أ- التواضع (هذا مشترك مع الخشوع). ب- السكون إلى الله والطمأنينة به سبحانه. (هذا مستفاد من الخبت وحده).

ومما يدل على المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ أي اطمأنوا إليه سبحانه، فتعدية الفعل بإلى تضمن معنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله عزوجل فاللهم إني أسألك بمنك وكرمك ياذا الفضل العظيم، ياذا الجلال والإكرام أن تمن علَيّ بذلك فإنه لا راحة إلا في ذلك.

٢- ومن لوازم الاخبات وآثاره وعلاماته ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فآثار الإخبات باطنة وظاهرة.

٣- الاخبات هو أول مقامات الطمأنينة ومقدمتها ومن مقامات الطمأنينة: اليقين والسكينة والثقة بالله ونحوها.

٤- من أعظم ثمارت الاخبات الأمن من التردد والرجوع كمسافر على طريق شرب من ماء عذب فرواه فزال عنه خاطر التردد في إتمام سفره.

- **الاخبات على ثلاث درجات:** هذه الدرجات هي علامات الاخبات وآثاره. وذلك أن الاخبات ونحوه من الخفيات فتعرف بآثارها وكلما كانت الآثار أرقى كان الموجب لها أرقى فعُلمت درجات الاخبات بمعرفة درجات الآثار الناشئة عنه.

الأولى: أ- أن تستغرق العصمة الشهوة. ب- وتستدرك الارادة الغفلة. جـ- ويستهوى الطلب السلوة.

أ- لا يكون حفظه نفسه وحمايتها عن الشهوات قاصراً بل تستغرق هذه الحماية الشهوة فتغلبها وتقهرها.

ب- وتكون ارادته بدرجة تستدرك غفلته فكلما غفل استدركت ارادته هذه الغفلة وعوّض ما فرّط.

جـ- هو طالب للكرامة فيبلغ طلبه هذا درجةً تجعل سلوته تهوي وتسقط كل هذا لأن المريد تعرض له الشهوة والغفلة والسلوة فلابد من مقاومات لها بالعصمة والارادة والطلب.

الثانية: أ- أن لا يوحش قلبه عارض. ب- ولا يقطع عليه الطريق فتنة.

أ- عند السير ربما استوحش القلب لعارض كالتفرد في السير الذي هو أقوى العوارض فالواجب أن لا تستوحش بقلة السالكين، والتفرد دليل على صدق الطلب. قلت: والسلفية طريق قلّ سالكوه جداً في زماننا، وكثير من الناس سار عليه ثم انقطع نسأل الله الثبات.

ب- علاوة على العارض الموحش قد توجد فتنة، بل لابد من فتنة كما قال تعالى:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ ﴾ لكن لا تقطعك هذه الفتنة، ومن أعظم ما ينفع في هذا مطالعة الأسماء والصفات.

الثالثة: أ- أن يستوي عنده المدح والذم. ب- وتدوم لائمته لنفسه.

أ- الوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخُلّوه من الله وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه. فإذن إذا مدحوك أو ذمّوك فالأمر عندك سواء.

ب- تدوم لائمته لنفسه لأن ما بها من أوصاف مذمومة من الأخلاق والأفعال: سواء كان كسبياً أو خَلْقياً؛ كثير كثير وقد أقسم تعالى بالنفس اللوّامة التي تلوم صاحبها على قبيح المقال والفعال، وتلوم على التقصير في فعل الخير.

قال الحسن: هي النفس المؤمنة، لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا وأما الفاجر يمضي قُدُما ولا يعاتب نفسه. المهم أن النفس كالجبل الوعر ولابد من صعوده ومجاوزته وسبيل ذلك هو الاخبات وغيره

من المقامات التي جعلها الله سبباً لاقتحام العقبة قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾.

١٦- منزلة الزهد.

١- **القرآن مملوء بالآيات** التي تحض على الذهد في الدنيا والترغيب في الآخرة وذلك أن الدنيا مهما بلغ نعيمها فهو زائل، والزائل لا شئ إلى جانب الباقي. والمتأمل في هذه الآيات يرى المقابلة المطردة فيها بين الدنيا والآخرة.

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ .... ﴾

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ .... ﴾

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ....وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ .... وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ....وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

ثم هناك آيات فيها أن الدنيا منقضية فخاب وخسر من جعلها غايته ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ ﴾ ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

٢- **لكن ما هو الزهد لغة؟** يبين هذا قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ فالزهد هو الانصراف عن الشئ احتقاراً له وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه.

٣- وأما في كلام العارفين والعلماء فاختلفت عباراتهم في ذلك ونختار من ذلك هذه العبارات:

- شيخ الإسلام ابن تيمية: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة./قال ابن القيم: هذا من أحسن ما قيل في الزهد والورع.

- الثوري: الزهد قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لُبس العَباء.
- الجنيد: خلو القلب عما خلت من اليد. قلت: بل عما في اليد.
- أبو سليمان الداراني: ترك ما يَشْغَلُ عن الله.

- الإمام أحمد: الزهد على ثلاثة أوجه: **الأول**: ترك الحرام وهو زهد العوام. **والثاني**: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. **والثالث**: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. قال ابن القيم: ألف الإمام أحمد في الزهد وشهد له الشافعي بثمانية أشياء منها الزهد.

- ابن القيم: الذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منال الآخرة وعلى هذا صنّف المتقدمون كتب الزهد كابن المبارك واحمد ووكيع وهنّاد بن السَّري وغيرهم.

٤ـ متعلّق الزهد ستة أشياء: وهي الأشياء التي لا يسمى زاهداً حتى يزهد فيها جميعاً وهي: المال، الصور ، الرياسة ، الناس ، النفس ، كل ما دون الله.

وليس المراد رفعضها، فداود وسليمان من أزهد الناس على ما كانا فيه من الملك، والنبي ﷺ أزهد الناس على ما كان عنده من تسع نسوة، وعبدالرحمن بن عوف وعثمان على ما كان عندهما من المال، والحسن بن علي مع كثرة نكاحه وحبه للنساء، وكذا عبدالله بن المبارك، والليث من أئمة الزهاد وكان يقول عن ماله: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء. قلت: أي لصار كالمنديل في أيديهم، فبالمال يشرف الإنسان عن الناس وهذا لا ينافي الزهد.

ولذا قال الحسن: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن أن تكون بما فيد الله أوثق منك بما في يدك وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها لو مل تصبك. وصح عن حذيفة أنه قال: خياركم من لم يرفض آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته/ الزهد للمعافي رقم (١٥٧).

٥ـ هل الزهد ممكن في هذه الأزمنة التي ندر فيها الحلال؟ قال أبو حفص ويوسف بن أسباط: الحلا المحض الآن لا يوجد فيكف يكون الرجل زاهداً وهو لا يأكل الحلال الخالص فإن الزهد لايكون إلا في الحلا المحض. قيل لهم: هذه الحال أدعى للزهد والورع والتحرز.

٦ـ هل الزهد ترك الحلال أو ترك الحرام؟ طائفة قالت: الزهد في الحلال وأما ترك الحرام فهو فريضة وطائفة قالت: الزهد هو في ترك الحرام وأما الحلال فيُستعان به على شكر نعمته سبحانه وتعالى بفعل الطاعات.

والتحقيق: أن النعمة إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل وإن لم تشغله وكان شاكراً فيها فحاله أفضل والزهد تجريد القلب عن التعلق بها والطمأنينة إليها.

٧ـ الزهد على ثلاث درجات:

الأولى: أ- الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة. ب- الأنفة من المنقصة. جـ- كراهة مشاركة الفساق.

أ- حديث النعمان. وقد بوّب به البخاري في كتاب البيوع بثلاثة أبواب ما أحسن تناسقها وتدرجها ومناسبتها.

ب- تخاف أن تكون ناقصاً عند ربك وأن تسقط من عينه جل وعلا. نعم تأنف أن تكون ناقصاً عند الناس أيضاً لكن حذار أن تخشى المنقصة عند الناس ولا تخشاها عن الله عزوجل.

جـ- شركة ما أخسّها أن تشارك الفساق في الدنيا. قيل لأحدهم ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها. وتجتنب الأُسود ورود ماء إذا كان الكلاب يَلَغن فيه. لكن لا يكون هذا هو الباعث على الزهد وحده وإلا لوصفت له ركبها.

الثانية: أ- اغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت. ب- حسم الجأش.

أ- الدرجة الأولى خوفاً من المعتبة وحذراً من المنقصة وأما هذه الدرجة فهي أعلى لأنه يغتنم الوقت فيما يقربه إلى الله عزوجل، وعمارة الوقت ليست مقصورة على العبادات بل وتشمل ما كان من سبل هذه العبادات من الطعام والشراب والنكاح فإنه متى أخذ هذه بنية القوة على ما يحبه الله وجد لها لذة فليست عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات. ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به واستجمعت قواها وزال تشتتها.

ب- يقطع اضطراب قلبه لأجل تعلقه بالدنيا ولا يصح الزهد إلا بقطع هذا الاضطراب، فإن الزهد زهد القلب لا زهد اليد.

الثالثة (الزهد في الزهد): أ- استحقار ما زهدت فيه. ب- استواء الحالات فيه عندك. جـ- الذهاب عن شهود الاكتساب.

أ- ما تركته من الدنيا لله عزوجل لا ترى أنه قربان لأن الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

ب- ما زهذت فيه ترى أن تركه وأخذه سواء لأنه ليس له قَدْر فتكون زاهداً في حال الترك وزاهداً في حال الأخذ.

جـ- معناه أن تشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع وأما اكتسابك بأن تركت كذا أو أخذت كذا فهو سبحانه الذي جعلك تأخذ وتترك. وهو الذي جعلك زاهداً. فإذن تزهد في زهدك بأن تجعل الأمر كله لله.

- قراءة المقدمة التي قدّم بها حبيب الرحمن الأعظمي لتحقيق كتاب الزهد لابن المبارك فإنها نافعة جداً وفيها:

١- من القطعيات أن الدار الآخرة هي الحيوان (الحياة الحقيقية) وأما الدنيا فما هي إلا متاع (والمتاع يفنى) ومع ذلك فهي فتنة يفتتن بها الإنسان ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ويذهل عن الآخرة وذلك لما في طبعه من حب الشهوات ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ..... ..... ﴾.

٢- ولذا كان من حكمة الله عزوجل إرسال الرسل لتذكير الناس بالآخرة والعمل لها والتخذير من فتنة الدنيا، والمتأمل في القرآن يرى ذلك.

٣- ما معنى الزهد في الدنيا؟ ليس هو الإعراض عن المطاعم والمشارب والمناكح والملابس فإن ذلك لابد منه لعلف البدن حتى يواصل السير إلى الله عزوجل والناقة لا تسير إلا بتناول ما يصلحها. فإذن لا إهمال ولا استرسال بل الطريقه الوسطى في ذلك أن يأخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من ال.اد للسلوك.

والمثال الأعظم في ذلك النبي ﷺ وأصحابه فلم يكن منهم افراط في تناول الدنيا ولا تفريط في حقوق النفس. وأنظر دوماً أن يكون حظك من الدنيا في حفظك لا لمجرد الشهوة الغير متعلقة بمصالح. فلا تترك الدنيا بالكلية ولا تقمع الشهوات بالكلية.

٤- قد يظن جهلة أن الزهد ليس من مقاصد الإسلام ولا مما حث عليه الكتاب والسنة بل هو من مخترعات الصوفية. وهذا ظن جاهل فإن الله تعالى قال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ......... ﴾ وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا .... ﴾.

وفي الحديث: "مالي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها"/ رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعود "والضياء" وغيره عن ابن عباس الصحيحة (٤٣٨)، (٤٣٩).

٥- عند ابن القيم "في طريق الهجرتين" ص٤٥٢-٤٥٣ قال: النقض في الزهد يكون من أحد وجوه:

١- أن يزهد فيما ينفعه منها ويكون قوة له على سيره ومعونة له على سفره فذا نقص فإن حقيقة الزهد هي أن تزهد فيما لا ينفعك والورع أن تتجنب ما قد يضرك.

٢- أن يكون زهده مشوباً إما بنوع عجز أو ملالة أو سآمة أو بتأذيه بها وبأهلها ونحو هذا من المزهدات فيها كما قيل لبعضهم: ما الذي أوجب زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، فهذا زهد ناقص لأنه لو صفت له الدنيا من تلك العوارض لم يزهد فيها بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة ورغبته في الله وقُربه.

٣- أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنى عنه بما زهد لأجله، فالزهد كله أن تزهد في رؤية زهدك وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة، وألا تقف عند زهدك فتنقطع بل أعرض عنه جاداً في سيرك غير ملتفت إليه مستصغراً لحالك بالنسبة إلى مطلوبك. واعلم أن هذا مطلوب في كل مقامات العبودية.

٦- وعند فيها ص ٤٥٣-٤٥٨: الزهد على أربعة أقسام – ولم يذكر الشيخ القسم الرابع:

١- زهد فرض: هو الزهد في الحرام، الحرام لعينه والحرام لذاته.
٢- زهد مستحب: هو الزهد في المكروه وفضول المباحات.
٣- زهد السائرين: أ- الزهد في الدنيا جملةً. ب- الزهد في نفسك.
٤- لعله الزهد في الزهد أو يكون زهد السائرين قسمين.

أ- الزهد في الدنيا: ليس المراد تخليها جملة والقعود صفر اليدين وإنما المراد اخراجها من قلبه بالكلية فلا يلتفت إلهيا ولا يدعها تسكن قلبه وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك وإنما أن تتركها من قلبك وهي في ديك. وهذه الحال هي حال السادة من الأنبياء وأتباعهم ويدل على ذلك اخبار الله عزوجل عنهم في كتابه وما نقل من أحوالهم في غير كتابه سبحانه، تأمل حال داود على ما آتاه الله من الملك؛ حاله من القيام بعبادة ربه عزوجل تدل على زهده والله لو لم يكن زاهداً وكان متعلقاً بملكه لما كانت هذه حاله ولما أثنى عليه ربه علام الغيوب.

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء (وهي تسهّل عليه الزهد فيها):

أ١- علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر كما قال تعالى: - ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا .... ﴾ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .... ﴾ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا .... ﴾.

- وسمّاها سبحانه متاع الغرور وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها وحذرنا من ذلك.

- وقال صلى الله عليه وسلم: "مالي والدنيا ......" الصحيحة (٤٣٨) (٤٣٩).

- وجعل الله طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا/ الصحيحة (٣٨٢).

أ٢- علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجلّ خطراً وهي دار البقاء وأن نسبتها إليها كما قال صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في البحر....."/ م(٢٨٥٨) وحديث: "لو كانت الدنيا تعدل...."

أ٣- معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كُتب له منها وأن حرصه عليها لا يجلب له شيئاً لم يُقض له منها.

ب١- الزهد في نفسك: جميع أنواع الزهد السابقة هنية (الزهد في الحرام والزهد في المكروه والمباح والزهد في الدنيا) وذلك لمعرفته بعواقب مقارفة المزهود فيه وأما النفس فالزهد فيها هو ذبحها بغير سكين وهذا الذبح هو عين حياتها وهو نوعان:

ب٢- وسيلة وبداية لا تغضب لها ولا تنتقم ولا ترضى لها ولا تنتصر ولا تجبها إذا دعتك ولا تكرمها إذا عصتك وهي عندك أخسّ مما قيل فيها إن فعلت ذلك تخلصت من آخر عقبة وأشرفتَ على منازل المقربين وانحدرت إلى وادي البقاء وشربت من عين الحياة وتخلصت روحك من سجون الشهوات وتعلقت بالرب المعبود الإله الحق فيا قرة عينها به ويا نعيمها وسرورها بقربه ويا بهجتها بالخلاص من عدوها. وهذا الزهد هو أول نقدة من مهر الحب فيا مفلسُ تأخرَّه.

ب٣ـ غاية وكمال بعد الوصول إلى المحبوب بتحقيق الوسيلة والبداية المذكورة في ب١، تبذل هذه النفس المزهود فيها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقي منها شيئاً، تخرج عنها وتسلّمها لربك. وجميع مراتب الزهد المتقدمة وسائل لهذه المرتبة. ومن ضيع الأصول حُرم الوصول.

ـ قال ابن القيم هذا الكلام كله رداً على من قال: الزهد من منازل العوام وهو نقص في طريق الخاصة قال ابن القيم: وهل الكمال إلا في الزهد وما النقص إلا في نقصانه.

– متعلقات الزهد:

١ـ **في المطعم:** خذ منه ما يقوم به البدن. حديث: "إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين"/ الصحيحة (٣٥٣) وأوله: "إياي والتنعم فإن....." وقالت عائشة لعروة: "كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة فعلى أي شئ كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء" وغير ذلك من الأحاديث.

٢ـ **الملبس:** لا بأس أن يتجمل بقدر الحاجة فإن التقشف يخرجه إلى الشهرة. والله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

٣ـ **المسكن:** يقتصر فيه على ما يؤويه من الحر والبرد. وقال ﷺ: "إن الرجل يُجر في نفقته كلها إلا التراب"/ الصحيحة (٢٨٣١) وقد رواه البخاري.وفيها (٢٨٣٠): "إما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا إلا مالا. يعني ما لابد منه" وفي صحيح مسلم: "فراش للرجل وفراش لامرأته وفراش للضيف والرابع للشيطان".

٤ـ **أثاث البيت:** كان ﷺ يضطجع على الحصير ويؤثر في جنبه ولما دخل عمر عليه في الغرفة قال: ما رأيت شيئاً يرد البصر/خ م.

وتأمل كيف هنا قلت: كان ﷺ إلخ وهذا الذي مشى عليه من صنّف في الزهد أنهم يذكرون كيف كانت حياة السادة الأكابر في دين الله عزوجل من أجل أن نزهد فيما زهدوا فيه.

٥- **المنكح: قال الداراني:** كل ما شغلك عن الله من أهل وولد فهو مشؤوم، وليس الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح وإنما المذموم التعلق: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ وقال ﷺ: "حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء" ولكن "وجعلت قرة عيني في الصلاة".

قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد المِرْط فتمرُط دينه.

٦- **المال:** يمكن أن يكون تاجراً زاهداً لأنه قصد النفع كما تقدم عن الليث: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء. وكذا انظر حال ابن المبارك (الذي ألف في الزهد) كيف كان حاله في جمع المال ويقول للمحدثين الفقراء: لولا أنت وأصحابك ما اتّجرت.

٧- **الجاه:** اشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلوب فليحذر أن يكون أراد بزهده الجاه. قلت: وهو الذي سمّاه ابن القيم: الزهد في الزهد.

- وعند القرطبي في قمع الحرص ص ١٠٦ قال: فيما يحمل على التقلل من الدنيا والزهد فيها ثلاثة أشياء: قصر الأمل وذكر الموت وزيارة القبور ثم ذكر أحاديث في ذلك.

- وعنده ص ١٠٨ فضل الزهد وثمرته حديث الصحيحة (٩٤٤) "ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" وقال سفيان الثوري: إذا زهد العبد في الدنيا ثبّت الله الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه وبصّره بعيوب نفسه وجعل داءها دواءها.

- ثم ذكر طرفاً من زهد النبي ﷺ ثم طرفاً من زهد الصحابة رضواه الله عليهم.

- ما أحسن مقدمة الأخوين اللذين حققا كتاب الزهد لأبي داود ولتقرأ من هناك. ومن تعليقاتي هناك حديث: "صلاح هذه الأمة بالزهد واليقين. وهلاكها بالبخل والأمل". قلت: فصار الكلام في الزهد كلام في إصلاح الأمة كشف الله عنها الغمة بمنه وكرمه.

١٧- منزلة الورع.

- أصل الورع: الحرّج. تورّع عن كذا أي تحرّج وعند ابن فارس أصله الكف والانقباض (قلت: والانقباض هو التحرج) كأنك تكف وتقبض يديك عن شئ ثم! ماتنصرف عنه أو تقلل منه وهو الزهد. قال: وهو العفة وهو الكف عما لا ينبغي، والورِع الرجل التقي المتحرّج. ورَع يرِع رِعةً وورَعاً. والورع في الأصل: الكف عن المحارم والتحرج منها ثم استعير للكف عن المباح والحلا. فهو إذن في الأصل: الكف عن القبيح. تقول: ورّع الإبل عن الحوض: ردَّها فارتدت. قال الراعي:

وقال الذي يرجو العُلالة: ورّعوا عن الماء لا يُطرق وهن طوارقه

وورّع الفرس: حبسه بلجامه، والتوريع: الكف والمنع.

١- قال تعالى آمراً بالورع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾

وأمر سبحانه المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾.

٢- ثم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يارب يارب.... الحديث.

٣- وفي كتاب البيوع عند البخاري باب ٣ قال حسان بن أبي سنان: ما رأيت شيئاً أسهل من الورع "دع ما يريبك إلى مالا يريبك". قاله حسان لما اجتمع هو ويونس بن عبيد فقال يونس: ما وجدت شيئاً أصعب علَيّ من الورع فقال حسان ذلك وإنما قاله لعلو منزلته فإنه من عُبّاد التابعين، وإلا فالورع صعب كما قاله يونس.

٤- وقال تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ ﴾ أي طهر نفسك بطاعة الله عزوجل واجتناب المعاصي وهذا هوالورع، وهذا التفسير هو تفسير المحققين من أهل التفسير وهو كذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ ﴾ وهو ثابت عن

ابن عباس وغيره قال: لا تلبسها على معصية ولا غَدْر ثم قال: أما سمعت قول غيلان الثقفي

وإني – بحمد الله – لا ثوب غادرٍ لبستُ ولا من غَدرةٍ أتقنعُ

والرجل إذا كان صالحاً قيل له: طاهر الثياب والطالح: دنس الثياب والخلاصة أن المراد: تطهير الظاهر والباطن، تطهير الباطن: بتطهير القلب والعمل والخلق. والظاهر بتطهير الثياب من النجاسات والقول الثالث: تقصير الثياب لأن التقصير طُهرة لها. المهم أن الورع يطهّر النفس ظاهراً وباطناً.

فائدة: بين النفس والثياب مناسبة ولذا تدل الثياب في المنام على قلب المرء وحاله، ونُهى عن لبس الثياب التي تضر بقلب المرء كالحرير والذهب وجلود السباع. وكذا يؤثر القلب في الثياب، فثياب الطائع غير ثياب العاصي وهذا يعرفه أهل البصائر: فريح الطاعة طِيب للثياب وخبث المعصية خبث لها.

٥- وقال ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" فهذا يعم الترك لكل مالا يعني من اكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

٦- قلت فهذا مع قوله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" يجمع لك معنى الورع والذي في الحديث الأول أعلى درجة من الذي في الحديث الثاني. والورع كان في العهد الأول وجاء النص عليه كما في قول أنس وعبادة وأبي سعيد: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات/ المروذي رقم (٦١). حديث "إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه"/ المروذي رقم (٧٩) قلت: "وكان داود لا يأكل إلا من عمل يده"/ المروذي رقم (٨١) ورواه خ.

سأل الحسن غلاماً فقال له: ما ملاك الدين؟ قال: الورع. قال: فما آفته؟ قال: الطمع. وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

وقال الثوري: ما رأيت أسهل من الورع. ما حاك في نفسك فاتركه. قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد كما أن القناعة أول الرضا.

- **قال صاحب المنازل:** الورع. ١- توقّ مستقصى على حذر. ٢- أو تحرُّج على تعظيم.

١- يتوقى لأقصى ما يمكنه من التوقي/ الحرام والشبهات. ويكون توقيه على وجه الحذر لا لغرض آخر كتوقي الذين لا يؤمنون بالآخرة، يتوقون المحرمات رغبةً بنفوسهم عن دناءتها وتحصيلاً للمحمدة. فالباعث إذن على التوقي هو الحذر من العقوبة.

٢- أو يكون الباعث على التوقي تعظيم الرب سبحانه، والتعظيم دليل على المحبة الباعثة على ترك المعصية للمحبوب وإلا فقد توجد المحبة بلا تعظيم كمحبة الإنسان ولده.

- الورع يبعث على تجنب القبائح وهذا التجنب. ١- لصون النفس. ٢- وتوفير الحسنات. ٣- وصيانة الإيمان.

١- تصون نفسك عن الرذائل فلا تجعلها كالحيوان، بل تحفظها مما يشينها عند الله وملائكته وأوليائه فإن من كرمت عليه نفسه صانها وزاحم بها أهل العزائم والكمالات.

٢- وتوفير الحسنات: توفير زمانها فتكثر باكتساب حسنات جديدة، وتوفيرها هي فلا تنقص لأن الرذائل تضيع الزمان وتنقص الحسنات. والسيئات مضرة بالحسنات كما أن الحسنات يذهبن السيئات كما تقدم تقريره في مقام التوبة.

٣- وصيانة الإيمان: فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما عليه إجماع أهل الحق. قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا .... ﴾ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ فالحسنات تضئ القلب والسيئات تطفئ نوره وتسوّده وفسّر ﷺ الران بما رواه أحمد عن أبي هريرة: "إذا أذنب العبد نُكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب واستغفر صقل قلبه وإن عاد فأذنب نكتب فيه نكتة أخرى حتى تعلو قلبه وذلك الران الذي قال الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ .... ﴾.

- درجة أعلى من الورع في ما لا بأس به تؤدي بصاحبها إلى ١- ابقاء الصيانة والتقوى. ٢- التخلص عن اقتحام الحدود.

١- كثير من المباح يكدّر صفو الصيانة (صيانة النفس وصيانة الإيمان) فصاحب هذا الورع يترك كثيراً مما لا بأس به لأجل هذا. قال ابن القيم: قال لي شيخ الإسلام يوماً – في شئ من المباح -: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن شرطاً في النجاة أ.هـ. والفرق بين صاحب هذا الورع وصاحب الورع العام أن هذا يسعى في حفظ الصيانة أن تتكدر والآخر يسعى في تحصيلها.

٢- الحدود هي النهايات وهي مقاطع الحلال والحرام فحيث ينتهي وينقطع فذلك حده فمن اقتحمه وقع في المعصية وقد نهى سبحانه عن تعدّي الحود وعن قربانها فإذا قال: (فلا تعتدوها) دل ذلك على أواخر الحلال وإذا قال: (فلا تقربوها) دل ذلك على أوائل الحرام أي: لا تتعدَّوا ما أبحث لكم ولا تقربوا ما حّرمت عليكم. قلت: يبدو هذا جلياً بالتأمل في سياق الآيتين: فالقربان في آيات الصيام بعد ذكر النهي عن الجماع زمن الاعتكاف. والتعدّي في آيات الطلاق بعد ذكر حِلّ أخذ الفدية ممن أرادت أن تخلع نفسها. والله أعلم.

- كل مقام من المقامات يثمر مقامات من هذه المقامات. وهنا الورع يثمر الزهد فسبيل الزهد هو الورع. وملاكُ ذلك كلِّه شيئان أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتُسكنه في وطن الآخرة. ثم تُقبل به كله على معاني القرآن وتدبرها وتُنزلها على داء قلبك. فهذه طريقه سهلة مختصرة موصلة إلى الرفيق الأعلى، وعليها من الله حارس ويحفظ ويكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدافع عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

- مسائل وتنبيهات مستفادة من كتاب الورع لأبي بكر المروذي:

- **سيرتهم في الزهد:**

- ذكر أحمد أخلاق الورِعين فقال: أسأل الله أن لا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟

- بلغ من ورع أحدهم أنه كان لا ينافس أهل مكة في طعام جلبه ليبيعه بها خوفاً أن يكون ذلك إلحاد في الحرم.
- قال أبو يوسف الغسولي: أنا أتفقه في مطعمي من ستين سنة.
- الحسن: إن أيسر الناس حساباً يوم القيامة الذين حاسبوا أنفسهم لله في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذي هموا به لله في الدنيا مضوا فيه وإن كان عليهم أمسكوا وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا أخذوها على غير محاسبة فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر ثم قرأ:

﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ ..... ﴾

- حماد بن زيد: كنت مع أبي فأخذت تبنة من حائط قال: فقال لي: لِمَ أخذت؟ قال: قلت: إنما هي تبنة! قال: لو أن الناس أخذوا تبنة تبنة كان يبقى في الحائط تبن؟!

- أنس وعبادة وأبو سعيد الخدري: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات.

- أبو حازم: لوددت أن أحدكم يتقي على دينه كما يتقي على نعله.

- **ثم ذكر أبواباً تراجع من هناك نذكر هنا أهمها التي تتضمن مسائل:**

- مسألة العزلة عن الناس: قيل لأحمد يقعد الرجل في بيته قال: أخاف أن يُخرجه هذا إلى أمر قلت: إلى مثل أي شئ؟ قال: يتوقع أن يُبعث إليه بالشئ. لو خرج فاحترف كان أعجب إليّ. قلت: فإذا بُعث إليه بالشئ فلم يأخذه قال: هذا جيد.

قيل له: إن رجلاً قال: لا أكتسب حتى تصح لي النية، وله عيال؟ قال: إذا كان يجب عليه نفقتهم فمن النية صيانتهم.

- عن أيوب قال: كان أبو قلابة يحثنا على السوق.
- قلت: وقال عبدالرحمن بن عوف: دلوني على السوق.

- وقال أيوب: يا معشر الشباب احترفوا، لا تحتاجون أن تأتوا أبواب هؤلاء.

- **حديث أبي ثعلبة الخُشني** رواه أحمد باسناد صحيح. قال: يا رسول الله: ما يحل لي وما يحرم علَيّ قال: فصعّد النبي ﷺ البصر فيّ وصوّب، فقال النبي ﷺ: البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المُفتون". /ص.ج (٢٨٨١) وهذا الحديث له

شواهد عن عدد من الصحابة وانظر الحديث رقم (٢٧) في جامع العلوم والحكم تحقيق الهلالي وهناك فوائد.

• **الذي يتعامل بالربا** يأخذ رأس ماله وإن عرف أصحابه رد عليهم وإلا تصدق بالفضل. وكذا: سئل: الذي يتعامل بالربا يُؤكل عنده؟ قال: لا. قد رُوى عن ابن مسعود. وكذا حديث النعمان بن بشير ".... فمن اتقى الشبهات...." وسُئل أحمد عن الشبهة قال: هو الشئ بين الحلال والحرام. وفي الوالدين يقيم الولد معهما على الشُبهة قال: ما أحب أن يُقيم معهما عليها وما أحب أن يعصيهما، يداريهما. وأما بشر الحارث فسئل هل للوالدين طاعة في الشبهة؟ قال: لا. فقال أبو عبدالله: هذا شديد.

• **الشبهة وضابطها** سبق بيان ذلك في أبواب البخاري وهو ضابط ما أحسنه.

• **إذا اكتسب مالاً من غير جهته** قال أبو عبدالله: يخرج ما في يديه.

• السمك الطافي يُؤكل (قلت: ما لم ينتن) لحديث: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

• مسائل في الورع ص٧٣ ولتُقرأ من هنا مع ذكر ورع ابن عمر وابن سيرين اللذين فاقا الناس في الورع.

• كلام الربيع بن خُثيم جِدٌّ رقيق ص٨٢-٨٣.

• تقيأ أبو بكر لما أطعمه غلامه طعاماً ثمنه من كهانة في الجاهلية وفعله بشربن الحارث وأبو سلمة بن مسلم. ولم يكن بشر يأكل من غلة بغداد فقال أحمد: إنما قوي بشر لأنه كان وحده ولم يكن له عيال ليس من كان معيلاً كمن كان وحده، لو كان إليّ ما بليت ما أكلت.

• في عدة أسئلة في العارية من الجار تكره ناحيته (أي طريقته في الكسب) سئل الإمام أحمد فأحياناً يكره وأحياناً يتوقف كمن اقتبس ناراً ممن يكره ناحيته أو اصطدت صيداً فوقع في أرض قوم وكذا في الحطب لو أوقدت النار بحطب تكرهه وأردت التوقي فلا تواصل بحطبك بل لا بد من الاستئناف بحطبك لأن النار أوقدت بالأول.

• التورع عن مال الزوجة إلا كما قال تعالى: ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ ﴾ لكن انتبه للقرائن والعلامات الدالة على أنها لم تطب. وتتورع المرأة عن مال الرجل فإن كان بخيلاً أخذت ما يكفيها وولدها بالمعروف كما قال ﷺ لامرأة أبي سفيان وحديث "أنت ومالك لأبيك" الارواء (٨٣٨) هو عند الإمام أحمد على إطلاقه وقال ابن سيرين: ليس للأب أن يأخذ من مال ابنه. قلت: تراعي أحوال تصرفات الوالد.

• الورع في النظر قال المروذي لأحمد: رجل تاب وقال: لو ضُرب ظهري بالسياط مادخلت في معصية غير أنه لا يدع النظر. قال: أي توبة هذه؟ ثم ذكر حديث جرير: سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة فقال: اصرف بصرك/ رواه مسلم.

وقال له: الرجل ينظر إلى المملوكة؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر كم نظر ألقت في قلب صاحبتها البلابل وقد سئل النبي ﷺ عن نظر الفجأة فقال: "اصرف بصرك" وقال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ ﴾ قال: هو الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيلحقها بصره. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ ﴾ أي قيام الله عزوجل عليه بالمراقبة إذا فعل المعصية، فيخاف هذا المقام فيترك.

• الورع في علاج النساء وأن الضرورة لها أحكام لكن مراقبة علاّم الغيوب.

• محاورة بين احمد والمروذي في ختامها: انظر ما كان عليه محمد وأصحابه ص ١٢٦-١٢٧ وهذه المحاورة في الأخذ بالنكاح وترك العزوبة.

• ذكر بعض العلماء الورعين.

ابن المبارك وابن معين: من خراسان قال بن المبارك: العالم الصادق الذي يزهد في الدنيا ويُقبل على الآخرة.

- ابن عمر بسند صحيح أنه كان لا يعجبه شئ من ماله إلا خرج فأعتق نافعاً منه وكان يقول: أخاف أن تفتنني دراهم ابن عامر ص١٣٧.

● ويأكل من الحائط أو النخل إذا مر به ولا يحمل وسّهل فيه أصحاب رسول الله ﷺ وفيه حديث: "من دخل حائطاً فليأكل ولا يتخذ خُبنة"./ ت عن ابن عمر / ص.ج (٦٢٣٢).

● وسئل أحمد عن أجور بيوت مكة فقال: لا يعجبني، قيل له: يكتى الرجل الدار فيخرج ولا يعطي قال: لا يعجبني أن يخرج ولا يعطي الكراء قال: هذا بمنزلة الحجّام ولابد أن يعطي. وكذا لا يرى بيع وشراء دور مكة فقيل له عمر اشتري داراً فقال: ما اشتراها لنفسه، اشتراها سجناً للمسلمين يحبس فيه السُّراق.

● قال ابن عيينة: لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه.

● الورع في حضور الأعراس فإنه رأى منكراً خرج كما خرج أبو أيوب لما رأى البيت قد سُتر. وكان ﷺ لا يدخل بيتاً مُزَوّقاً ويقول: مالي والدنيا مالي والرَّقم/الصحيحة. وكذا خرج حذيفة وأبو مسعود. وأما تحديث الإرقماً في ثوب فإذا كان الرقم صورة غيّر معالمها وانظر آداب الزفاف/ تحريم الصور.

وعن يوسف بن أسباط قال: قلت لسفيان: من أجيب ومن لا أجيب؟ قال: لا تدخل على رجل إذا دخلت عليه أفسد عليك قلبك، قد كان يُكره الدخول على أهل البسْطة. يعني الأغنياء.

وقال أبو عبدالله: لايُكتب القرآن على شئ منصوب لا ستر ولا غيره.

● وفي اللُّعب والصور يكره أحمد كل هذا ص١٥٤ لكن الشأن كما في آداب الزفاف أنه يباح من ذلك ما كان فيه مصلحة. لكن لا تُشترى اللُّعب التي هي صور وتُصنع في البيوت.

● وفي تقبيل اليد لا بأس إن كانت على طريق التدين لا علم طريق الدنيا. وقال الثوري: لا بأس بها للإمام العادل وأكرهها على الدنيا. وقبّل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب.

• الورع يكون في الجهاد أيضاً فالأسير إذا أُسر واستأمنه العدو فلا يسرق منهم وإذا نقض قوم العهد فلا تسبى النساء والذرية لأن العهد لهم ثابت هكذا قال أحمد.

• وشأن الورعين أنهم إذا مُدحوا تواضعوا وذموا أنفسهم حقيقةً: قيل لأحمد: ما أكثر الداعين لك! فتغرغرت عينه وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجاً.

وقال محمد بن واسع (أبو عبدالله البصري التابعي العابد ت١٢٣هـ وكان من العباد المتقشفة والزهاد المتجردين): قال: لو أن للذنوب ريحاً ما جلس إليّ منكم أحد. وقال: ما يغني عني ما يقول الناس إذا أُخذ بيدي ورجلي وأُلقيت في النار.

وقال أبو عبدالله: اسأل الله أن يجعلنا خيراً مما يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون.

• الورع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عند أحمد لا تستعدي السلطان على جارك المؤذي لعل السلطان يأخذ منه شيئاً. ولا تتسلق الجداران على أهل المنكر وقال: لا يأمر بالمعروف ونهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى. ويدخل في هذا الباب أن تتعرض من البلاء ما لا تطيق بأن تأمر أقواماً أو تنههم ولا طاقة لك بهم فتُخذل ولا تنصر فتذل وفيه قوله ﷺ: "ليس للمؤمن أن يُذل نفسه قيل وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء مالا يطيق"./ الصحيحة (٦١٣).

• الورع في الخمر: [١] "ما أسكر كثيره فقليله حرام" ولا تفتر بالأسماء حديث الصحيحة (٨٩،٩٠): "يشرب أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها". فإنهم كانوا يشربون الباذَق- وهو المطبوخ من عصير العنب إذا أسكر – فقال ابن عباس: سبق محمدٌ الباذق أي أنه النبي ﷺ سبقهم بتسميتهم الباذق فحرّم الخمر فالعبرة بالوصف لا بالتسمية. وجلد عمر ابنه لما شهم منه ريح الخمر وكذا ابن شهاب كان يضرب في الريح. وأحذر شرب العصير إذا غلا. وقد لعن الله في

---

(١) ويدخل في هذا الباب "الكلولونيا" الكحولية فهي خمر كما قال أهل الإختصاص وهذه يجب اراقتها فكيف من يتعطر بها؟!! وأما التخدير فلا أظنه يدخل في هذا الباب لأن هذه إماتة للإحساس لا للعقل والخمر: ما خامر العقل. والله أعلم. ثم وجدت صحة قولي هذا في الفتاوى (١١٧/١٤) وقفت على ذلك بفضل الله عزوجل وحده فليُقرأ من هناك.

الخمر عشرة فكل من تسبب في الخمر فهو ملعون. ولو أجمع الأطباء على أن دواء رجل في الخمر فلا عبرة بإجماعهم قال أحمد منكراً على أبي ثور ذلك وقال لقد كُره أن يداوى دبره بالخمر فكيف بشُربه. ص١٧١ وأفتى به ابن مسعود أن المريض لا يداوى بالمسكر ص ١٨٠.

• وكذا الورع في اللباس للرجل والمرأة فلا يلبس الرجل المفدّم ولا المعصفر ولا تتشبه المرأة بالرجل في لباسها.

• وكره أبو عبدالله النقش في الخضاب وقال: اغمسي اليد كلها. وروى ذلك عن عائشة رضي الله عنها. قلت: ما أعلمه رحمه الله بآثار الصحابة!

• وحَلْق القفا من فعل المجوس ومن تشبه بقوم فهو منهم أفتى به الإمام أحمد إلا في الحجامة.

• وفي اللسان ونقل الكلام. ذُكر لأحمد رجل فقال: في نفسي شغل عن الناس قال: قوله فيك غير قولك فيه فتبسم وقال: ما أعلم إلا خيراً تريد أن أقول ما لا أعلم وقال: رحم الله سالماً زَحمت راحلتُه راحلة رجل فقال الرجل لسالم: أُراك شيخ سوء. قال ما أبعدتَ.

وجاء رجل إلى فضيل بن غزوان فقال: إن فلاناً يقع فيك فقال: لأغيظن مَنْ أَمَره! يغفر الله لي وله. قيل له: ومن أمره؟ قال الشيطان.

ورأى إبراهيم بن أدهم قاتل خاله بمكة فأهدى إليه هدية فقيل له: تُهدي إليه؟ فقال: إنما أردت صلاح قلبي.

قلت: نعم والله هذا من أنجع السبل في الإصلاح بين الناس فإذا علمت إنسان تكلم فيك أو اعتدى عليك أو نالك من سوء فاذهب إليه – لا خنوعاً ولا جبناً – بل أجل إصلاح قلبك، لأن القلب سينشغل بما بينك وبينه.

• ثم ختم الكتاب بباب في النعيم:

- قال أحمد: أنا منذ أكثر من سبعين سنة في كل نعيم وقال: ما قَلّ من الدنيا كان أقل للحساب.

- وقيل له: إن رجلاً قال: أحمد وبشر ليس هم عندي من الزهاد، أحمد له خبز يأكله وبشر له دراهم تجيئه من خراسان فتبسم أبو عبدالله وقال: أمن الزهاد أنا؟

- النعيم: طيب النفس. والغنى: صحة الجسد.

- ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ أتى النبي ﷺ وأبو بكر وعمر جابرّ بن عبدالله فأطعمهم رُطباً وسقاهم ماءً فقال ﷺ : "هذا من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة" وكذلك لما خرج ﷺ وأضافه ابن التيهان قال ﷺ ذلك؟

- ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ ﴾ قال ﷺ "يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو تصدقت فأمضيت أو لبست فأبليت/م(٢٩٥٨). وقال قتادة: قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان فألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلاّلاً".

- وعن عبد الله بن عمرو قال مر النبي ﷺ ونحن نصلح خصاً لنا وَهيَ فقال النبي ﷺ: "ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك" قلت: ليس فيه أنهم لا يصنعونه بل الذي فيه أن أمر الدنيا أعجل من ذلك فوجب قطع علائقها بالقلب دون اليد.أ.هـ.

١٨- منزلة التبتل.

١- قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ ﴾.

٢- البتل: القطع، مريم البتول: المقطوعة عن الأزواج وعن أن يكون لها نظير. والتبتّل مصدر كالتعلّم والتفهم مِن تبتّل وهذا المصدر يدل على الحصول في النفس تقول: علّمتُه فتعلّمَ تعلُّماً لكنه حصول بالتدريج، والتعليم هو فعل المعلِّم. فكان وجه الآية أن يقال وتبتل إليه تبتلاً بمعنى انقطع إليه انقطاعاً لكن هذا التبتّل لا يحصل إلا بالتبتيل فكان معنى تبتّل إليه: بتّل نفسك إليه تبتيلاً ليحصل لك التبتّل، فدلّ الفعل المذكور على الحصول ودل المصدر المذكور على الوسيلة

إليه. قال ابن القيم: وهذا كثير في القرآن فكأن المعنى: بتّل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتّل إليه تبتلاً. قلت: وهو قريب من معنى الاحتباك.

٣- التبتل: هو الانقطاع إلى الله بالكلية فهو التجريد المحض فلا تنتظر العوض بحيث تكون كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة. قلت: لكن هذا لا يعني ترك الدنيا بالكلية والرهبنة ولذا نهى النبي ﷺ عثمان بن مظعون عن التبتل بهذا المعنى ولذا قال السعدي: هو الانفصال بالقلب عن الخلائق والاتصاف بمحبة الله وما يقرب إليه ويوفى من رضاه وأيضاً قصة النفر الثلاثة كما في خ م عن أنس فيه نهي عن مثل هذا التبتل المذموم.

٤- ومما يدل على هذه المنزلة أيضاً قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي بالتوحيد والإخلاص قال علي: التوحيد. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص.

٥- ومبنى التبتل على الانفصال والاتصال: الانفصال: انقطاع القلب عن حظوظ النفس المزاحة لمراد الرب وعن التفات القلب إلى ما سوى الله رغبة فيه أو مبالاةً به أو فكراً فيه.

والاتصال: اتصال القلب بالله والاقبال عليه وإقامة الوجه له حباً وخوفاً ورجاءً.

٦- والذي يحسم مادة رجاء المخلوقين الرضا بحكم الله عزوجل لك.

٧- والذي يحسم مادة الخوف منهم: هو التسليم لله فإن من سلّم لله أَمِن لأن نفسه عند الله عزوجل محفوظة.

٨- لا يكتمل التبتل إلا بمجانبة الهوى وتنسم روح الأُنس بالله عزوجل وهذا الرَّوح هو روح البدن. والنفس لا بد لها من تعلُّق فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت رَوح الأنس بالله فريّحتها وأحيتها وجعلت صاحبها حبساً على مراد الله الديني.

قلت: قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ قلت: وإذا انتفى الحرج حصل الرضا والأنس بالله عزوجل.

١٩- منزلة الرجاء.

١- الرجاء لغةً: رجى أصلان: الأول يدل على الأمل والثاني يدل على ناحية الشئ. فالأول معروف وربما عُبِّر عن الخوف بالرجاء كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي لا تخافون لله عظمةً. وقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أي لا يخافون وقائعه فيمن قبلهم. وقال القائل: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها فالمعنى في هذه الشواهد الثلاثة هو عدم الخوف وعدم المبالاة والأكتراث. وأما الثاني: فالرّجا: الناحية من البئر كما قال تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾. وأما المهموز فيدل على التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ومنه سميت المرجئة لأنهم أرجأوا أي أخروا الأعمال عن الإيمان./ابن فارس.

٢- الألة من الكتاب والسنة على هذه المنزلة:

١- قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ....وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ .... ﴾ الإسراء في خ م: عن ابن مسعود أن ناساً من الإنس؛ (نفر من العرب) كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم. قلت: وهذا مرفوع إذ لا سبيل إلى معرفته إلا بوحي. والشاهد أنه سبحانه مدحهم بأنهم يحبون الله عزوجل وذلك أنهم يتقربون إليه، ويرجون ويخافون وهذه المقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه.

وفي الآية قول آخر لابن عباس وغيره أن هؤلاء المعبودين هم عيسى وعزير والملائكة لكنه قول مرجوح لأنه لايدخل فيه عيسى وعزير لأن الله تعالى قال: ﴿يَبْتَغُونَ ....وَيَرْجُونَ.... ....وَيَخَافُونَ﴾ والذي حصل من عيسى وعزير قد مضى.

٢- م عن جابر مرفوعاً: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه" قال ﷺ قبل موته بثلاث.

٣- حم (١٦٩٧٩) عن واثلة مرفوعاً: " يقول الله عزوجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء".

٤- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾. قوله (فِي رَسُولِ ٱللَّهِ) أي هو قدوة حسنة أي كله ﷺ وهذا يسمى تجريد[١] كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي هي دار الخلد. أو يقال: فيه ﷺ خَصلة من حقها أن يؤتسى بها وهي المواساة بنفسه يوم الأحزاب. وأما قوله ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فقال السعدي: هذه الأسوة إنما يسلكها ويوفق إليها من كان يرجو الله واليوم الآخر فإن ما معه من الإيمان وخوف الله ورجاء ثوابه وخوف عقابه يحثه على التأسي بالرسول ﷺ أ.هـ وأضاف

(١) وأصل التجريد أن تجعل الصفة المذكورة للموصوف من الضخامة بحيث لا يوجد مثال لها في غير الموصوف فإذن المراد كمال هذه الصفة. وهي هنا كذلك فالأسوة الكاملة تكون إذا كانت برسول الله ﷺ ولذلك وصفها سبحانه بالحسنة كما وصف أسماءه بالحسنى.

الزمخشري: (وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا): وقرن الرجاء بالطاعات الكثيرة والتوفر على الأعمال الصالحة، والمؤتسي برسول الله ﷺ من كان كذلك أ.هـ.

٥- حم (٢١٥٠٥) عن أبي ذر مرفوعاً: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي": حديث حسن.

٣- ما هو الرجاء وما حقيقته؟

- هو الاستبشار بجُود الرب سبحانه وتعالى وفضله والثقة بذلك والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجِد والاجتهاد. والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

- هذا الرجاء لا يصح إلا مع العمل كما قال شاه الكِرماني: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة. قلت: قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

- وهنا ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام أ- من عمل بطاعة الله ويرجو الثواب. ب- من أذنب وتاب ويرجو المغفرة. جـ- من هو متماٍ في المعاصي ويرجو الرحمة فهذا مغرور وهذا هو التمني وهو الرجاء الكاذب.

- فإذن تنظر إلى آفات النفس والعمل فتخاف والنظر الآخر تنظر إلى سعة رحمة الله عزوجل، ولا بد من النظرين حتى لا تقع في أحد مرادي الشيطان: أليأس أو الغرور.

- لكن أي الجاءين أكمل؟ رجاء المحسن أم رجاء المسيئ؟ فطائفة قالت: رجاء المحسن لأنه أتى بالسبب. وقالت أخرى: بل رجاء المسيئ لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل مقرون بذلة رؤية الذنب كما قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحزِرها؟ وأنا بالآفات معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف أ.هـ.

٤- الرجاء من أَجَلِّ المنازل وهو مع الخوف والمحبة عليها مدار السير إلى الله عزوجل. وكذلك أثنى الله تعالى على عباده المتصفين به كما في آية الاسراء. وكذلك هو عبودية لله تعالى وتعلُّق به من حيث أسماء البر واللطف: كالمحسن والبر والمعطي والغفور والجواد والوهاب والرزاق والكريم وغيرها. فمعرفة الله بهذه الأسماء هي التي أوجبت رجاءه سبحانه وتعالى. وكذلك لولا روح الرجاء لعُطلت عبودية القلب والجوارح ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال.

قال ابن القيم:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت   نفس المحب تحسراً وتمزقا
وكذاك لولا بردُه بحرارة الأ   كبادِ ذابت بالحجاب تحرُّقا
أيكون قطُّ حليفُ حُبّ لا يُرى   برجائه بحبيبه متعلقا
أم كلما قويت محبتُه له   قوِيّ الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجاء يحدو المَطِيَّ لما سرت   بحمولها لديارهم ترجو اللّقا

٥- تنبيه يتعلق (بالمحبة والخوف والرجاء): كل محبة مصحوبة بالخوف والرجاء وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشته بخلاف خوف المسيئ ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف رجاء الأجير.

٦- ثمرات الرجاء:

١- حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيّب لها السير.

٢- الرجاء ضروري للسالك ولو فارقه لحظة لتِلف فإن السالك دائر بين ذنب يرجو غفرانه وعمل صالح يرجو قبوله واستقامة يرجو حصولها وقرب من الله يرجو وصوله إليه.

٣- الرجاء حياة الطلب والدعاء وهو الموجب لاستسلام العبد لربه والانطراح ببابه.

٤- الرجاء يُبْرد حرارة الخوف كما ذُكر في شعر ابن القيم.

٥- الرجاء فيه تحقيق محبوب الله سبحانه وهو سؤال العبد له "من لم يسأل الله يغضب عليه" والسائل راج وطالب ففيه إذن التخلص من غضب الله.

٦- كما أن المحبة هي أصل الرجاء فإنك لا ترجو غلا من أحببت كما يشهد الواقع وكما في الآية: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ....وَيَرْجُونَ..... .... ﴾ فكذلك الرجاء – وخاصة إذا تحقق المرجو – يزيد المحبة. فإذن كل من المحبة والرجاء يمد الآخر ويقويه.

٧- ومن ثم يحصل الشكر على حصول المرجو، فانظر كيف أثمر الرجاء المحبة والشكر.

٨- زيادة معرفة بالأسماء والصفات كما مَرّ.

٩- الرجاء مستلزم للخوف. والخوف مستلزم للرجاء . ولذا وقوع الجراء بمعنى الخوف كما مر. وذلك أن كل راج خائف من فوات مرجوّه، وكل خائف راجٍ لحصول ضد ما يخاف منه فمن رجا الجنة خاف النار ومن خاف النار رجا الجنة.

١٠- الرجاء سبب للفرح بالمطلوب ففرق بين اعطاء المرجو واعطائه بدون رجاء، فإن قلبه كان متعلقاً به فإذا حصل له فرح وتأمل فرح القائل: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾. وفرح القائل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

١١- الرجاء مكمّل لمراتب العبودية.

١٢- الرجاء يحمل على ذكر الله عزوجل لأن القلب متعلق بالمرجو فلا يزال ذاكراً لمن بيده تحقيق مرجوّه.

١٣- الرجاء يوجب الفرح بالله عزوجل حيث يرى العبد ربه عند مطلوبه وعند دفع مرهوبه فيفرح بربه ويرضى به.

١٤- الرجاء يوجب سرعة السير على الطريق كمن قرب من بلد الوصول.

٧- ليس في الرجاء والدعاء معارضةٌ لتصرف الله في ملكه (أي لقدر الله عزوجل): لأنه:

- إنما يرجو تصرف الله في ملكه، وتصرفه سبحانه في ملكه إما فضل وإما عدل، والفضل أحب إليه سبحانه من العدل، فالراجي يرجو فضل الله عزوجل المحبوب له، ويرجو ذلك بأحب الأشياء إليه وهو الطلب.

- أن رجاء العبد لا ينقص من ملك الله شيئاً كما في حديث: "لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً...." وكذلك بقية هذا الحديث قبل هذه الجملة فما أعظمه من حديث للجواب عن هذا الايراد. وليُقرأ كلام الشيخ هناك ص,٤٨٠

٨- وليس الرجاء وقوفاً مع الحظ قالوا: السالكون خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم؟ وهذا غلط. لأننا لو قلنا بذلك لبطل الدعاء الذي هو العبادة بل الشريعة مبنية على الدعاء بنوعيه دعاء العبادة ودعاء المسألة فالمصلي والمزكي والصائم والحاج كلهم راجون داعون فهل يُقال هؤلاء واقفون مع حظوظهم؟!! إن أبى هؤلاء المخالفون فنِعم الحظ هو أن يكون العبد واقفاً عند حظه من ربه، من فضله وبِرِّه وكرمه والذي يحب الرب سبحانه من عبده أن يطلبه منه.

٩- أول الرجاء هو الرجاء الذي. ١- يبعث العامل على الاجتهاد. ٢- يولد التلذذ بالخدمة. ٣- يوقظ الطباع للسماحة بترك المناهي.

١- من عرف قدر مطلوبه هان عليه الاجتهاد والمجهود المبذول في طلبه.

٢- العبادة فيها نوع مشقة لكن إذا علم أنها السبيل إلى السعادة الأبدية صادرت جزءاً من السعادة (صار السبب من المسبب) فتلذذ بها/ قاله أبو عبدالرحمن بفضل ربه المنان.

٣- الطباع لها معلوم ورسوم لا تتركها غلا لأجل ما هو أفضل من معلومها ورسومها فمثلاً يعلم الطبع أن في الزنا لذة وحسب هذا المعلوم يهوى رسوماً يظن فيها هذه اللذة وهي النساء ولا يسمح له طبعه بترك هذا المعلوم وهذه الرسوم غلا إذا رجا معلوماً ورسوماً أفضل من معلومه ورسومه وهذا موجود في الحور العين وهكذا بقية المناهي كالخمر.

١٠- وأما الرجاء العالي فهو رجاء لقاء الخالق سبحانه وتعال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ وهذا الرجاء يبعث على الاشتياق كما كان يدعو ﷺ: "وأسألك الشوق على لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة" وأيضاً هذا النوع من الرجاء يبغِّضه العيش وينغصه ويزهِّد في الخلق. وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته فإذن هذا النوع من الرجاء. ١- يبعث على الاشتياق. ٢- يبغّض العيش وينغّصه. ٣- يزهّد في الخلق.

١- الاشتياق: هو سفر القلب في طلب المحبوب.

٢- وعيش المشتاق منغصٌ حتى يلقى محبوبه ولا تقر عينه إلا بذلك.

٣- لأن صاحبه طالب للأنس بالله عزوجل والقرب منه فهو أزهد شئ في الخلق إلا من أعانه على هذا المطلوب. قلت: نعم والله لا أنس إلا في وسط أهل السنة والجماعة. فإن لم تظفر بهذا فاتخذ الله صاحباً ودعِالناس جانباً.

٣٠- منزلة الرغبة.

١- الرغبة لغةً: رَغِب أصلان: أحدهما طلبٌ لشئ. والآخر: سَعةٌ في شئ. تقول: - في الأول – رغبت في الشئ إذا أردته فإذا لم ترده قلت: رغبت عنه. وأما الأصل الثاني فتقول: حوض رغيب وسقاء رغيب أي واسع. فرس رغيب الشحوة أي: واسع الخطوة.

٢- الفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب فهي ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشئ طلبه. فالرغبة بالنسبة للرجاء كالهرب بالنسبة إلى الخوف. فمن رجا طلب (أي رغب) ومن خاف هرب. فالراجي طالب والخائف هارب. والخلاصة: أن الرغبة هي الرجاء بالحقيقة بأن تطلب السبيل إلى ما ترجوه، ترجو الجنة، والرغبة فيها أن تطلب السبيل إليها وتسلكه. قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

٣- درجات الرغبة:

١- أول الرغبة. ٢- وسطها. ٣- كمالها.

١- أول الرغبة. يتولد بالعلم فتبعث على الاجتهاد وتصون من الفتور والكسل.

٢- وسطها. تتصاعد الرغبة حتى تكون رغبة: أ- ولا تبقى من المجهود مبذولا (فيبذل كل ما عنده لتحقيق المطلوب). ب- ولا تدع للهمة ذبولاً. (بل هي في زيادة وعلو). جـ- ولا تترك غير القصد مأمولا. (فليس في قلبه نصيب لغير مقصوده.

٣- كمالها. وذلك بكمال الرعاية. أ- رعاية العلم وحفظه بالعمل. ب- رعاية العمل بالاحسان والاخلاص وحفظه من المفسدات **وهنا مسألة وهي (*).**

(*) مراتب العلم والعمل: أ- رواية: نقل العلم (الرواة). ب- دراية: فهمه (العلماء). ج- رعاية: العمل بالعلم (العارفون).

قلت: سبق التنبيه أن العلم أشرف من المعرفة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ولم يقل العارفون. وهنا نبين الرعاية ببيان آية الحديد: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا .... فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ قال قتادة: (رَأْفَةً وَرَحْمَةً): هاتان من الله. والرهبانية ابتدعها القوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا). وقال ابن زيد: ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوعاً./ ابن جرير.

وعند السعدي: والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوها من عند أنفسهم عبادة ووظفوها على أنفسهم والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم قصدُهم بذلك رضا الله ومع ذلك (فَمَا رَعَوْهَا .....) أي: ما

قاموا بها ولا أدوا حقوقها فقصّروا من وجهين، من جهة ابتداعهم ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم أ.هـ.

وعند البقاعي: كان الزهد والرأفة والرحمة في تابعيه (أي تابعي عيسى عليه السلام) مع أنه سبحانه أخبر عن أهل الكتاب أنهم قست قلوبهم وذلك بطول الأمد.

(وَرَهْبَانِيَّةً) قدّمها على عاملها لئلا يتوهم من لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها.

(إِلَّا ٱبْتِغَآءَ) لكن ابتدعوها لأجل أن يبتغوا رضوان الله. (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) أي ما حفظوها وذلك لصعوبتها. وهذا تنفير من البدع وحث على لزوم ما سنّه الله وشرع وتحذير من التشديد لأنه الترحال إلى البدعة ولهذا كثر في أهل الرهبانية المروق من الدين باعتقاد الحلول والاتحاد وغير ذلك من البلايا وإن كان يظهر أن التعمق والتشدد خير، لكنه شر لأن الله تعالى – العليم بما يصلح العباد – نهى عنه. وهؤلاء ما أرادوا إلا الخير (لكن الأمر كما قال ابن مسعود كم من مريد للخير لم يبلغه) (ولذا تواترت الأخبار عنه ﷺ بالنهي عن التعمق والغلو والأمر بالقصد والرفق) أ.هـ.

وعند ابن كثير: (رأفة) رقة وهي الخشية (ورحمة) بالخلق. (وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا): ابتدعها أمة النصارى (مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ): ما شرعناها لهم وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

قال: وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله تعالى: (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) ذم لهم من وجهين أحدهما الابتداع في دين الله. والثاني: عدم قيامهم بما التزموا مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله. ثم ذكر ابن كثير هنا أحاديث لا يصح منها إلا ما صححه الألباني في الصحيحة (٥٥٥): "أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية

الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض".

وعند ابن القيم في "البدائع": (وَرَهْبَانِيَّةً): منصوب بـ (ٱبْتَدَعُوهَا) لا بـ (وَجَعَلْنَا). قلت: لا يمتنع أن يكون هذا من باب تنازع العوامل. فالله سبحانه جعلها كوناً بسبب ابتداعهم لها ولم يكتبها شرعاً. (إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ): منصوب على الانقطاع أي لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضواه الله. قال: وليس مفعولاً له لـ (كَتَبْنَٰهَا) فإنه سبحانه لم يكتبها عليهم كيف وقد أخبر أنهم هم ابتدعوها. قال: ثم ذمهم بتلك رعايتها إذ من التزم شيئاً لم يُلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه كالالتزام بالنذر.

قال: والقصد أن الله سحبانه ذم من لم يرع قربة ابتداعها لله حق رعايتها فكيف. بمن لم يرع قربة شرعها الله وأذن فيها وحيث عليها. وأما القصّاب فقد انحرف عن الجادة فيما استنبطه من الآية وقد أحسن المحقق في الرد عليه فانظره هناك.

ومن أهم أركان الرعاية.

١- رعاية العمل وفق الوسطية. ٢- القيام به من غير نظر إليه واستصغاره. وقد قيل: علامة قبول العمل استصغاره وعلامة رضا الله عنك إعراضك عن نفسك. ومن شهد واجب ربه ومقدار عمله وغيب نفسه لم يسعه إلا الاكثار من الاستغفار. ٣- الاجتهاد في اقامته كإقامة الصلاة وكالشجرة القائمة فيكون معتدلاً.

٣١- منزلة المراقبة.

١- المراقبة لغةً: رَقَب أصل يدل على انتصاب لمراعاة شئ. من ذلك الرقيب: الحافظ. تقول رَقَبْتُه أرقُبه رِقبة ورِقباناً. المَرْقَب: المكان العالي يقف عليه الناظر. ومن ذلك اشتقاق الرقبة لأنها منتصبة. والرَّقوب – في عرف الناس: التي لا يعيش لها ولد كأنه ترقبه لعله يبقى. لكن النبي ﷺ فسّر بغير هذا.

٢- والمراقبة: هي دوام علم العبد وتيقنه باطّلاع الحق سحبانه وتعالى على ظاهره وباطنه والمراقبة ثمرتها الاحسان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فهي ثمرة علمه بأن الله سحبانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كُلَّ وقت ولحظة وكُلَّ نَفَس وكُلّ طرفة عين.

٣- أقوال العارفين في المراقبة:

- من راقب الله في خواطره عصمه في حركاته جوارحه.
- علامة المراقبة: إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله./ ذو النون.
- المراقبة: خلوص السر والعلانية لله عزوجل/ الخوّاص.
- أفضل ما يُلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق بالمحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم.
- قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلستَ للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعُهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.
- واجمعوا على أن من راقب الله في خاطره حَفِظه الله تعالى في سره وعلانيته.

٤- المراقبة هي التعبد لله عزوجل بأسمائه: الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير الخبير اللطيف ونحوها وهي أسماء العلم والخبرة والاطلاع: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

٥- وصف لطيف للمراقبة: مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام بين ١- تعظيم مذهل. ٢- ومداناة حاملة. ٣- وسرور باعث.

١- امتلاء القلب من عظمة الله بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره وعن الالتفات إليه، وهذا يوجب محبة، ولابد منهما معاً محبة وتعظيم وإن لم يكن تعظيم خرج عن حدود العبودية. فهنا خمسة أمور: سير واستدامة وحضور وتعظيم وذهول.

٢- دنو وقرب من الله عزوجل يحمله على التعظيم، فكلما دنا عظّم.

٣- السرور والفرح بالقرب من الله عزوجل، وهذا السرور يبعثه على دوام السير والازدياد من الطاعة، ومن لم يجد هذا السرور ولا شيئاً منه فليتهم إيمانه

وأعماله فإن للإيمان حلاوة وطعم كما دلت الأحاديث الطعم رواه مسلم عن العباس، والحلاوة رواها السيخان عن أنس: "ذاق طعم الإيمان...." "ثلاث من كُن فيه وجد بهن.....".

وقال شيخ الإسلام: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه فإن الب شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول.

هذا السرور يحمل على الاعراض عن الاعتراض فيتجرد من كل شهوة تعارض الأمر ومن كل شبهة تعارض الخبر ومن كل محبة تزاحم المحبة وهذا هو القلب السليم.

والاعتراض أنواع ثلاثة. ١- الاعتراض على الأسماء والصفات بالشبه الباطلة فيعطلون أو يمثلون ويعصم من ذلك: التسليم للوحي. ٢- الاعتراض على الشرع (أمر ونهي). بالرأي أو الذوق أو السياسة فهذه طواغيت يتحاكمون إليها. ٣- الاعتراض القضاء والقدر: وهذا سارٍ في النفوس سريان الحمى في الأبدان ولو تأمل العبد كلامه وأمنيت وإرادته وأحواله لرأى ذلك في قلبه فكل نفس لها نصيب من هذا الاعتراض إلا نفساً مطمئنة مسلِّمة راضية.

٢٢- منزلة تعظيم الحُرمات.

١- قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾

منهم من قال الحرمات: الأمر والنهي. ومنهم من قال: ما لايحل انتهاكه، فخصه بالمحرمات ومنهم من قال: المناسك. قال ابن القيم: والصواب أن الحرمات تعم هذا كله وهي جمع حرمة: وهي ما يجب حفظه واحترامه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأمكنة.

قال ابن فارس: حرم أصل يدل على المنع والتشديد ومنه المُحرم والحرم وذلك أنه يُمنع انتهاكه فهو له ذمة.

٢- وتعظيمها: بتوفيتها حقها وحفظها من الاضاعة والخروج من حرج المخالفة بتعظيم الأمر والنهي، خوفاً من العقوبة وطلباً للمثوبة.

- وهذا الأخير الأدلة طافحة بالدلالة عليه وذلك أنه:

- حـــــال الأنبيـــــاء ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾.

- وحال عباد الرحمن يسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار كما في حديث الدندنة وحديث الملائكة السيارة.

- والقرآن والسنة مملوءان بهذا.

- وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه وضعفت همته ووهى باعثه.

- لو لم يكون هذا مطلوباً للشارع لما وصف الجنة بما وصفت به والنار بما وصفت به.

تنبيه: الجنة ليست فقط اسماً لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور. فهذا غلط وقصور في مسمى الجنة. فإن الجنة اسم الدار النعيم المقيم المطلق الكامل فإن من أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه المولى الكريم سبحانه وتعالى وحلول رضوانه على أهلها ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وحديث: "فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه"/ م عن صهيب. وكذلك معية المحبة فلا شيء أجل ولا أكمل ولا أجمل من قرة العين بمعية المحبوب وهذه المعية هي روح الجنة وبها طابت الجنة. "اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك".

وكذلك النار ليست فقط احتراق الأجسام فإن لأصحابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته لهم وغضبه وسخطه عليهم أعظم من التهاب النار في أبدانهم ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

فالحاصل إذن أن غاية تعظيم الحرمات طلب الله والدار الآخرة وقد غلط من اقتصر بذلك على طلب الله فقط كما زعم بل طلبه لله قاصر إذا لم يطلب ما عنده سبحانه من المثوبة وخاف من العقوبة ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ وإذا جاء في آيات ارادة الآخرة فقط فالمراد ارادة الله عزوجل وثوابه.

٣- ومن تعظيم الحرمات صحة التوحيد العلمي الخبري- علاوة على التوحيد العملي وحقوقه – وذلك بالإيمان بالأسماء والصفات على طريقة أهل السنة والحديث والجماعة.

٢٣- منزلة الإخلاص.[١]

١- ماذا نقول عن الإخلاص وهو أصل كل حركة وسكون، والإخلاص هو خلاصة هذا الدين الذي هو دين الأنبياء والمرسلين. وتأمل ذلك في كتاب الله عزوجل، ما من نبي إلا ويذكر الإخلاص أول ما يدعو قومه. ولذا أجمل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ وقال: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ وأثنى الله تبارك وتعالى على أنبيائه

---

(١) خلص: تنقية الشئ وتهذيبه. تقول: خلّصته وخَلَصَ والفرق بين أخلص وخلّص كالفرق بين أنجى ونَجّى وبين أنزل ونزّل فالأول يدل على النتيجة النهائية والثاني يدل على السبيل غليها فهو خلّص ليُخلص. ولذا ذكر منزلة التهذيب بعد ذلك لأن النتيجة ليست نهائية ثابتة بل يرعض لها ما يجعلها بحاجة إلى التهذيب دوماً. فإذن قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ على حقيقتة وكذا على حقيقته. ليس المراد الثبات عليه بل المراد الزيادة أو تعويض النقص. لأن الإنسان لا ينفك عن هذا لا تأتي لحظة على مخلوق – حتى الملائكة – يقول: قد بلغت الغاية في عبادة الله فلا حاجة إلى الزيادة، هذا لا يكون أبداً.

فقال في يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بالفتح والكسر فلا يكون مخلِصاً إلا إذا أُخلص بفضل الله ومنِّه. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾.

٢- وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ ففي هذه الآيات ضم الصلاح والحسن إلى الإخلاص. فلا يكفي الإخلاص حتى تضم إليه متابعة المرسلين. فلا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبده بالبدع.

والآيات والأحاديث في الإخلاص وذلك الرياء كثيرة جداً. وقد تعلمناها أول ما منّ الله علينا لكن لابد من التذكرة بها على الدوام لأن الشيطان لا يزال للمخلص محارباً حتى يظفر منه ولو بأدنى شيء.

- وانظر ص.ت للألباني أول الكتاب وليقرأ من هناك مع تلخيص الفوائد. وهناك ست فوائد:

١- الإخلاص سبيل النجاة وتفريج الكرب في الدنيا والآخرة.

٢- الإيمان هو الإخلاص.

٣- الإخلاص يطهر القلوب من الغل.

٤- الإخلاص سبيل النصر.

٥- الإخلاص سبب القبول.

٦- الإخلاص لا تطيب الدنيا إلا به.

٤- تعددت عبارات القوم في تعريف الإخلاص وهي بمعنى واحد.

- إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

- تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

- استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن.

- الفضيل: العمل من أجل الناس شرك وترك العمل من أجل الناس رياء.

- وما أحسن ما نبّه عليه الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. قلت: فكل إنسان يدري من نفسه ما قصده.

٥- وأما تعريف الهروي فما أحسنه قال: تصفية العمل من كل شَوْب أي من كل الارادات الفاسدة. أ- التزين للخلق. ب- طلب مدحهم والهرب من ذمهم. جـ- طلب تعظيمهم. د- قضاء حوائجه.

٦- أول درجات الإخلاص. هي التهذيب الذي هو التخليص (يتخلص فيها من الآفات المذكور) ١- إخراج رؤيةالعمل عن العمل. ٢- الخلاص من طلب العوض على العمل. ٣- النزول عن الرضا بالعمل.

١- مما يخلص من رؤية العمل مشاهدته المنة وأن ذلك فضل من الله عزوجل فيستخضر ما يلي:

- ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾

- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾.
- ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾
- ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾
- حديث: "لا يدخل أحدكم الجنة بعمله".

٣- الذي يخلصه من الرضا بالعمل أمران.

أ- مطالعة عيوب العمل وآفاته وتقصيره فيه وحظ نفسه منه وإن قل وإذا كان النبي ﷺ جعل الالتفات في الصلاة من حظ الشيطان وكذا ابن مسعود قال: "لا يجعل أحدكم للشيطان حظا من صلاته يرى أن حقاً عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه" فإذا انتهيت من الصلاة وختمت بالأذكار فانصرف خارجاً على أي جهة أردت. إذا كان هذا في الظاهر فما بالك بحظ الشيطان من قلب العبد.

ب- علمه بما يستحق الرب من حقوق العبودية وأنك لا توفي هذه المقامات حقوقها. فإذن لابد من الخجل من العمل مع بذل الجهود ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا ﴾ فهذا بذل المجهود ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ فهذا هو الخجل.

٧- الإخلاص لابد له من المتابعة (وذلك بالعلم) فالعمل تابع للعلم ومؤتم به فالإخلاص حقيقة والمتابعة شريعة. والكامل من نظر إلى الحقيقة وقام بالشريعة ودل على هذا المعنى آيات منها: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ و﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

وهذا (أي اصطحاب العلم عند العمل) هو تهذيب العمل وإلا كان الضلال كما يحصل لأهل الثغور والعزلة والبعيدين عن العلم يعبدون الله – نعم مخلصين – لكن يتعبدون بأهوائهم.

قال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول. – من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث فلا يُقتدى به. – عِلْمُنا هذا مُشَيّد بحديث رسول الله ﷺ.

٨- قلت: وانظر قواعد في الإخلاص من خلال تلخيص لشرح حديث إنما الأعمال بالنيات من كلام ابن رجب رحمه الله.

٣٤ – منزلة التهذيب.

١- التهذيب درجة أعلى من الإخلاص أو قل: هو الدرجة العليا من الإخلاص فقد سبق ص ١٥٧ أول درجات الإخلاص. فهو تخليص الإخلاص من كل ما يشوبه وتصفيته. وأصل هذه المادة: هذب: تنقية الشيء مما يعيبه والإهذاب: السرعة في الطيران والعدو ومعناه أنه لا يمكن التعلق به وكذلك العيب لا يمكنه التعلق بالمهذب.

٢- وعليه نعّرف التهذيب فنقول هو: سَبْك العبودية في كير الإمتحان طلباً لأخراج ما فيها من الخَبَث والغش وذلك وصولاً إلى الإخلاص ثم تهذيبه على الدوام.

٣- أول التهذيب تهذيب الخدمة (أي العبادة) وذلك بأن. ١- لا يخالطها جهالة. ٢- ولا يشوبها عادة. ٣- ولا يقف عندها همة.

١- فلابد من العلم للعبادة وإلا كان مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ فلا تتحرك إلا بعلم ولا تسكن إلا بعلم. نعم قد يؤجر على حسن نيته (كما ذكر شيخ الإسلام في الجهلة الذين يحتفلون بالمولد) ولكن مثل هذا العمل لا يقرّبه إلى الله عزوجل وإن كان يُثاب على حسن نيته.

٢- كمن اعتاد الصيام ولا يتركه وإنما لا يتركه لأجل العادة وعلامة ذلك أنه عندما يُعرض عليه الأفضل والأصلح له فإنه يبقى على الأول فاعبد الله على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك ولا يكون الباعث لك داعي العادة.

٣- لا تقف همتك على درجة معينة من العبادة بل اسع دوماً في الترقي فإن القناعة تُحمد من صاحبها إلا في هذا الموضع، وسبيل الترقي هو رضا المحبوب فطالما كان هذا مرادك لم تقف همتك عند مستوى معين من العبادة بل كل يوم تزداد إحساناً لها طلباً لرضا المحبوب جل وعلا.

٤- ويكمل تهذيب الخدمة بتهذيب القصد وذلك بـ ١- تصفيته من ذلك الإكراه. ٢-وحفظه من مرض الفتور. ٣- ونصرته على فضول العلم.

١- هناك فرق شاسع بين من يطيع لأن قرة عينه وسروره ولذته وراحته في الطاعة وبين من يفعل ذلك ثِقَلاً، كالصلاة مثلاً، فلا تكن إرادتك للطاعة عن

ثقل وإنما تنساب كما ينساب الماء. قال ﷺ: "وجُعلت قرة عيني في الصلاة" "أرحنا بها يا بلال" وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾.

٢- لا يفتر عزمك فإنه روح القصد بل استمر في الطلب، وسبيل ذلك. أ- إن تلهو عن الفضول من كل شيء. ب- وتحرص على ترك ما لا يعنيك. ج- لا تتكلم إلا فيما يزيد الإيمان. د- لا تصحب إلا من يعينك على ذلك.

٣- مسائل العلم الخلافية والتدقيق فيها يشوّش القصد، ينفق ساعات من عمره بل أيام في تدقيق مسألة تحريك الإصبع في الصلاة ويضيع قواعد العلم الشرعي الجامعة وذلك بمعرفة الكتاب والسنة والاهتمام بأصول العلم التي بها حياة القلب واستقامة السير.

٣٥- منزلة الإستقامة.

١- أصل هذه الكلمة وأمثالها: قوم وهو يدل على انتصاب وعزم ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾. وقد ذكر الفيروز أبادي في "البصائر" ما يُشتق من هذه المادة وهو كثير جداً في القرآن.

قلت: السين والتاء تدل على الطلب فالمراد بالإستقامة أن تطلب إقامة حالك على ما يحبه الله ويرضاه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ أي بمجاوزة الصراط لأن من لازم الصراط الإستقامة فإن الإستقامة هي: لزوم الصراط المستقيم والمنهج القويم.

٢- وثمرات الاستقامة هي ثمرات لزوم ما جاء به محمد ﷺ.

١- ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾

أَلَّا تَخَافُواْ : أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة.

وَلَا تَحۡزَنُواْ: أي على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دّين فإنا نخلفكم فيه. قلت: وإذا كان المولى الكريم يخلف وليه في أهله إذا كان في سفر الدنيا مع مظنة الرجوع فلأن يخلفه سبحانه في سفر الآخرة الذي لا رجوع فيه من باب أولى.

وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ: يقولون لهم ذلك عند الموت وفي القبر وحين البعث كما قال زيد بن أسلم ودليل ذلك عند الموت حديث البراء وأبي هريرة: "اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرين، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان".

نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ: كنا قرناءكم في الحياة الدنيا، نسدّدكم ونوفقكم ونحفظم بأمر الله وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمّنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونواصلكم إلى جنات النعيم. وكذلك الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ

ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

٢- **ومن ثمرتها** ما قال الله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾ على أحد القولين في الآية:

الأولى: قول ابن عباس ومجاهد والسعيدين (ابن جبير وابن المسيب) وعطاء والسدي والقرظي وقتادة ومقاتل أن المراد لو استقاموا على طريقة الحق والإسلام لوسّع الله عليهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ .... ﴾وقال عز من قائل: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ .... وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ .... ﴾ وعلى هذا القول يكون معنى قوله تعالى: ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ ﴾ أي لنختبرهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغِواية.

الثاني: قول أبي مجلز والربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان. أن المراد لو استقاموا واستمروا على طريقة الضلالة لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾وقوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾. قال ابن كثير: وهذا القول له اتجاه ويتأيد بقوله: ﴿ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ﴾. قلت: والآية قبل هذه الآية فيها دليل على أن الإسلام هو الاستقامة والاستقامة هي الإسلام حيث قالت الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ

فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾ والقاسط هو الجائر عن السبيل القاصدة فالمسلم هو المستقيم كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾.

٣- **ومن ثمراتها المغفرة:** قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي: لزوم السنة والجماعة/ ابن بطة في الإبانة (١/رقم ١٥٠). وعن الضحاك قال: - أي في هذه الإية أيضاً - : استقام. برقم (١٦٦).والعباد كلهم مأمورون بالاستقامة كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾

١- وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ وهه استقامة في الاستقامة وتلك دعوة إلى الدخول في الاستقامة، هذه خاصة وتلك عامة كالإيمان في الإيمان والهداية في الهداية ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ هذا يقوله المهتدون، (يا أيها الذين آمنوا آمِنوا) هذا طلب الإيمان من المؤمنين. وذلك أن العبد بحاجة إلى الإيمان والهداية والاستقامة في كل لحظة وهي تزيد عنده وهو مطالب ببلوغ أعلى الدرجات فيها حتى الموت.

٢- وقال ﷺ لسفيان بن عبد الله لما قال له: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد غيرك، قال: "قل آمنت بالله ثم استقم" رواه مسلم.

٣- وعن ثوبان أن النبي ﷺ قال: "استقيموا ولن تُحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" فالمطلوب إذن الاستقامة – وهي السداد – فإن لم يقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عليها فالتفريط والإضاعة. ومما يدل على هذا – أي السداد والمقاربة – ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "سددوا وقاربوا واعلموا أن لن ينجو أحد منكم بعمله...." كالذي يريد إصابة هدف فإن لم يسدّد قارب الإصابة.

٤- ومن ثمراتها النصر على الأعداء كما قال ابن كثير في آية هود.

٤- **الإستقامة كلمة جامعة**. فهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء وهي تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها وقوعها: لله (الإخلاص)، وبالله (الاستعانة)، وعلى أمر الله (المتابعة). قلت: نغفل عند ذكر الإخلاص والمتابعة عن الاستعانة ولابد لأهل السنة من التأكيد عليها وإلا حصلت بدعة القدرية. كيف وقد ذكرها الله تعالى قرينة الإخلاص في أعظم سورة في كتابه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. وقد روي عبدالرزاق وابن جرير عن الحسن أنه كان يقول: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة. قلت: ففيه الاستعانة. قلت فالواجب إذن أربعة لا اثنتان: (إخلاص ومتابعة واستعانة واستقامة).

قال شيخ الإسلام: "أعظم الكرامة لزوم الاستقامة".

٥- أقوال السلف في الاستقامة:

١- أبو بكر الصديق: في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً وقال: لم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد. وهذا تفسير لا يقوله إلا صديق لأن الاستقامة لا تحصل إلا باستقامة الأصل كما قيل: وهل يستقيم الظل والعود أعوجُ؟!! فالتوحيد هو الأصل وباستقامة يستقيم حال الإنسان كله.

٢- عمر رضي الله عنه: استقاموا لله بطاعته – بالأمر والنهي – ولم يروغوا روغان الثعالب. قلت: هذا مبني على ما قاله الصديق رضي الله عنه.

٣- ابن عباس: استقاموا على أداء الفرائض. وقال: عليكم بالإستقامة والأثر وإياكم والبدع/ الشاطبي وهو أيضاً في "السنة" لابن نصر رقم (٨٤).

٤- عثمان: أخلصوا لله العمل. وهذا كما قال الصديق.

٥- ابن تيمية: استقاموا على محبة الله وعبوديته ولم يلتفتوا عن يمنةً ويَسْرة. وهذا كما قاله الصديق.

٦- وأما شيخ الإسلام الهروي: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد. ١- لا عادياً رسم العلم. ٢- ولا متجاوزاً حد الإخلاص. ٣- ولا مخالفاً نهج السنة.

فههنا ستة أمور: عمل واجتهاد فيه واقتصاد ووقوف مع رسم العلم والإخلاص ومتابعة السنة. وبهذه الأمور الستة تتم الإستقامة وبالخروج عن واحد

منها يخرجون عن الاستقامة إما خروجاً كلياً أو جزئياً. والذي يهمنا هنا التأكيد على أصلين:

تفريط (بدعة) ....(سنة واقتصاد) .... افراط (بدعة)

فإن الشيطان إن وجد في الإنسان ميلاً عن السنة جاءه من باب الخروج عن الاعتصام بها وإن وجد فيه حرصاً عليها جاءه من باب الغلو فيها فالأولى بدعة (التفريط) والثانية بدعة (الإفراط).

قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وإما إلى افراط ولا يبالي بأيهما ظَفِر زيادةٍ أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو – وكذا صح من حديث أبي هريرة - :"لكل عمل شِرّة، ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك" والشرة: النشاط والهمة./ ص.ت (٥٦)(٥٧).

فإذن لابد من التأكيد على الاجتهاد باقتصاد والإخلاص باتباع. قال ابن مسعود رضي الله عنه: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة ولأهمية هذا الأثر فإليك مصادره: الدرامي في سننه. كتاب العلم. باب كراهية أخذ الرأي رقم (٢٢٨) طبعة الغمري وأبو شامة في "الباعث" وأحمد في الزهد والحاكم في المستدرك. كتاب العلم. وابن نصر في السنة برقم (٩١) طبعة البصيري وبرقم (٢/٧٦) طبعة خالد عثمان. واللالكائي (٩٩/١ برقم (١١٤)) طبعة الغامدي.

وابن عبدالبر في الجامع. باب الحصن على لزوم السنة والاقتصاد عليها. والخطيب في الفقيه والمتفقه باب تعظيم السنن. وابن بطة الإبانة كتاب الإيمان (١/برقم (١٦١)) طبعة رضا نعسان. والطبراني في الكبير (١٠٤٨٨) فهذه مصادر عشرة لهذا الأثر وهو صحيح كما في ص.ت (٤١) وصححه أيضاً في الضعيفة (٣٩١٧) وذكر مصدراً حادي عشر وهو البيهقي في السنن باب القصد في العبادة والجهد في المداومة. كتاب الصلاة (١٩/٣).

وكذا جاء هذا الكلام عن ابي الدرداء كما عند اللالكائي مقارناً لأثر ابن مسعود وكذا صح عن الحسن كما في الصعيفة (٣٩١٧) وعن عمر بن عبدالعزيز بل وفي قول غير واحد من السلف يعرف ذلك من يراجع هذا الباب الذي عقده غير واحد من مصنفي أهل السنة والجماعة ففي هذه المصادر المذكورة ذُكرت آثار كثيرة تدل على التمسك بالسنة بلا زيادة ولا نقصان بل "كتاب الاعتصام" في صحيح البخاري هو من هذا الباب وأرى أن يُقرأ كتاب السنة للمروذي لتأكيد هذا الباب.

ثم ههنا أشير إلى ما ذكره البيهقي في هذا الباب فإنه دال أشد الدلالة على لزوم الاقتصاد:

١- قصة عبدالله بن عمرو بن العاص نهاه النبي ﷺ عن صيام الدهر وقيام الليل كله وبيّن له المفاسد في ذلك. خ م.

٢- وقال أنس: كان رسول الله ﷺ لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته: خ.

٣- وقال أنس: كان يصوم من الشهر حتى نقول: ما يريد أن يفطر شيئاً ويفطر من الشهر حتى نقول: ما يريد أن يصوم منه شيئاً وما كنا نشاء أن نراه من الليل مصلياً إلا رأيناه ولا نراه نائماً إلا رأيناه. قلت: وهذا لا يكون إلا من كان حاله وسطاً وهذا هو القصد.

٤- وعن عائشة قالت: يا رسول الله هذه الحولاء بنت تويت زعموا أنها لا تنام الليل فقال رسول الله ﷺ : "ولِمَ ل تنام الليل خذوا من العمل ما تطيقونه فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا"م. وعند خ م "لا يمل حتى تملوا" وفي رواية "مه عليكم بما تطيقون".

٥- وعن أنس: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل مشدود بين اسرايتين فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا الحبل لزينب تصلي فإذا فترت تعلقت به فقال ﷺ : حُلوُّه ليصل أحدكم بنشاطه فإذا فتر فليقعد" خ م.

٦- وعن ابي هريرة قالك قال رسول الله ﷺ : "ما منكم من أحد ينيجه عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، سددوا وقاربوا – أو قرّبوا – وروحوا واعذوا وخُطا من الدلجة والقصد القصد تبلغوا" خ.

٧- وله عنه مرفوعاً: "إن هذا الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة".

٨- وعند خز عن بريدة – وله قصة – أن النبي ﷺ قال: "عليكم هدياً قاصداً فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه" قال ﷺ لما رأى رجلاً يكثر الركوع والسجود.

٩- حديث سلمان في ص.ت (٦٣٣).

٦- ما يُخرج عن الإستقامة:

١- كما سبق الخروج عن الإقتصاد. ٢- وكذلك الرياء. ٣- وكذلك الفتور والتواني ونحو ذلك.

٧- ما يعين على الإستقامة:

١- معرفة الفرق بين الأمر والنهي والثواب والعقاب والموالاة والمعادة وما يحبه الله تعالى ويرضاه وما يكرهه ويسخطه. وهذا كله إنما يكون بالبقاء مع نور اليقظة.

٢- وكذلك أن تسأل الله عزوجل فتقول: "اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" وكذلك تدعوا بدعاء الحسن: "اللهم أنت ربنا فارزقنا الإستقامة".

٣- وكذلك الصحبة الصالحة. قال عمر وبن قيس الملائي: "إن الشاب لينشأ، فإن آثر أن يجالس أهل العلم كاد أن يَسْلم وإن مال إلى غيرهم كاد أن يعطِب". /الإبانة.

وقال ابن شوذب الخراساني: إن من نعمة الله على الشاب إذا تنسّك أن يواخي صاحب سنة يحمله عليها".

٣٦- منزلة التوكل.

١- أصل هذه الكلمة وَكَل يِكِل: أصل يدل على اعتماد على غيرك في أمر. ومن ذلك الوُكَلة مثل هُمزة وتُكلة والوَكَل: الرجل الضعيف. والتوكل منه: وهو اظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك. وسُمّى الوكيل: لأنه يُكل إليه الأمر ويُعتمد عليه فيه/ ابن فارس.

٢- التوكل نصف الدين إذا الدين مجموع في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ والتوكل هو الاستعانة. العبادة شرع والتوكل قدر. العبادة ألوهية والتوكل ربوبية. وقد تكرر هذا الأصل الذي في الفاتحة في عدة مواضع من القرآن سبق الإسارة إليها. ويدخل في ذلك ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾ فكونه علىالحق وكنهم على الهداية هذا هو العبادة.

٣- والآيات في كتاب الله عزوجل عن التوكل، وكذا الأحاديث النبوية كثيرة، نذكر شيئاً منها مع استنباط بعض الفوائد.

- أمر الله عزوجل عباده بالتوكل في غير ما آية وعلى رأس المأمورين بذلك نبينا البشير النذير قال الله عزوجل له: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فالتوكل يكون على من يملك النفع والضر الحي الذي لا يموت. والتوكل لازم الإيمان.

- وأثنى الله تبارك وتعالى على المتوكلين فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ....وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾. وقال تعالى في إبراهيم والذين معه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ..... ﴾ ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ وهذا في رسله الكرام.

وقال تعالى في أصحاب محمد ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ..... ﴾.

ونبينا ﷺ أعظم المتوكلين بل سمّاه الله تبارك وتعالى المتوكِّل كما في التوراة: "أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل"/ خ تفسير سورة الفتح باب ٣، ص.د المفرد (١٨٥).

- والتوكل من أخص صفات الذين يدخلون الجنة بغير حساب/ خ م عن ابن عباس.

- والتوكل أعظم سلاح في زمان الفتن كما في خ عن ابن عباس: "حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ..... ﴾.

- ومن ثمرات التوكل الرزق بلا عناء ولا كلفة كما في الترمذي وابن ماجه عن عمر مرفوعاً: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"/ الصحيحة (٣١٠).

- ومن ثمراته الهداية والوقاية والكفارية كما في الترمذي وأبي داود عن أنس أن النبي ﷺ قال: "من قال – يعني إذا خرج من بيته – بسم الله توكلت على الله ولا حولة ولا قوة إلا بالله يقال له: هُديت ووقيت وكُفيت فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي"/ص.ج (٦٤١٩).

٤- **التوكل أوسع المنازل** ولا تزال منزلته معمورة وذلك لكثرة حوائج العالمين وسعة متعلَّق التوكل ويختلف الناس في توكلهم باختلاف متعلَّق التوكل.

- فأولياؤه وخاصته من الأنبياء وأتباعهم الذين يهمهم نصرة الدين وعزته يتوكلون على ربهم في ذلك: (جهاد الأعداء ونصرة الدين وتنفيذ أوامره واجتناب

نواهيه وتحقيق محابه) وهذا أوسع التوكل وهذا توكل في الخارج. ومنه قوله تعالى عن الرسل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ..... ﴾.

- ودون هؤلاء من يتوكل عليه سبحانه في استقامة نفسه وحفظ حاله مع الله فارغاً عن الناس وهذا توكل في الداخل.

- ودون هؤلاء من يتوكل عليه سبحانه في تحصيل رزق وعافية ونحو ذلك. (واعلم أن من صدق توكله في حصول شئ ناله). وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، فيصرف توكله إلى حاجة جزئية يمكن نيلها بأيسر شيء ولْيُقرأ كلام الشيخ بحروفه ص ٥٤٦-٥٤٧. ودليل حديث الصحيحة (٢٩٣٧) وهو في هداية الرواة (٥٢٤١) ولْيُقرأ من هناك.

٥- حقيقة التوكل ودرجاته.

منهم من قال: هو عمل القلب لا قول باللسان ولا عمل بالجوارح ولا علم القلب وهذا قول الإمام أحمد.

ومنهم من قال: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

ومنهم من قال: خمود حركة القلب وانطراحه بين يدي الرب وترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار.

ومنهم من قال: هو الرضا بالمقدور.

ومنهم من قال: هجر العلائق ومواصلة الحقائق.

قال ابن القيم: وحقيقة الأمر أن التوكل حالة مركبة من مجموعة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها وكلٌّ أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

وهذه الأمور ثمانية:

١- معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته – قلت: كما في دعاء الاستخارة – وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل. ولذا لا يُتصور التوكل من فليسوف ولا قدري ولا جهمي وعلى قدر هذه المعرفة يكون التوكل.

٢- الأخذ بالأسباب فإنها لا تقدح في التوكل، بل التوكل نفسه سبب كالدعاء، فالذي يترك الأسباب زاعماص التوكل نقول له يلزمك على اعتقادك ترك التوكل لأنه من الأسباب، والتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعاً وحساً. والنبي ﷺ -وأصحابه- سادات المتوكلين كانوا يأخذون بالأسباب الكونية والشرعية، فأما الشرعية فهذا لا يُجارون فيها، وأما الكونية فقد لبس ﷺ يوم أحد درعين، وكان يحمل الزاد إذا سافر، وكان يدّخِر لأهله قوت سنة واستأجر دليلاً يدله في طريق الهجرة.

وههنا قواعد في "التوكل والأسباب" علّقت بها على باب من الشرك لُبس الحلْقة ..../ كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ولتُقرأ من هناك.

ونؤكد هنا على أن حال القلب قيامه بالله لا بالأسباب، وحال البدن قيامه بالأسباب. المهم أن الأسباب في اليد لا في القلب.

٣- لا يصح توكل المشرك وذلك أن قلبه أُخذ منه شُعب بقدر شركه فينقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشُّعَب. فإذن رسوخ التوكل برسوخ التوحيد.

٤- اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكون إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكن إليها وإنما السكون إلى مسبِّبها.

وعلامة هذا: عدم المبالاة بإقبالها وإدبارها وعدم اضطرابه عند ادبار المحبوب منها واقبال المبغوض لأن اعتماده على الله والسكون إليه حصّنه من خوفها ورجائها. ومثال ذلك: المتوكل كالطفل لا يعرف إلا ثدي أمه وكذلك المتوكل: لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه وتعالى.

٥- حسن الظن بالله ورجاؤه سبحانه وتعالى: فإنه يدعو إلى التوكل عليه وحده. ولا يُتصور التوكل على من تسيء به الظن ومن لا ترجوه.

٦- استسلام القلب لله وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته وهو قول بعضهم "اسقاط التدبير" يعني الإستسلام لتدبير الرب لك لكن هذا فيما يفعله بك سبحانه لا فيما أمرك أن تفعله (أي أن هذا في باب القدر لا في باب الشرع). المهم أن تقوم بما عليك وتستعين الله تعالى على أن يفعل بك الخير والتوفيق.

٧- التفويض إلى الله عزوجل كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ اختياراً ومحبة لا اضطراراً وكراهية. وأنت لا تفوّض الأمر إلى الله إلا لإرادته أن يقضي لك ما هو خير لك في المعاش والمعاد وإن كان المقضي خلاف ما تظنه وخفيت عليك جهة المصحة. والتوكل: تفويض وزيادة فإنه إذا فوّض أمره إلى الله اعتمد بقلبه عليه بعد تفويضه كمن فوّض أمره إلى رجل فإنه يجد من نفسه بعد هذا التفويض اعتماداً خاصاً وسكوناً وطمأنينة إلى المفوَّض إليه.

٨- الرضا بعده. فبعد التوكل يرضى بالمقدور. وذلك أن المقدور يكتنفه التوكل قبله والرضا بعده. فالرضا ثمرة التوكل. وهذا واضح في دعاء الاستخارة الذي اشتمل على أمور مرتبة: توكل وتفويض ثم وسيلة ثم دعاء ثم رضا. قال بشرا لي في: يقول أحدهم توكلت على الله، يكذب على الله لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

٦- أوهام واشتباهات في باب التوكل:

١- اشتباه التفويض بالاضاعة. فيضيّع ظاناً أن هذا تفويض.

٢- اشتباه التوكل بالراحة. فيلقى الحمل ويظن أنه متوكل.

٣- اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فالخلع عدم الاعتماد عليها والركون إليها والتعطيل إلغاؤها.

٤- اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق أن الواثق قد فعل ما أُمر به والمغر فرّط ومع ذلك يزعم الوثوق.

٥- اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه بالطمأنينة إلى المعلوم ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة كما يُذكر عن أبي سليمان الداراني أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول إلا شُربة من ماء زمزم فمض عليه أيام فقال له يوماً: أرأيت لو غارت زمزم أيَّ شيء كنت تشرب؟ فقام وقبّل رأسه وقال: جزاك الله خيراً حيث أرشدتني فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم (قلت: أي إلى السبب) وعلامة ذلك أنه متى انقطع ملعومه حضر همه وبثه وخوفه. ولو كان توكله على الله حقاً لما تغير حاله عند انقطاع السبب.

٦- اشتباه العلم بالحال وذلك ليس خاصاً بالتوكل بل بجميع المنازل فحال المتوكل أمر آخر من وراء العلم به.

المهم أن هذا الباب يكثر فيه اشتباه الدعاوى بالحقائق والعوارض بالمطالب. والذي ينفع في التمييز هو منزلة البصيرة.

٣٧- منزلة الثقة.

١- ويِق يثِق من باب ورِث. كلمة تدل على عقد وإحكام ومنه الميثاق لأن معقود محكم ورجل ثقة تثق به، ربطتَّ أمرك بتصرفه وكذلك الثقة بالله: تعقد أمرك بتصرفه سبحانه وهذا مقتضاه أنك رضيت أن يكون أمرك مرهوناً بتصرفه سبحانه فمهما تصرف سبحانه بك فأمرك ناشيء عن هذا التصرف وأنت راضٍ به.

٢- وتأمل ثقة أم موسى بالله عزوجل لما ألقت وليدها في اليم، هذا لا يفعله إلا واثق بالله عزوجل واعلم أن هذه الثقة خصوصاً هي محض تفضُّل من الله عزوجل وإلا فهوالله لو تُلي القرآن بكامله وفُسّر وصار واضح المعاني لأشد امرأة إيماناً ما فعلت مثل هذا الفعل إلا بتفضُّل الله عزوجل وافاضته لمثل هذه الثقة.

٣- الثقة هي بداية البدايات وبها كمال النهايات والغايات، فالتفويض والتسليم والتوكل كلها ناشئة عن الثقة بالله عزوجل فهي كالنقطة للدائرة والسويداء للقلب والسواد للعين. قلت: والمحرّك لأي ىلة كهربائية بل هي الكهرباء نفسها. وكذلك هي كالروح للبدن.

٤- عرفتَ أن الثقة مِنّة من الله عزوجل كما تنزل السكينة ولكنها تتولد أيضاً بأسباب أعظمها المعرفة بالله عزوجل ثم الإيمان بالقضاء والقدر. ولذا كان عنوان الثقة: أمن العبد من فوت المقدور وانتقاص المسطور فيكون راضياً وإلا موقناً وإلا صابراً وهذا هو التسليم.

- والتسليم: ١- تسليم للحكم الشرعي كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ .... ﴾ فذكر ثلاث مراتب: (تحكيم – سعة صدر – تسليم). ٢- تسليم للحكم القدري: وهو الرضا بالقضاء الذي هو فعل الله عزوجل ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان وأما إذا كان مصائب فنرضى بالمقضي أيضاً.

- وأول التسليم أن لا تطلب دليلاً على الله فإنه هو الدليل وهو سبحانه أوضح وأظهر من الدليل عليه وإنما تطلب الدليل إليه سبحانه وهو الرسول ﷺ في حياته وسنته بعد مماته. وكيف تطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء كما قالت الرسل: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾. ولذا لم تأت الرسل باثبات الصانع – كما عليه هؤلاء الذي أضاعوا أعمارهم في ذلك حيث يطلبون الدليل على ما هو حاصل في فطرهم أإذا كانت الشمس طالعة يُطلب عليها الدليل؟!. وإنما جاءت الرسل بالدليل إلى الله عزوجل وهو عبادته سبحانه وتعالى.

- وتمام التسليم يكون بالخلاص من. ١- كل شبهة تعارض الخبر. ٢- ولك شهوة تعارض الأمر ومن ذلك الهوى. ٣- وكل ارادة تعارض الإخلاص. ٤- وكل اعتراض يعارض القدر والشرع. وذلك أن التسليم ضده المنازعة فإذن لا تنازع بشبهة ولا بشهوة ولا بإرادة ولا باعتراض.

- والتسليم هو الصديقية التي هي بعد النبوة. مع العلم ا، التسليم أثر من آثار الثقة بالله عزوجل. فاعرف مقادير الأشياء وأوزانها ولا تكن من الغافلين.

٣٨- منزلة الصبر.

١- الصبر لغة: الحبس والكف. يُقال صبرت نفسي على هذا الأمر أي حبستها. قال: فصبرتِ عارفةً لذلك حُرةٌ ترسو إذا نَفْسُ الجبان تَطلّعُ يريد نفسه. والمصبورة: المحبوسة على الموت. وفي مسلم وغيره عن جابر: "نهى أن يُقتل شيء من الدواب صبراً"/ ص.ج (٦٨٣٩) وسُمي الكفيل صبيراً لأنه يُصبر على الغُرم./ معجم المقاييس. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ ....﴾ أي: أحبس نفسك معهم.

٢- ومن هذا المعنى اللغوي يظهر لك أن الصبر هو حبس النفس بالقلب واللسان والجوارح - فيحبس القلب عن الجزع والسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عن التشويش. على الشرع والقدر/ قاله أبو عبدالرحمن. وسيتضح هذا عند بيان أنواع الصبر.

٣- الصبر واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإنه نصفان: نصفٌ صبر ونصف شكر.

٤- قال الإمام أحمد: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً واستقرأ ابن القيم هذه المواضع وصنّفها إلى ستة عشر نوعاً:

١- الأمر به: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

٢- النهي عن ضده: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾: أي لا تضعفوا.

٣- الثناء على أهله: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾.

٤- كونه تعالى يحب الصابرين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

٥- كونه تعالى معهم: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

٦- اخباره سبحانه بأن الصبر خير لأصحابه: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

٧- الجزاء للصابرين بأحسن أعمالهم: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٨- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

٩- اطلاق البشرى لأهل الصبر: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

١٠- ضمان النصر والمدد لهم: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ ....يُمْدِدْكُمْ ﴾ وقوله ﷺ: "واعلم أن النصر مع الصبر".

١١- اخباره سبحانه بأن أهل الصبر هم أهل العزائم: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ الصبر أعظم ما يتجلى فيه عزيمة الإنسان.

١٢- الاخبار بأنه لا يُلَقّى الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر كما قال تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ قلت: وفي الآيتين قول أخر هو: وما يقبل هذه الكلمات وهذه الوصية وينتفع بها إلا الذين صبروا لأن الانتفاع بمثل هذه الكلمات يحتاج إلى صبر. قلت: فبان أن أكثر الناس في زماننا تجاه الموعظة غير صابرين لأنهم لا يقبلونها.

١٣- الاخبار أنه لا ينتفع بالآيات والعِبَر إلا أهل الصبر: قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ ....إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

١٤- الاخبار بأن الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المروه المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر. قلت: في ذلك آيات منها ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

١٥- أنه يورث صاحبه درجة الإمامة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

١٦- اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان والتقوى والتوكل والعمل الصالح كما قال تعالى في سورة العصر: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

٥- ومنزلة الصبر منزلة عظيمة وكثرت في ذلك الأحاديث وألّف في ذلك ابن أبي الدنيا "كتاب الصبر" ومما يُقتنص منه لبيان منزلة الصبر النصوص الآتية.

- خ م عن أبي سعيد في قصته تقسيم الغنائم في غزوة حنين قال ﷺ: "ومن يتصبر يصبره الله ولم يعط أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" صدّر به ابن أبي الدنيا كتابه فأحسن أيما إحسان.

- حديث أبي ثعلبة الخشني بشواهده في الصحيحة (٤٩٤) "إنه من ورائكم أيام الصبر للعامل فيهن مثل أجر خمسين منكم".

- خ م في قصته الأنصار لما قسّم النبي ﷺ غنائم حنين فوجدوا في أنفسهم قال ؟: "إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".

- وشكا الناس الحجاج إلى أنس فقال: "اتقوا الله واصبروا فإنه ليس من عام إلا والذي بعده شر منه حتى تقوم الساعة"/ خ مرفوعاً.

- وقال علي بن أبي طالب: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فلا إيمان لمن لا صبر له.

- وقال عمر بن عبدالعزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزع وذلك أن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

- وقيل لسعيد بن جبير: الصبر أفضل أم الشكر فقال: الصبر والعافية أحب إليّ.

- وقال النبي ﷺ: "الإيمان الصبر والسماحة"./ الصحيحة (٥٥١-٥٥٤) قيل للحسن ما الصبر وما السماحة قال: الصبر عن محارم الله والسماحة بفرائض الله. وقال ابن القيم: وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهاناً وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها على آخرها فإن النفس يراد منها شيئان: بَذل ما أُمرت به واعطاؤه فالحامل عليه السماحة، وتَرْك ما نُهيت عنه فالحامل عليه الصبر.

- وقال لقمان الحكيم: حقيقة اليقين الصبر وحقيقة العمل النية.

- وقال عيسى ابن مريم: خشية الله وحب الفردوس يباعدان من زهرة الدنيا ويورثان الصبر على المشقة.

- وقـال ﷺ: "صـبراً آل ياسـر فـإن موعـدكم الجنـة" فلـم يـذكر لهـم إلا الصـبر/ الأرنؤوط (٤٣٩) يتقوى بطرقه.

- وقال النبي ﷺ للمرأة التي تبكي عند القبر: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".

- وقال ﷺ: "عجباً لأمر المؤمن..." الحديث رواه مسلم عن صهيب.

- وقال عطاء بن أبي رباح: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة هذه المرأة السوداء التي كانت تُصرع واختارت الصبر والجنة على دعاء النبي ﷺ لها بالشفاء.

- وقال أبو ميمون: إن للصبر شروطاً: إن تعرف كيف تصبر ولمن تصبر وما تريد بصبرك وتحتسب في ذلك وتحسن النية فيه.

- وما صَبْرُ أيوب عليه السلام في البلاء ثماني عشر سنة عنا ببعيد / الصحيحة (١٧) وليُقرأ من هناك. ولكن هذا صبر اضطراري وكذا صبر يعقوب على فقد يوسف بخلاف الصبر الاختياري كما في صبر أولي العزم من الرسل وصبر الخليل والذبيح.

- وفي خ عن خباب لما شكا إلى النبي ﷺ: "ألا تدعو لنا ألا تستنصر لنا..... فقال النبي ﷺ ...... ولكنكم تعجلون".

- وكذا صبر هذا الغلام مع الملك الجبار/ م عن صهيب.

- ومن الصبر، الصبر على كلمة تسمعها حتى لا تجر إلى ما هو شرمنها قال عمرو بن العاص: إني لأصبر على الكلمة لهي أشد علَيّ من القبض على الحجر ما يحملني على الصبر عليها إلا التخوف من أخرى شر منها.

- وقصة أبي قلابة عبدالله بن زيد الجرمي رواه ابن حبان في الثقات (٥٠٣١٥) وفيها لما رئى في المنام في روضة خضراء قيل له: ما الذي صيرك إلى ما ترى؟ فقال: وردت من الصابرين على درجة لم ينالوها إلا بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

- أنشد أعرابي عُذري:

عليك بتقوى الله واقنع برزقه ... فخير عباد الله من هو قانعُ
ولا تُلهك الدنيا ولا طمعٌ بها ... فقد أهلك المغرور فيها المطامعُ
وصبراً على نوبات ما ناب واعتبر ... فما يستوي عبد صبور وجازع
ألم تر أهل الصبر يُجزوا بصبرهم ... بما صبروا والله راءٍ وسامعُ
ومن لم يكن في نعمة الله عنده ... سوى ما حوت يوماً عليه الأضالعُ
فقد ضاع في الدنيا وخُيّب سعيه ... وليس لرزقٍ ساقه الله مانعُ

- في الصحيحة (١٦٦٤): "المعونة من الله على قدر المُؤْنة والصبر على قدر البلاء".

- سُئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبلها.

- قيل لعابد في بيت المقدس أوصني. قال: عليك بالصبر والتصبر والاصطبار قال:

أما الصبر: فالتسليم والرضا بنزول المصائب والبلوى وتواطين النفوس عليها قبل حلولها.

وأما التصبر: فتجرُّع مرارتها عند نزولها ومجاهدة النفس على هدوئها وسكونها.

وأما الاصطبار: فاستقبال ما ينزل من المصائب والبلوى بالبشر والطلاقة.

- **والصبر على عشرة أوجه**: عن المعاصي، وعلى الفرائض، وعلى الشبهات، وعلى الفقر، وعلى الأوجاع، وعلى المصائب، وعلى أذى الناس، وعن الشهوات، وعن فضول الكلام، وعلىالنوافل.

قلت: يجمع ذلك: الصبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى أقدار الله المؤلمة. الأولان يتعلقان بكسب الأنسان والثالث: لا كسب له فيه. ومراتب الصبر بحسب ما ذكر فالصبر علىالطاعة أعلى من الصبر عن المعصية وهذان أعلى من الصبر على الأقدار ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقائه في الجب لأن الأول صبر اختيار لا سيما مع قوة الدواعي.

٦- مراتب الصبر:

١- الصبر بالله: فصبرك بربك لا بنفسك: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

٢- الصبر لله: محبة له سبحانه وارادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق.

٣- الصبر مع الله: تدور مع أحكامه حيث دارت أي صبر مع مراده الديني سبحانه وتعالى. تجعل نفسك وقفاً على أوامر الله تعالى ومحابه. وهذا أشد أنواع الصبر.

كما قال الجنيد: المسير من النفس إلى الله شديد والصبر مع الله أشد. وسئل عن الصبر فقال: تجرُّع المرار من غير تعبُّس.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية.

وقال الخوّاص: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

٧- تراتيب آخر لمراتب الصبر:

صابر: أعم

مصطبر: المكتسب الصبر المليء به: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴾.

متصبر: المتكلف حامل النفس عليه.

صبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره (كيف).

صبّار: الكثير الصبر (كم).

وأما المصابرة: فهي الصبر على الصبر ولذا فُسّرت بأنها بينك وبين عدوك كما في قوله تعالى: ﴿ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ – وهذا من اقتران الصبر بالتقوى – والمرابطة الحبس على الطاعة ومنها

الرباط في الثغور ومنها المذكور في خ عن سهل بن سعد مرفوعاً: "ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا...".

٨- **الصبر الجميل**: هو الذي لا شكوى فيه – أي إلى المخلوق – ولا ينافيه الشكوى إلى الخالق. والدليل على هذا قول يعقوب عليه السلام: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وكما أخبر تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ثم قال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾. المهم أن لا تشكو على المخلوق؛ أتشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم كما أنشد أحدهم:

وإذا عَرَتْك بليةٌ فاصتبر لها … صَبْرَ الكريم فإنه بك أعلم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما … تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

٩- **أظهر معاني الصبر**: حبس النفس على المكروه. قلت: والطاعات من المكروه كما قال ﷺ: "حفت الجنة بالمكاره". وهو أصعب المنازل على العامة (لان العوام مبتدئون ويجزعون عند البلاء والمحن وليس لهم دُربة في السلوك) وأوحشها في طريق المحبة.

لأن المحنة مع المحبة لذة وهي بحاجة إلى صبر فإذا لم يوجد تحول من الأنس إلى الوحشة. فإذن حاجة المحب إلى الصبر ضرورية حتى لا تحصل الوحشة. ثم قوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب دليل على صحة المحبة. فالأعظم

محبة أشدهم صبراً، وسقطت الدعاوى الكاذبة في المحبة لأنهم عند الابتلاء لم يصبروا. ولهذا وصف الله تعالى أولياءه وأحبابه بالصبر. ثم اعلم أن النفرة من البلاء طبعاً لا تقدح في المحبة لأن هذا طبع النفس. فلا مناقضته بين المبحة والصبر إلا من كان صبره لغير الله.

١٠- الخوف من الوعيد مفيد جداً في حمل النفس على الصبر عن المعاصي المعزة بالإيمان وأعلى من ذلك الحياء لأنه فيه ما يدل على المراقبة وحضور القلب. الأول قلبه حاضر مع العقوبة والثاني قلبه حاضر مع الله. ولنعقد هنا مقارنة:

الخوف	الحياء
- قلبه حاضر مع العقوبة	- قلبه حاضر مع الله.
- مراعٍ لجانب نفسه.	مراعٍ لجانب ربّه.
-	- أقرب إلى مقام الإحسان.
- يحمل على ترك المعصية.	- يحمل على فعل الطاعة.

١١- الصبر على الطاعة يكون بثلاثة أشياء . ١- دوام الطاعة. ٢- الاخلاص فيها. ٣- وقوعها على مقتضى العلم (المتابعة).

١٢- الصبر على الأقدار المؤلمة (سواء كانت ربانية صرفة أو بشرية، والكل قدر) يُستعان عليه بثلاثة أشياء: ١- ملاحظة حسن الجزاء. ٢- انتظار الفرج

(وأن الفرج مع الكرْب). ٣- تهوين البلية وذلك. أ- بَعدِّ النعم. ب- وتذكُّر سوالفها. (حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها.

٣٩- منزلة الرضا.

١- الأصل اللغوي للرضا معروف ولذا تجد أصحاب القواميس يقولون: هو ضد السخط.

٢- **حكم الرضا:** أجمعوا على أنه مستحب واختلفوا في وجوبه وممن قال باستحبابه ابن تيمية رحمه الله قال لأنه لم يؤمر به كما أُمر بالصبر وإنما جاء الثناء على أهله. وأما أثر "من لم يرض بقضائي...." فهو إسرائيلي لا يصح.

٣- **لماذا اختلفوا في وجوبه؟** لأن بعضهم قال: الرضا مكسوب فهو مقدور للإنسان فلا يمتنع إيجابه. وبعضهم قال: بل هو موقوب فكيف يجب. وتوسط البعض فقال: بدايته مكسوبة فيكون مقاماً ونهايته وموهوبة فيكون حالاً. قال ابن القيم: والتحقيق أنه كسبي باعتبار سببه موهبي باعتبار حقيقته فمن تمكن في أسباب الرضا جناه وهو آخر التوكل فمن رسخ في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولابد ولكنه عزيز فلذلك رحم الله العباد ولم يوجبه عليهم بل ندبهم إليه.

قلت: الرضا بالقضاء الذي هو فعل الله عزوجل واجب لأنه داخل في الرضا بالله ربا. وأما المقضي فهو الذي فيه الخلاف المذكور آنفاً. / وانظر القول المفيد لابن

عثيمين رحمه الله. ثم ذكر ابن القيم ما يبين تحقيقه من خلال حديثين: م عن العباس مرفوعاً: "ذاق طعم الإيمان...." والآخر م عن سعد مرفوعاً: " من قال حين يسمع النداء رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولاً غفرت له ذنوبه" وعلّق عليهما بتعليقات تُرأ من هناك ص ٥٧٦.

وخلاصة كلامه أن هذين الحديثين فيهما أن أسباب الرضا مكتسبة. وهذا الكلام المذكور في الحديثين هو خلاصة ما نحن فيه فإن ما نحن فيه: ربٌّ مدبر فيجب توحيده بالإسلام وذلك كله عن طريق الرسول ﷺ فهو الذي أخبر عن الرب وهو الذي جاء بالإسلام الذي يُعبد به الرب وحده لا شريك له.

٤- أسباب حصول الرضا: أن تلزم ما جعل الله عزوجل رضا فيه كما قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصور فيما يعامل به ربه يقول: "إن أعطيتني قَبِلتُ وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدتُ وإن دعوتني أجبت".

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب فإذا باشر القلب حقيقةُ العلم أدّاه إلى الرضا. وأيضاً الطمأنينة والسكينة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾ فالذي جعلها راضية (ومن ثَمّ مرضية) هو الطمأنينة والسكينة إلى الله عزوجل. وهذا القول الصحيح أنه يقال لها عند الموت وعند البعث ويوم القيامة.

٥- الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة ليسا كالخوف والرجاء المنقطعين بحصول المرجو والأمن من المخوف فإن قيل الرجاء في الجنة موجود لما ينالونه من الكرامة قلنا: بلى لكنه غير مشوب بشك.

٦- **الإحساس بالألم والمكاره لا ينافي الرضا:** فشرط الرضا هو عدم الاعتراض على الحكم ولا يتسخطه وليس من شرطه ألا يُحس بالألم والمكاره. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه قالوا: كيف نقول بالرضا مع الكراهية وإنما هو الصبر. والصواب أنه لا تناقض بينهما كما يرضى المريض بالدواء الكريه ورضا الصائم بألم الجوع والعطش في اليوم الشديد الحر ورضا المجاهد بألم الجراح.

٧- **طريقة الرضا** مختصرة موصلة لأَجَلِّ غاية لكنها شاقة ومع ذلك فهناك ما يهوّنها: ١- الهمة العالية. ٢- توطين النفس على كل مايرد عليها من الله. ٣- علم العبد بضعفه في مقابل رحمة الله عزوجل به فكيف لا يرضى بالبر الرحيم.

٨- **ثمار الرضا:**

١- الفرح والسرور بالله عزوجل وقال شيخ الإسلام لابن القيم لما ذكر له أنه رأى في منامه يذكر شيئاً من أعمال القلوب ويعظّمه فقال له شيخ الإسلام أما أنا فطريقتي "الفرح بالله والسرور به" قلت: نعم والله فإنه لتأتي لحظات

على الإنسان لا يكون لها مخرج إلا هذا، وخاصة في زمان الضيق فنَفِّس عن نفسك بذلك.

٢- عدم تمني غير ما اختار الله عزوجل له (رفع اختيار العبد).

٣- الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

٤- تمام العبودية بجريان القدر بما يكرهه.

٥- رضاك عن ربك يثمر رضا الرب عنك كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ وقال: ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾.

٦- التخليص من الهم والغم والحزن وشتات القلب وسوء الحال لأن هذه كلها بسبب السخط، فتنفتح له جنة الدنيا قبل الآخرة وذلك لأنه يصبح مطمئناً مستكيناً. فإذن من أعظم النعم السكينة ومن أعظم أسبابها الرضا.

٧- التخليص من مخاصمة الرب في أحكامه وأقضيته فقد كانت مخاصمة اللعين لربه بسبب عدم رضاه عنه في ذلك.

٨- في الحديث: "ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك" ومن لم يرضى بالعدل فهو من أهل الظلم والجور، وعدله سبحانه في القضاء يشمل قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته، الثاني ظاهر والأول فإنه سبحانه قضى عليه بالذنب لغلته عنه فإن قلوب الغافلين معدن الذنوب وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر يستحيل صدور الذنب لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ ..... ﴾ فإن قلت: ولماذا جعله من الغافلين؟ قيل: هذا طبع النفس أنه إذا خُلِّى بين العبد ونفسه ترتب على ذلك آثاره من الغفلة والنسيان.

فإن قلت: هلا خلقه على غير هذه الصفة؟ قيل: هذا سؤال فاسد لأن هذا مقتضاه أن يكون الإنس كالملائكة والله له حكمة في خلق الإنس فإن قلت: هلا أعطاه التوفيق؟ قيل: هذا مضمونه هلاّ سوّى بين خلقه ولِم خَلق المتضادات؟وهذا من أفسد الأسئلة فإذن المخرج الحكمة.

٩- التخلص من السخط لأجل فوات ما ينفعه وحصول ما يضره حسب اعتقاده.

١٠- سلامة القلب من الغش والدغل والغل وتستحيل سلامة القلب مع السخط.

١١- السلامة من الشك الذي سببه السخط وحصول اليقين فإن الرضا واليقين أخوان والسخط والشك أخوان.

١٢- من ملأ قلبه من الرضا بالقدر ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة وفرّغ قلبه لعبادته سبحانه، فالرضا يفرّغ القلب لله والسخط يفرّغ القلب من الله.

١٣- الرضا يثمر الشكر الذي هو أعلى مقامات الإيمان بل هو حقيقة الإيمان والسخط يوجب الكفر.

١٤- السلامة من الشيطان فإن الشيطان يظفر بالإنسان غالياً عند السخط ولذلك قال ﷺ: "........ ولا نقول إلا ما يرضي الرب" وذلك أن هذه الحال الناس يسخطون فيها ويقولون مالا يرضى الرب.

١٥- الرضا يُخرج الهوى من القلب فالراضي هواه تبع لما يحبه ربه ويرضاه

١٦- نيك الرضوان من الرب الرحمن في الفردوس والجنان: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ وحديث: "اليوم أرضى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً".

١٧- التخلص من ١- ارضاء الناس بسخط الله. ٢- وذمهم على مالم يؤته الله. ٣- وحمدهم على ما هو عين فضل الله. (قلت: وإن كان يشكرهم لحديث : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

١٨- أن الرضا من أعمال القلوب وأعمال القلوب لا حد لثوابها بخلاف أعمال الجوارح.

٩- أقسام الرضا: ١- رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ٢- رضا الخواص بما قدّره وقضاه. ٣- رضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

١٠- أرفع الرضا: الرضا بالله ربا وهو عبادته وحده لا شريك له وهي مبنية على الرضا به مدبراً ومعنياً. والآيات الثلاثة في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ هي هي الذي قال ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام

ديناً وبمحمد ﷺ نبياً" وتفسير الرضا بالله رباً: أن يسخط عبادة ما سواه، هذا هو الرضا بالله إلها، وهو من تمام الرضا بالله ربا فمن أعطى الرضا بالله رباً حق سخط عبادة ما سواه قطعاً لان الرضا بتجريد الربوبية يستلزم تجريد عبادته. ولذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾: سيداً وإلهاً.

قلت: لكن أبدى الإمام البحر الحافظ اللقّاط أبو الفدا ابن كثير معنى حرياً بالقبول: قال: هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت الآية قبلها إلخلاص العبادة وهذا المعنى يُرن بالآخر كثيراً في القرآن أ.هـ. وكذا قرّر السعدي فقال: أيليق بي أن أتعلق بهؤلاء الأرباب الفقراء العاجزين وأترك الله عزوجل الذي هو رب كل شئ.

١١- يوتلوه الرضا عن الله: هو الرضا عنه سبحانه في كل ما قضى وقدّر وها هنا مقارنة طويلة بين الرضا بالله والرضا عنه سبحانه.

الرضا بالله	**الرضا عن الله**
- مختص بالمؤمنين	- مشترك يصح من المؤمن والكافر.
- فرض لا يصح الإسلام إلا به.	- مستحب عن أكثر العلماء.
- يتضمن الرضا عنه ويستلزم لأنه رضا بقضائه وشرعه وجزائه.	-

- يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته (رباً وإلهاً وحكماً) وغيرها من صفاته سبحانه فإذن متعلق: (الأسماء والصفات).	- رضا بما يفعله سبحانه ويعطيه أو يمنعه ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء في أربع سور من القرآن (المائدة – براءة – المجادلة- البينة) وكذا في سورة الفجر. فإذن متعلقه: (الثواب والجزاء)
- أصل الرضا عنه.	ثمرة الرضا به.
- عُلقِّ به ذوق طعم الإيمان.	-
- يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله واتخاذه معبوداً ووليا دون ما سواه وسخط عباده ما دونه وهذا قطب رحى الدين الذي إذا لم يكن، لم تدر رحاه.	-
- ثمرته ذوق طعم الإيمان ثم بالحب والاخلاص يجد حلاوة الإيمان.	- ثمرته رضا الله عنهم بعد الثواب والعقاب لكن هذا بعد الرضا به سبحانه.
- قبلية.	- بعدية.

١٢- المشيئة والقضاء لا يستلزمان المحبة والرضا فقد يشاء الله عزوجل ويقضي بما لا يحبه ويرضاه وذلك لما في ذلك من الحكم العظيمة فإنه سبحانه أحكم الحاكمين ولذا وجب الرضا والتسليم ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وتأمل ما في خلق إبليس الذي هو مادة الشر من الحكم العظيمة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ...... قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ وانظر لبعضها ما ذكره الشيخ ص٥٩٢. وهنا تقسيم هام:

- الرضا بالقضاء الشرعي واجب وهو أساس الإسلام كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ...... ﴾ .

- الرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وارادته: هذا أمر لازم بمقتضى الطبيعة فليس في الرضا به عبودية بل العبودية في مقابلته بالشكر.

- الرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد: هذا مستحب على أصح قولي العلماء.

- الرضا بالقضاء الجاري عليه باختياره – مما يكرهه الله ويسخطه – كأن يكفر ويفسق ويظلم ويعصي فهذا حرام يعاقب عليه لكن هنا نقول كما قال شيخ: فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان. المهم أن يُعقل أنه سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه.

١٣- الدعاء لا ينافي الرضا: فإن من ألَحّ على ربه في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه فإن ذلك لا يقدح في مقام رضاه والقرب منه فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضا، المهم أن لا تلح متخيراً عليه سبحانه، لماذا لا يقدح؟ لأن حقيقة الرضا موافقة الرب في رضاه والملح في السؤال موافق لله في رضاه فهو في مقام الرضا لم يخرج عنه بل ترقى فيه.

٣٠- منزلة الشكر.

١- الشكر في اللغة: شَكِرَ يَشْكَرُ شَكَراً: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً فهو مثل سَمِن وزناً ومعنىً كما في الترمذي: "حتى إن الدواب تسمن وتَشْكَر شَكَراً من لحومهم"/ حم (١٠٦٣٢) وإسناده صحيح.

٢- الشكر: ظهور أثر نعمة الله على لسان العبد ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة. وهو مبني على خمس قواعد هي أساس الشكر وكل من تكلم في حد الشكر فكلامه راجع إليها ١- خضوع الشاكر للمشكور. ٢- حبه له. ٣- اعترافه بنعمته. ٤- ثناؤه عليه بها. ٥- أن لا يستعملها فيما يكره. وإذا تأملت في كلام المتكلمين في حد الشكر ستجده يرجع إلى ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى. وانظر بعضه في الكتاب.

٣- الشكر معه المزيد فمن لم يجد الزيادة فليستأنف الشكر. قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾.

٤- الشكر من أعلى المنازل وهو فوق الرضا وزيادة فالرضا مندرج في الشكر لأنه يستحيل وجود الشكر بدون الرضا.

٥- الشكر نصف الإيمان لأنه الإيمان صبر وشكر وقد أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن الجزاء واشتق لهم اسماً من أسمائه فهو سبحانه الشاكر والشكور، ورضى سبحانه عن الشاكرين. وأهله قلة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

وقال ﷺ: "أفلا أكون عبداً شكوراً". وقال ﷺ لمعاذ: "قل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك". ودعا ﷺ فقال: "اللهم إجعلني لك شكاراً لك ذكاراً"/ ص.ج (٣٤٨٥)، حم (١٩٩٧) أرنؤوط. حديث صحيح.

٦- ومن الشكر اظهار النعمة ونشرها لا كتمها فإن من كتم فقد كفر ولذا قال ﷺ: "إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده"/ الصحيحة (١٢٩٠). قال الشاعر:

ومن الرزية ان شكري صامت   عما فعلتَ وأن بّركَ ناطقُ

وأرى الصنيعة منك ثم أُسِرُّها   إني إذاً لِنَدَى الكريم لساقِ

والواجب تجاه النعمة أمور:

أ- معرفتها: استحضارها في الذهن فإن كثيراً من الناس تحسن إليه وهو لا يدري ولا يستحضر ذلك.

ب- قبولها: تلقيها بافتقار وأنها وصلت إليه بلا استحقاق.

جـ- الثناء على المنعم : وهو عام وخاص فالعام وصفه سبحانه بالجود والكرم والبر والإحسان. والخاص: التحدث بنعمه سبحانه كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ وفي الآية قولان:

الأول: ذِكرها فتقول أنعم الله علَيّ بكذا وكذا من ايوائك يتمياً وهدايتك من الضلال واغنائك من العيلة فإن الذكر شكر كما في حديث جابر مرفوعاً: "من صُنع إليه معروف فليَجْز به فإن لم يجد – ما يجزي به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ومن تحلّى بما لم يُعط كان كلابس توبَى زور" ص.د المرف (١٥٧) والصحيحة (٦١٧) وبعده (٦١٨) "من أُبلى بلاء فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره" فائدة: ذُكر في هذا الحديث أقسام الناس الثلاثة (الشاكر والكاتم والمدّعي للنعمة). وفي أثر آخر مرفوع: "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب" رواه أحمد/ ضعيف حم (١٨٤٤٩) أرنؤوط.

والقول الثاني: بلّغ الرسالة وتكلّم بما نبئت وأمرت أن تبلغه واتل القرآن. قاله مجاهد والزجاج والكلبي.

قال ابن القيم: والصواب أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها.

٧-والشكر سبيل رسل الله أجمعين: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ في نوح، ﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ ﴾ في إبراهيم، ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا ﴾ في داود وهو رفع المقامات ويندرج فيه جميع مقامات الإيمان حتى المحبة والرضا فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها.

٨- ومما يدل على عِظَم منزلة الشكر غايةً أنه سبحانه هو المنعم تفضلاً لا لحاجة ولا معاوضته ولا استعانة وهو الآمر بالشكر وهذه نعمة أخرى لأن منفعة الشاكر ترجع إليه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ ﴾ فليس شكر العبد مكافأة للنعم ومن ذا يستطيع مكافأة أدنى النعم عليه ثم هو سبحانه يرضى عن العبد ويحبه إذا شكر. وهذا غاية الكرم وهو المنعم وهو الموزع للعبد أن يشكر ثم يرضى ويحب العبد لأجل أنه يشكر ثم يزيده ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ .

٩- الشكر على المكاره أشد وأصعب من الشكر على المحاب ولا يكون إلا من أحد رجلين: رجل يستوي عنده المكروه والمحبوب فشكره هو مقام الرضا. والآخر: رجل يميز بين المكروه والمحبوب فلا يحب المكروه ولا يرضى بنزوله فإذا نزل به شَكَر الله تعالى عليه وذلك بكظم الغيظ وستر الشكوى ورعاية للأدب وسلوكاً لمسلك العلم فإن العلم والأدب يأمران بشكر الله تعالى في السراء والضراء. لكن الأول أرفع منه.

ملخص بالصبر والشكر من "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" لأبن القيم رحمه الله تعالى.

١- قبل وقوع البلاء فالعافية أوسع وبعد وقوع البلا فالصبر أوسع للعبد.

٢- أفضل الناس أصبرهم على النوعين: فعل الطاعة واجتناب المعصية لا كمن يكابد الليل قائماً ثم لا يصبر عن نظرة إلى امرأة والعكس.

٣- ينقسم الصبر باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به إلى:

واجب: وهو الصبر عن المحرمات وعلى أداء الواجبات وعلى المصائب التي لا صنع له فيها.

ومندوب: وهو الصبر عن المكروهات والصبر على المستحبات والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

ومحظور: مثل الصبر عن الطعام حتى يموت والصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة، فمن اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار قال طاوس ومسروق والإمام أحمد. وهل تحل له المسألة حينئذ؟ خلاف منع منه أحمد وقال: لو كان صادقاً- أي في تركه المسألة – قيض الله له رزقاً. وقال الشافعي: يجب عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصياً.

ومن الصبر المحظور الصبر على ما يقصد هلاكه من سبع أو حية أو حريق أو ماء أو كافر بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة فإنه مباح له بل يُستحب والأحاديث في مدح ذلك كثيرة منها "كن كخيري ابن آدم" "كن عبد الله المقتول" "دعه يبوء باثمك واثمه" "فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك" وقد

أثنى سبحانه وتعالى على استسلام خيري ابن آدم حيث قال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾.

وأما قتال اللصوص: فإن كان عن معصوم غيره وجب وإن كان عن نفسه فلا يجب الدفع ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة.

ومكروه: فأنواع: صبره عن الطعام والشراب واللبس والجماع حتى يتضرر بذلك بدنه، وصبره عن جماع زوجته إذا احتاجت ولم يتضرر. وصبره على المكروه وصبره عن فعل المستحب.

ومباح: كالصبر على الفعل مستوى الطرفين.

والخلاص: الصبر على الواجب واجب وعنه حرام. والصبر عن الحرام واجب وعليه حرام. والصبر على المستحب مستحب وعنه مكروه. والصبر على المكروه مكروه وعنه مستحب. والصبر على المباح مباح.

٤- الصبر على فعل المأمور أفضل وأجلّ من الصبر على ترك المحظور وذلك من عشرين وجهاً ص ٦٦-٧٤ ولعلها مستفادة مما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى.

٥- الصبر المذموم هو الصبر عن الله، وكيف يصبر المحب عن محبوبه الصبر يُحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يُحمد.

وأما الصبر المحمود فهو صبر بالله ولله. وقد سبق بيانهما أن الصبر به استعانة (ربوبية) والصبر له (ألوهية) وهي أعظم. وأما الصبر مع الله فهو الصبر بأنواعه الثلاثة (على الطاعة وعن المعصية وعلى الأقدار المؤلمة).

٦- الفرق بين صبر الكريم وصبر اللئيم أن الثاني يصبر اضطراراً لا اختياراً.

٧- الأسباب التي تعين على الصبر:

١- معرفة جزاء الصبر وأنه بغير حساب وفي المقابل معرفة عقوبة الجزع والسخط "ومن سخط فله السخط".

٢- معرفة ضرر المعاصي في الدنيا والآخرة.

٣- معرفة صفات الله تبارك وتعالى المتعلقة بالصبر.

٤- الدعاء أن تكن من الصابرين ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا ﴾ ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

٥- النظر في مصارع الظالمين ولذا قال تعالى بعد قصة سبأ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾.

٦- التأمل في الآيات والأحاديث النبوية التي تبين منزلة الصبر. وما أكثر الأحاديث في ذلك كما ذكرها ابن القيم.

٨- الصبر لا يستغنى عنه الإنسان فإنه بين حالين: حال عافية وحال بلاء وهو أحوج إلى الصبر في حال العافية أكثر منه في حال البلاء كما قيل: البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية إلا الصديقون وذلك أن لا يركن إليها ولا ينهمك في نيلها ويؤدي حق الله فيها ولا يصرفها في الحرام.

٩- الصبر نصف الإيمان والشكر النصف الآخر ووجه ذلك:

١- أن الإيمان فعل وترك فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو الشكر والترك هو الصبر عن المعصية.

٢- أن الإيمان مبني على ركنين: يقين وصبر: يقين قلبي وصبر على العمل.

٣- أن الدين كله رغبة ورهبة، الرهبة تحمله على الصبر والرغبة تقوده إلى الشكر.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ الأول هو الشكر والثاني هو الصبر.

١٠- أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

أولاً: ليُعلم أن كلاً من الصبر والشكر يدخل كل منهما في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به فلا شكر إلا بصبر ولا صبر إلا بشكر، وإنما يُعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر وإذا كان الصبر مأموراً به فأداؤه هو الشكر. قال ابن القيم: وهذه هي

مسألة الغني الشاكر والفقير الصابر. والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى. فإن فُرض استواؤها في القوى استويا في الفضل فإن الله لم يفضّل بالغنى والفقر كما لم يفضّل بالعافية والبلاء وإنما فضّل بالتقوى وهي مبنية على أصلين: الصبر والشكر، وكل من الغني والفقير لابد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل. ثم أورد ابن القيم اعتراضات وأجاب عنها ص ٢٣٨. والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحاناً للشكر والصبر: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

١١- الأمور المضادة للصبر:

١- الشكوى إلى المخلوق. وأما اخبار المخلوق بالحال إن كان للاستعانة بإرشاده ومعاونته والتوصل إلى زوال ضرره لم يقدح ذلك في الصبر كإخبار المريض الطبيب بشكايته وكان ﷺ إذا دخل على المريض سأله عن حاله وقال: كيف تجدك؟ وأما الأنين فإن كان أنين شكوى كُره وإن كان أنين استراحة وتفريج فلا يُكره.

والشكوى تكون بلسان المقال وبلسان الحال ولعلها أعظمهما بل قد يشكو وهو في حال الرخاء فهذا أمقت الخلق عند ربه وقذا يُسمى التحذيف.

٢- شق الثياب عند المصيبة ولطم الخدود وحلق الشعر والدعاء بالويل ولذلك تبرأ النبي ﷺ من الحالقة والصالقة والشاقة. حتى إن سعيد بن جبير رأى

مصاباً بابنه متقنعاً فقال: إياك والتقنع فإنه من الاستكانة (أي الجلوس في البيت بعد المصيبة).

٣- الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والنع عند ورود الرضفة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

١٢- مما يبين منزلة الصبر والشكر دخولها في صفات الرب سبحانه فالله سبحانه صبور شكور وقال ﷺ: "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله" وكذا في قصة ساقي الكلب قال ﷺ: "فشكر الله له فغفر له". لكن صبر الخالق سبحانه يكون:

١- عن قدرة تامة. ٢- ولا يخاف الغوث أي تأخره الذي يحصل للإنسان والعبد إنما يستعجل الخوف الغوث. ٣- ولا يلحقه بصبره الم ولا حزن ولا نقص.

والفرق بين الصبر والحِلم أن الصبر ثمرة الحِلم فعلى قدر حلم العبد يكون صبره والحِلم في صفات الله تعالى أوسع من الصبر ولذا جاء اسم الحليم في غير ما موضع من القرآن. وأما شكره سبحانه فهو يغفر الكثير من الزلل ويشكر القليل من العمل.

١- انظر كيف يخرج من النار أناساً لم يعملوا خيراً قط إنما أتوا بلا إله إلا الله.
٢- وانظر كيف يجازي عدوه بعمله الصالح في الدنيا ويخفف عنه به العذا بيوم القيامة وإن كان مخلداً في النار وانظر كيف يضاعف سبحانه وتعالى الأعمال أضعافاً مضاعفة. ٤- وانظر كيف شكر لسليمان عليه السلام لما عقر خيله لا،ها

شغلته عن ذكره سبحانه فعوّضه الريح مكانها. ٥- ولما خرج الصحابة من ديارهم عوّضهم الله تعالى بأن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم. ٦- وشكر ليوسف لما احتمل ضيق السجن بأن جعله على خزائن الأرض. ٧- والشهداء لما مزقوا أجسادهم في سبيله سبحانه أعاضهم عنها بالطير الخضر التي تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهار الجنة. وتأمل في كل هذا أنه سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه والمخلوق إنما يشكُر من أحسن إليه وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أوزعهم ليشكروا: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾.

ومن شكره سبحانه أن العبد يقوم له سبحانه في مقام يرضيه بين الناس فيشكره وينوّه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين كما شكر لمؤمن آل فرعون وكذلك صاحب يس.

٣١- منزلة الحياء.

١- **الحياء لغة من الحياة** وذلك أن حي القلب حيي وميته منعدم الحياء ومن ذلك الحيا وهو المطر. وقال ابن فارس: وهو ضد الوقاحة.

٢- قالوا في حد الحياء:

الجنيد: رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد الحياء منهما وحقيقته: خلُق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

الفضيل: خمس من علامات الشِقوة: القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة في الدنيا وطول الأمل.

يحيى بن معاذ: من استحيا من الله مطيعاً استحيى الله منه مذنباً أي استحيى الله أن يعاقبه على هذا الذنب فيتجاوز عنه فهذا حياء كرم وبر وجود كما أنه سبحانه يستحيى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً فالأول استحياء أن يعاقبه والثاني استحياء أن يرده بلا عطاء. وكذا يستحيى الله أن يعذب ذا شيبة في الإسلام. حديث : "إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن.... وإكرام ذي السلطان المقسط"/ ص.ج (٢١٩٩).

٣- الآيات والأحاديث في الحياء كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ أي فيستحي من رؤيته له.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي فاتسحيوا منه.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾

وأما الأحاديث:

- خ م عن ابن عمر مرفوعاً: "مر النبي ﷺ برجل – وهو يعظ أخاه في الحياء – فقال: دعه، فإن الحياء من الإيمان".

- خ م عن عمران مرفوعاً: "الحياء لا يأتي إلا بخير".

- خ م عن أبي هريرة مرفوعاً: "الإيمان بضع وسبعون شعبة... والحياء شعبة من الإيمان".

- خ م عن أبي سعيد: "كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خِدرها فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه".

- خ عن ابن مسعود مرفوعاً: "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت". وهذا تهديد معناه الخبر أي: من لم يستحِ صنع ما شاء.

- ت وحسّنه الألباني ص.ح (٩٣٥) وهداية الرواة (١٥٥١) مرفوعاً: "استحيوا من الله حق الحياء ....." فالحياء فعل الطاعة وترك المعصية وتذكر الموت حتى يستكثر من الطاعة وتذكر الآخرة حتى لا تقطع عليه الدنيا الاستكثار من الطاعة.

٤- أقسام الحياء عشرة:

١- حياء الجناية: كحياء آدم عليه السلام.

٢- حياء التقصير: كحياء الملائكة مع أنه يسبحون الليل والنهار لا يفترون يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

٣- حياء الإجلال: هو حياء المعرفة وعلى قدرها يكون.

٤- حياء الكرم: كحيائه ﷺ من الذين أطالوا الجلوس في وليمة زينب فنزل الحجاب.

٥- حياء الحشمة: كحياء علي أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان فاطمة عليها السلام.

٦- حياء الإستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عزوجل حين يسأله حوائجه احتقاراً لشأن نفسه واستصغاراً لها. وقد يكون له سببان أ- استحقار السائل نفسه واستعظام ذنوبه. ب- استعظام مسؤوله سبحانه وتعالى.

٧- حياء المحبة: إذا خطر المحبوب على القلب وكذا عند ملاقاته.

٨- حياء العبودية: حياء ممتزج من محبة وخوف وأن عبوديته لا تصلح لمعبوده.

٩- حياء الشرف والعزة: إذا صدر منه ما هو دون قَدْره من بذل وعطاء وإحسان.

١٠- حياء المرء من نفسه: كأن له نفسان يستحيى بإحدهما من الأخرى وهذا أعلى الحياء، لا يرضى لنفسه بالنقص.

٥- مراتب الحياء:

١- أول الحياء علم العبد بنظر الحق إليه. أ- فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة. ب- ويحمله على استقباح الجناية. جـ- ويُسكته عن الشكوى.

٢- وأرفع منه: الاستقباح الحاصل عن المحبة، فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف، وصاحب هذا الحياء لا يكشو إلا إلى ربه سبحانه.

٣- وأرفع منهما: حياء يتولد من النظر في علم القرب. أ- فيدعوه إلى ركوب المحبة. ب- ويربطه بروح الأنس. جـ- ويُكَرِّه إليه ملابسة الخلق.

أ- والنظر في علم القرب هو: تحقق العبد بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية معيتان. ١- عامة: بالعمل والإحاطة والإطلاع. ٢- وخاصة لأوليائه: وهي معية القرب وتتضمن الموالاة والنصر والحفظ.

"ومع" في لغة العرب لا تُشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة هذه المعية. وأما القرب في القرآن فلا يقع إلا خاصاً وهو نوعان: ١- قربه من داعية بالإجابة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ... ... ﴾. ٢- ومن عابده بالإثابة: حديث: "أقرب ما يكون العبد..." وحديث "أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل". وحديث: "لما كبّر الصحابة وهم في سفر فقال لهم النبي ﷺ: اربعوا..." وهذا القرب لا ينافي كمال مباينته لخلق واستوائه على عرشه فإنه ليس كقرب الأجسام ولكنه نوع آخر ألا ترى قرب رُوحين لمتحابين وبينهما مفاوز وألا ترى قرب نفوس المحبين للرسول ﷺ وأنهم أقرب إليه من جيران حجرته وكذا النفوس المشتاقة للكعبة مع أن هذه لا تقرب هي فكيف بمن يقرب من خلقه إذا شاء وهو مستوٍ على عرشه وأهل الذوق لا يلتفتون في هذا إلى شبهة معطل خَلِيّ من محبته سبحانه ومعرفته.

والحاصل أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى المحبة ثم يتولد عنها قرب آخر (قرب .... محبة ... قرب).

قلت: رحم الله ابن القيم فيما مثّل به من قرب النفوس من الرسول والكعبة فوالله إني لأجد شيئاً من هذا وأسأل الله تعالى المزيد ودَفْعَ وساوس الشياطين التي تريد أن تقطع على المحب طريقه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

(ب-جـ) ومن قرُب أَنِس وتعلق قلبه بالله أُنساً وهذا لا ريب يكرّه إليه ملابسة الخلق بل يجد الوحشة في ملابستهم وإن صحبهم صحبهم ببدنه ورسمه دون روحه وقلبه فإنهما مع محبوبه سبحانه وتعالى.

٣٢- منزلة الصدق.

١- **الصدق لغة**: مادة صدق أصل يدل على قوة في الشيء قولاً وغيره ومن ذلك الصدق الذي هو خلاف الكذب سُمّى كذلك لقوته في نفسه ولأن الكذب لا قوة له فهو باطل (أي ذاهب). وأصل هذا من قولهم: شيء صَدْق ورمح صَدْق أي صُلب ويقال صَدَقوهم القتال والصِّديق: الملازم للصدق. وصداق المرأة سُمى كذلك لقوته وأنه حق يلزم، ومن هذا الباب الصدقة، والمصدِّق: الذي يجمع الصدقات بأمر الإمام. والصداقة مشتقة من الصدق في المودة.

٢- منزلة الصدق بين بقية المنازل وثمارها:

١- تنشأ منه جميع المنازل (قلت: وهو لازم لجميعها لأنها بدونه باطلة فلابد أن يكون الفرار صادقاً والتوبة صادقة والتوكل صادقاً وهكذا بقية المنازل).

٢- **بها تميز الصادق من الكاذب** والمؤمن من المنافق فهو أساس بناء الدين وهو الدرجة التالية للنبوة.

٣- وأمر الله تعالى أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾.

٤- وجعل سبحانه أهل الصدق مع المنعم عليهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ ولهم مرتبة المعية مع الله والقرب منه.

٥- وقال تعالى: ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

٦- وتأمل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ .... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ فالصدق يكون بالظاهر والباطن وهو مقام الإسلام والآيمان.

٧- وقسّم سبحانه الناس إلى صداق ومنافق: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ .... ﴾.

٨- ولا ينفع العبد يوم القيامه وينجيه إلا الصدق: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ .... ﴾ ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ .... ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ .... ﴾ أي كان الصدق شأنه كله قولاً وعملاً وحالاً.

قولاً: استواء اللسان على الأقوال.

عملاً: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة.

حالاً: استواء الأعمال على الإخلاص.

والصِّدّيق أبلغ من الصدوق وهذا أبلغ من الصادق.

٣- **فروق بين:** مدخل الصدق، مُخرج الصدق، لسان الصدق، قدم الصدق، مقعد الصدق.

حقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إليه وهو ما كان له وبه من الأقوال والأعمال وجزاءُ ذلك في الدنيا والآخرة:

- فالمدخل والمخرج: كدخوله ﷺ المدينة ودخوله مكة وخروجه من مكة وخروجه إلى الغزوات وكذا دخول المساجد والخروج منها وكذا أمور الدنيا إذا كانت بالنية الصالحة.

- لسان الصدق: هو الثناء الحسن فقوله تعالى: ﴿ لِسَانَ صِدۡقٍ ﴾: الثناء الحسن. واللسان في اللغة له معانٍ: الثناء الحسن، واللغة: ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ والجارحة: ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾

- قدم الصدق: حقيقة القدم ما قدّموه وما يقدَموا عليه.

- مقعد الصدق: الجنة عند الرب سبحانه وتعالى.

ووصفُ ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق ودائم لا يزول.

٤- من علامات الصدق: ١- طمأنينة القلب إليه ومن علامات الكذب حصول الريبة كما في الحديث الصحيح: "الصدق طمأنينة والكذب ريبة"/ الارواء (٢٠٧٤). ومن علاماته:٢- البر كما في خ م عن ابن مسعود مرفوعاً: "إن الصدق يهدي إلى البر....". ومن علاماته:٣- البركة كما في خ م مرفوعاً عن حكيم بن حزام: "....فإن صدق وبيّنا بورك لهما في بيعهما...".٤- المسارعة إلى الخيرات. ٥- تحمل المشاق في سبيل مرضاة الله عزوجل وإلى ذلك الجهاد. ٦- الثبات على الحق وإن استوحش السالكين لقلتهم.

٥- حقيقة الصدق:

- استواء السر والعلانية.

- والصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة والمرائي ثابت على حالة واحدة وهي حالة الرسوم التي ارتضاها ولا يسعى إلى اصلاح قلبه. وسبب تقلب الصادق. أ- أن الصادق في طلب شيء لا يستقر له قرار كالمحب الصادق والصادق في طلب العلم وكالصادق في طلب الدنيا. ب- وأيضاً الصادق مطلوبه رضا الرب وما يرضي الرب متنوع يوجب التقلب. جـ- وأيضاً فحِمل الصدق كحمِل الجبال الرواسي فالصادق يتقلب تحته.﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

والخلاصة: أن الصادق باحث عن ارضاء ربه بكل ما يملك فكيف يستقر على حالة واحدة. وأما المرائي فإنما يحمل ما هو كالريشة أو أخف فلذا ثبت.

٦- أول الصدق صدق القصد وبه. أ- يُتلافى كل تفريط. ب- ويُتدارك كل فائت. جـ- ويُعمّر كل خراب.

وعلامة هذا الصادق. أ- أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض العهد. ب- ولا يصبر على صحبته ضد. جـ- ولا يقعد عن الجِد بحال.

أ- تأمل كيف قال: لا يتحمل لم يقل لا يقل لا ينقض العهد بل لا يتحمل أي داعية تدعوه إلى نقض فعُلم أن أعظم علامات الصادق الوفاء بالعهد كما قال أحدهم في حقيقة الصدق: الوفاء لله بالعمل.

ب- والضد هم أهل الغفلة وقطاع الطيق إلى الله فما للصادق وصبتهم بل ينفر منهم أشد النفرة ويشُم قلبه قلوبهم كما يشُم الروائح الخبيثة. حديث "الأرواح جنود مجندة.....".

جـ- وذلك أن اساس الصدق: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾ ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ ﴿ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾. وصاحب هذا الصدق لا يتمنى الحياة إلا للحق ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان كما روى عن عمر ومعاذ أنهم قالوا: لولا جياذُ الخيل في سبيل الله ومكابدةُ الليل وظَمَأُ الهواجر ومزاحمة العلماء ما أحبوا البقاء في الدنيا قلت: صح عنه ﷺ

أنه قال: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً"/ حسّنه الألباني في ص.ت وانظر ص.ج (٣٤١٤).

٣٣- منزلة الإيثار.

١- الإيثار مصدر آثر يُؤثر من باب آذى يؤذي إيذاء وآوى يؤوي إيواء، وأَثِر على أصحابه: اختار لنفسه أشياء حسنة وهي الأَثْرة وأما آثر فالعكس أي فضّل غيره على نفسه. قلت: وكل هذا راجع إلى الأثر وهو بقاء بعض الشيء ولو علامته، فالمُؤْثر عنده بقية باقية ليس عنده غيرها ومع ذلك يؤثر الآخرين بها على نفسه كما قال تعالى في وصف الأنصار: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

٢- والحامل على الإيثار الجود كما أن الحامل على الأثرة الشح وهو الحرص على الشيء حتى يحصل في اليد ثم يستأثر به (من الأثرة) أي يبخل به، إذن الجواد (الإيثار) والشح (البخل) (الأثرة) ولذا قال ﷺ: "إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبَخِلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"/ ص.د (١٤٨٩) عن عبد الله بن عمرو.

٣- مراتب العطاء ثلاث:

١- أن لا ينقض البذل ولا يصعب عليه: السخاء.

٢- أن يعطى الأكثر ويُبقي له شيئاً: الجود.

٣- أن يؤثر غيره بالشئ مع حاجته إليه: الإيثار.

٤- أنواع الجود: (١٠) وهي مراتب أيضاً.

١- الجود بالنفس: كما قال ﷺ في المرأة التي رُجمت "وهل وَجَدَتْ أفضل من أن جادت بنفسها لله عزوجل" / م عن عمران.

٢- الجود بالرياسة: ولعله يدخل في ذلك قوله ﷺ في الحسن: "إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين" لما تنازل لمعاوية عن الخلافة عام ٤٠ وهو عام الجماعة.

٣- الجود بالراحة والرفاهية: كما كان الصحابة يحرسون النبي ﷺ قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وكذا حارسا الشعب الذي قتل أحدهما وكذا سهر بلال لمراقبة الفجر ليلة أن ناموا عن صلاة الفجر وغير ذلك.

٤- الجود بالعلم: وهو أفضل من الجود بالمال ويدل عليه حديث ابن عباس في خ م: "وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل..." وتمامه أن تبذله لمن لم يسأله وتستقصي – لمن سأل – في بيانه فتأتي بجواب الحكيم كي ينتفع كما قال ﷺ في البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" وكذلك من تمامه التنبيه على علة الحكم كما في وضع الجائحة: "بم يأخذ أحدكم مال أخيه".

٥- الجود بالجاه والشفاعة: حديث: "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته" ولا يأخذ على الشفاعة شيئاً يشترطه فإن ذلك ربا كما في الصحيحة لكن إن كافأه فلا بأس بالمكافأة.

٦- الجود بمنفعة البدن: حديث: "يصبح على كل سلامى صدقة" وفيه "ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها صدقة ... ويميط الأذى عن الطريق صدقة".

٧- الجود بالعِرض: كما في قصة أبي ضمضم قال: اللهم إنه لا مال لي وقد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حِل" لكن القصة ضعيفة/ الارواء (٢٣٦٦). وفي هذا الجود سلامة الصدر وراحة القلب.

٨- الجود بالصبر والاحتمال والإعفاء: وهو جود الكبار، جود الفتوّة قال تعالى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

٩- الجود بالخُلُق والبِشر والبَسَطة: حديث: "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلِق" "تبسمك في وجه أخيك صدقة".

١٠- الجود بتركه ما أيدي الناس: فلا يلتفت إليه لا بالعين ولا بالقلب ولا اللسان: قال تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ .... ﴾ وقال ابن المبارك: إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل.

- بداية الارتقاء في مدارج الإيثار أن تُؤثر الخلق على نفسك فيما. أ- لا يخرم عليك ديناً. ب- ولا يقطع عليك طريقاً. جـ- ولا يُفسد عليك وقتاً.

أ- فلا تَجُد عليهم بالطعام والشراب والمال ثم تقعد أنت تتكفف الناس.

ب- طريق السير إلى الله عزوجل فلا يكن الإيثار معوّقاً لمواصلة السير.

جـ- وقتاً في ذكر الله تعالى وتحصيل العلم إلا في قضاء حاجة من نصر مظلوم وإغاثة لهفان.

- ثم يرتقي المؤثر حتى يؤثر رضا الله على رضا غيره وإن أصيب في ذلك بما أصيب، ولو أغضب الخلق جميعاً وهذه درجة الأنبياء ومن تبعهم في الدعوة إلى الله عزوجل. وتعظم المحنة على صاحب هذه الدرجة ليتأخر من ليس من أهلها، ثم تنقلب هذه المحن منحاً ونعماً ومَسَرّات. ثم من آثر أحداً على مرضاة الله فإن النقمة تأتي من جهته وتُجعل المحنة على يديه، ثم رضا الخلق غاية لا تدرك وهو لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور بل لابد من سخطهم عليك مهما فعلت، فاجعل غايتك ارضاء ربك سحبانه وتعالى ثم قد قال ﷺ: "من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، وكَلَه الله إلى الناس"/ الصحيحة (٢٣١١) صب/ عن عائشة.

ومن سعى في ارضاء ربه فلابد أن يعاديه الخلق من الجهال والمبتدعة وأهل الرياسات الباطلة. ومما يعين على لبلوغ هذه الدرجة. ١- الزهد في الحياة. ٢-

وفي الثناء. ويعين عليهما (صحة اليقين – وقوة المحبة) ويعين عليهما (صدق اللَجأ والطلب – واتخاذ الأسباب الموصلة إليها).

٣٤- منزلة الخُلُق.

١- في القاموس: الخُلُق: السجية والطبع والمرءة والدين. ومما يدل على الأخير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ قال ابن عباس: لعلى دين عظيم وهو دين الإسلام. ودين الإسلام متضمن في القرآن ولذا قالت عائشة: "كان خلقه القرآن" لما سألها سد بن هشام عن ذلك كما في م. وهذا مما يبين أن الخُلق مكسوب كبقية أمور الدين وأنه من التقوى وأما عطفها عليها في حديث معاذ فكما قال ابن رجب للنصيص على المهم أعني حديث: "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن. قال ابن القيم في حديث: "البر حسن الخلق": وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام. قال جعفر بن محمد : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾. ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أي من أخلاقهم وما بذلوا ولا تستقصِ. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم . ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وذلك أن الداعي إلى الخير لابد له من مخالف وموافق والمخالف يجهل فيعرض عنه ولا ينتقم لنفسه وإن كان يقيم فيه حكم الله عزوجل.

٢- لما قال ﷺ: "البر حسن الخلق" وقال: "البر ما أطمأنت إليه النفس" عُلم أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. وهذا بخلاف حسن الخلق وسوئه في عرف الناس. فحسن الخلق البر وسوؤه الإثم.

٣- منزلة حسن الخلق في الكتاب والسنة:

- وصف الله تعالى لدين الإسلام الذي هو أعظم الأديان وأحبها بالخُلق فالشيء العظيم يعظِّم الاسم الذي يُسمى به. كل هذا في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

١- خ م عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً: "خياركم أحاسنكم أخلاقاً".

٢- ت عن أبي الدرداء مرفوعاً: "ما من شئ أثل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذئ". / الصحيحة (٨٧٦).

٣ -ت عن أبي هريرة مرفوعاً: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله وحسن الخلق" قلت: أي تقوى الله في حق وفي حق الناس.

٤- ت عن عائشة مرفوعاً: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم". / الصحيحة (٢٨٤).

٥- د عن عائشة مرفوعاً: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم". / ص.ج (١٩٣٢).

٦- ت عن أنس و د عن أبي أمامة مرفوعاً: "أنا زعيم ببيت .... في أعلى الجنة لمن حسن خلقُه" فجعل البيت العلوي جزاءً لأعلى المقامات وحسن الخلق مشتمل على ما ذُكر قبله من ترك المراء وإن كان محقاً وترك الكذب وإن كان مازحاً.

٧- ت عن جابر مرفوعاً: "إن من أحبِّكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدَكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون.....".

٤- أركان حسن الخلق:

١- الصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحِلم والأناة والرفق وعدم العجلة.

٢- العفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء الذي هو رأس كل خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

٣- الشجاعة: تحمله على عزة النفس ومعالي الأخلاق وعلى البذل الذي هو شجاعة النفس كما قال تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وكظم الغيظ والحِلم ولذا قال ﷺ: "ليس الشديد بالصُرَعة.....".

٤- العدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفين هما الافراط والتفريط كخلق الشجاعة وسط بين الجبن والتهور والحِلم الذي هو بين الغضب والمهانة.

٥- أركان سافل الخلق:

١- الجهل: يعكس عليه حقيقة الأمور فيرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

٢- الظلم: يحمله على وضع الشئ في غير موضعه فيغضب حيث يكون الرضا ويرضى حيث يكون الغضب، ويتواضع حيث يكون العزة ويتكبر حيث يكون التواضع.

٣- الشهوة تحمله على الحرص والبخل وعدم العفة والجشع والذي والدناءة.

٤- الغضب: يحمله على الكبر والحسد والحقد والعدوان والسّفه. ويتركب من كل خلقين من هذه الأخلاق أخلاق مذمومة فالأخلاق الذميمة يولد بعضها بعضاً. ويمكن جمع هذه الأربعة في أمرين. ١- إفراط النفس في الضعف

(المهانة – البخل – الذل – الحرص.....) ٢- وإفراطها في القوة (الظلم – الغضب – الفحش....)

٦- كل خلق محمود مُكْتَنَف بخلقين ذميمين: وهو وسط بينهما وطرفاه خلقان ذميمان وأمثلة ذلك:

التفريط		الإفراط
البخل	الجود	التبذير
الذل والمهانة	التواضع	الكبر
العجز	الحياء	الجرأة والوقاحة
الجزع والهلع	الصبر	قسوة قلب وتحجر طبع
الذي والمهانة	الحِلم	الطيش
تفريط وإضاعة	الأناة والرفق	عجلة وطيش
الجبن	الشجاعة	التهور
الرضا بالدون	التنافس والغبطة	الحسد
الخِسة	القناعة	الحرص
ضعف قلب وجبن نفس	الرحمة	القسوة
التعبس (يسبب الوحشة والنفرة)	طلاقة الوجه والبِشر	الاسترسال في البشر (يُذهب المهابة ويزيل الوقار ويُطمع في جانبك)

(ضعف قلب وجبن نفس) كمن لا يذبح الشاة ولا يؤدّب الولد ولا يقيم الحد ويزعم أن ذلك من الرحمة، والنبي ﷺ فعل هذا ذبح – وأيّ ذبحٍ (٦٣) بدنة – وأقام الحدود ورجم حتى ما ت المرجوم ومع ذلك كان أرحم الخلق.

٧- أصعب ما في الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طُبعت النفوس عليها: وها هنا مذاهب:

أ- قوم أرادوا التغيير بالرياضات والمجاهدات والعبادات الشاقة لكنهم ما بدلوا، نَعَم النفس مشغولة بتلك الرياضات فتبدو أنها تبدلت والواقع غير ذلك بدليل أنه إذا وُجد سبب ظهور هذه الأخلاق ظهرت وكسرت جيش الرياضات كمن امتنع من الزواج زهداً، فإذا خلا بامرأة فعل الفاحشة والعياذ بالله. (هذه الطائفة رامت قطع دابر هذه الأخلاق كمن رام قطع ينبوع نهر يهدّم البنيان بالطوفان).

ب- قوم قاوموا الضد بالضد: الأخلاق السيئة موجودة فيعادلون هذا بالأعمال الصالحة وتثبيتها حتى لا تأكلها هذه الأخلاق السيئة (هذه الطائفة انشغلت بتثبيت البنيان والدور حتى لا يؤثر فيها هذا النهر المهدّم).

جـ- طائفة موفقة: قالوا هذه الأخلاق جواهر ودُرٌّ في صَدَف وهي كالماء يسقى به الورد ويُسقى به الشوك فنوجّه هذه الصفات بما فيه الصلاح (كالنهر يوجّه إلى الأرض القابلة للنبات فينبت الزروع والثمار فتحصل به الفائدة ويُجتنب اهلاكه وطوفانه على البنيان).

مثال ذلك الكِبر: ماء يُسقى به. أ- العلو والفخر والبطر والعدوان.ب- وفي المقابل يسقى به علو الهمة والأنفة والحميّة ومراغمة الأعداء.

فأبوا ذلك الكبر على حاله في أنفسهم لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع كما في الحديث الصحيح: "إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة وأما الغير التي يبغض الله فالغيرة في غير الريبة وأما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل في القتال واختياله عند الصديق وأما الخيلاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في البغي والفخر"/ حم دن حب عن جابر بن عتيك/ الأرواء (١٩٩٩) وقال: حسن.

قلت: فهؤلاء أهل التعديل لا التبديل وليعلم هنا أن تزكية النفوس يُسَلَّم فيه إلى الرسل كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا .... ﴾ وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولًا .... ﴾ فالرسل أطباء القلوب وعلاج القلوب – الذي هو تزكية النفوس – أصعب من علاج الأبدان.

٨- أساس الأخلاق: وهو والله كما ذكر "أساس" فإنني قد جرّبته فوجدت أثره، أنظر في الناس مسلمهم وكافرهم فأرحمهم عند علمي بجريان القدر عليهم وأنهم محبوسون به فإذا عرفت ذلك استفدت ثلاثاً. ١- أمن الخلق منك: فلا تطالبهم إلا بما في وسعهم. ٢- محبة الخلق إياك: لأنك ترحمهم. ٣- نجاة الخلق بك: لأنك ستدعوهم.

وها هنا (١١) مشهداً فيما يصيبك من أذى الخلق: (وهي مرتّبة).

١- مشهد القدر: فتعتبر أذاهم كأذى الحر والبرد والمرض، كُلٌّ بالقدر فتستريح.

٢- مشهد الصبر: وعاقبته في الدنيا من السرور والتخلص من ندامة الانتقام وفي الآخرة من الأجر الذي بغير حساب.

٣- مشهد العفو والحِلْم: ففيه السكينة وشرف النفس والعز كما في م مرفوعاً عن أبي هريرة: "وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً".

٤- مشهد الرضا: وخاصة إذا كان هذا الأذى في الله عزوجل فيرضى به لأن في رضا محبوبه عزوجل.

٥- مشهد الإحسان: تحسن إلى من آذاك لأنه أهدى إليك حسناته والهدية والهبة تقتضي الثواب بالإحسان إليه فهذا مما يهوّن عليك هذا المشهد وكذلك يهوّنه أن الجزاء من جنس العمل: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ قال: ثم قال مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسئ ليسجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال: ﴿ ٱدْفَعْ

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ثم قال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥﴾ أي ما يُلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح. قلت: ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥﴾ فلا تحصل هذه الصفة إلا بكسب من العبد بالصبر وقبل ذلك بتوفيق من الله تعالى ولذا كان ﷺ يدعو بالهداية لأحسن الأخلاق ويقول "لا يهدي لأحسنها إلا أنت" والله أعلم.

٦- مشهد السلامة وبرد القلب: سلامة قلبك وجمعيته على ما ينفعه هو غايتك فإن انشغلت بأذى الناس لتنتقم – أو بأي شئ آخر – حصل التشويش وضاعت لذة الاقبال على ما ينفعك فإنها والله اللذة التي لا تُداني.

٧- مشهد الأمن: تأمن – إن لم تنتقم – من عداوة من انتقمت منه فالعفو والصفح يكسر شوكة عدوك.

٨- مشهد الجهاد: إذا جاهدت في سبيل الله – وخاصة في زماننا ١٤٢٦هـ - جهاد الدعوة فإنك قد بعت نفسك ومالك وعِرضك لله فلا ترضى بالثمن من غيره ولا حق لك على من آذاك ألا ترى أن المهاجرين مُنعوا من سكنى مكة لأنهم تركوها لله عوجل وكذلك لم يُضَمّن الكفار ديات من قتلوا منهم. وقد عزم الصديق على تضمنين أهل الردة ما أتلفوه من النفوس والأموال

فقال عمر بمشهد من الصحابة: "تلك دماء وأموال ذهبت في الله" فاجتمع الصحابة على كلمته ومعهم الصديق.

٩- مشهد النعمة: أذى الناس لك نعمة! نعم والله وذلك من وجوه:

أ- كونك مظلوماً تنتظر النصر نعمة بدلاً أن تكون ظالماً تنتظر المقت.

ب- تكفير الخطايا بهذا الأذى كما قال ﷺ: "ما أصاب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى إلا كفّر الله به عن خطاياه". فالذنوب أدواء وأذى الناس لها داء لكنه كريه.

جـ- أذى الناس بلية لكنه أهون من غيرها ومن كان سالماً في دينه فكل بلية هينة وإنما البلية كل البلية والمصيبة كل المصيبة مصيبة الدين وبلية الدين.

١٠- المشهد العاشر مشهد الأسوة: الأسوة بالأنبياء الذين هم أشد الناس أذية من أقوامهم وكذلك ورثتهم من العلماء الربانيين وقد ألّف ابن عبد البر: "محن العلماء".

١١- مشهد التوحيد: الموحّد حقاً ليس في قلبه متسع لشهود أذى الناس له فضلاً عن الاشتغال بالانتقام، وفقلب الموحّد شبعان بغذاء التوحيد فلا يتطلع إلى ما دونه.

٩- هذه المشاهد لا تتم إلا بتحسين الخلق مع الله عزوجل: ويتم ذلك بقاعدتين: أ- أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجِب عذراً لأنك ناقص في الشر والخير. ب- وأن كل ما يأتي من الحق سبحانه يوجب شكراً.

١٠- مدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على كلمة الشيخ الجيلاني: (كمن مع الحق بلا خلق وكن مع الخلق بلا نفس) ما أجمعهما من جملتين لجميع الأخلاق.

١١- من أعظم وسائل تحصيل الخلق الدعاء وفي ذلك أحاديث:

أ- "اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق.....".

ب- "اللهم كما حسّنت خلْقي فحسّن خُلُقي......".

جـ- أحد أدعية الاستفتاح: "اللهم اهدني لأحسن الأخلاق...." م/عن علي.

د- "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق".

٣٥- منزلة التواضع.

١- التواضع: التذلل، تواضع الرجل: ذَلّ، وتواضعت الأرض: أنخفضت عما يليها. وأصله من الوضع وهو ضد الرفع. والمراد ذل الهَوْن وهو الرفق واللين لا ذل الهوان فالهون لأهل الإيمان والهوان لأهل الكفران.

٢- قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي متواضعين. وقال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وعدّاه بعلي ليضمنه معنى العطف والحنو فهو ذل الهَوْن لا ذل الهوان.

وروى أحمد وغيره عن العرباض مرفوعاً: "المؤمن كالجمل الأَنِف حيثما انقيد انقاد".حم (١٧١٤٢) وهو حديث العرباض المشهور وهذه الجملة في آخر الحديث. لان من السنة ما هو ثقيل على النفس ولا تسمح به إلا بالإيمان. ومثله: "المؤمن يألف ويُؤلف" الصحيحة (٤٢٦).

- وفي م عن عياض بن حمار مرفوعاً: "إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد". قلت فالكبر أوله فخر وآخر بغي.

- وفي م عن ابن مسعود مرفوعاً: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه...." وفسّر الكبر بخلاف ما قد يتوهمه بعض الناس من الثوب والنعل والمركوب.

- وفي خ م عن حارثة بن وهب مرفوعاً: "ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جوّاظ مستكبر".

- وفي خ م عن أبي هريرة مرفوعاً: "احجت الجنة والنار .....".

- وفي م عن أبي سعيد مرفوعاً: "يقول الله عزوجل: العزُّ إزاري والكبرياء ردائي....".

- وقال ﷺ: "يُحش المتكبرون أمثال الذر......" ص.ج (٨٠٤٠) حسن.

- وعند ت وله شواهد: "ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ - تحرم على كل قريب هيّن ليّن سهل"./ الصحيحة (٩٣٨)/ ص.ج (٢٦٠٩).

- وأخلاقه ﷺ في التواضع أكثر من أن تُحصر وانظر شمائله ﷺ في ص.ج فصل كان وكذا في شمائل الترمذي.

- كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

- وتأخذ الأمة بيده فتنطلق به حيث شاءت.

- وكان إذا أكل لَعَق أصابعه الثلاث.

- وكان يكون في خدمة أهله.

- ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

- وكان يخصف نعله ويْرقَع ثوبه ويحلب شاته ويعلف البعير ويأكل مع الخادم ويجالس المساكين ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما ويبدأ من لقيه بالسلام ويجيب دعوة من دعاه.

- وكان هيّن المؤنه لين الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساماص متواضعاً من غير ذلة جواداً من غير إسراف رقيق القلب رحيماً بكل مسلم.

قلت: قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .... ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ .... ﴾.

- وكان يعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحما ويجيب دعوة العبد.

- روح التواضع وحقيقته: الخضوع للحق والانقياد له وقبوله ممن قال ولا تعارض صولته بصولة الكِبْر فإنه متى غمصهم أكل حقوقهم.

ركن التواضع الأهم هو التواضع للدين. ولذا وُصف الكفار في غير ما موضع بالكبر) قال تعالى: (استكباراً في الأرض) وابليس هو رأس المستكبرين. وهو أ- أن لا يعارض بمعقول منقولاً. ب- ولا يتهم للدين دليلاً. جـ- ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً.

أ- لا يعارضه بالمعارضات الأربع السارية في العالم: المعقول (أهل الكبر من المتكلمين) والقياس (أهل الكبر من المنتسبين إلى الفقه) والذوق (المتكبرون المنحرفون من الصوفية) والسياسة (المتكبرون المنحرفون من الولاة والأمراء الجائرين) فيتخلق منها جميعا.

ب- بل تتهم فهمك وآراء الرجال الذين تتبعهم من دون الدليل فليكن ردك لهذا أيسر من ردّك للنصوص ثم اعلم أن الآفة ليست في الدليل وإنما في الذهن العليل. وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم. وإذا لم تفهم النص فذلك لأنك لم تمحّض الإخلاص والمتابعة.

جـ- إنّ من خالف النص لقول شيخه ومتبوعه، مَن خالفه في ذلك أجل النص أولى بالعذر بل الأول ليس بمعذور لكن لو تنزلنا أنه كذلك فمن خالفه لأجل النص أولى بالعذر.

- ولا يصح ما تقدّم إلا بأن تعلم أنّ. أ- النجاة في البصيرة. ب- والاستقامة بعد الثقة. جـ- والبينة وراء الحجة.

أ- قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ وهي كسبية ووهبية فمن نظر في أدلة الحق استنارت بصيرته ورزقه الله فرقاناً.

ب- ال استقامة إلا بعد الثقة بصحة العلم وأنه مقتبس من النبوة.

جـ- ظهور الحق إنما يكون بعد الحجة.

- جمال التواضع. ١- أن ترضى أخاً من رضيه الله تبارك وتعالى لنفسه عبداً فهو عبد مثلك فلِم لا تؤاخه. ٢- وأن لا ترد على عدوك حقاً؛ لأنه حق. ٣- وأن تقبل من المعتذر معاذيره ولا تفتّش فيها بل تقول لعلها كما تقول. وقد قَبِل ﷺ أعذار المنافقين على ظاهر الحال.

- تمام التواضع: أن لا ترى لنفسك حقاً على الله لأجل عملك ولا ينافي هذا ما أحقّه سبحانه على نفسه من إثابة عبده كما في حديث: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد......" رواه خ م. والعبد لا يستوجب على الله بسعيه نجاة ولا فلاحاً بل الفضل كله لله عزوجل.

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عُذبوا فبعدله أو نُعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

٣٦- منزلة الفُتُوّة.

- الفتوة: فُعُولَة أصلها فُتُويَة وقُلبت الياء واواً وأُدغمت في الواو قبلها. فهي على هذه الوزن كالمروءة والبطولة والكهولة. هي ترجع إلى الفتى وهو الشاب الحديث السن كما أن المروءة ترجع على المرء والإنسانية ترجع إلى الإنسان. وصفات الإنسانية المفارقة لـ ١- الحيوانية: الشهوة. ٢- الشيطانية (الكبر – الحسد – العلو – الشر – البغي – الفساد- الغش) فالدواع ثلاث: أ- داعٍ حيواني (الشهوة) ب- داعٍ شيطاني . جـ- داع مَلكي: (ملك).

والفتوة هي: استعمال حُسن الخلق مع الناس: تحسن إليهم وتكف الأذى عنهم وتحتمل أذاهم. قلت: ومن جهلي أنني ما ظننت الفتوة إلا فتوة البدن فإذا هي فتوة النفس كما قال ﷺ: "ليس الشديد بالصُرَعة.......".

- هذه المنزلة الشريعةُ تسميها مكارم الأخلاق التي قال ﷺ: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

- هذه المنزلة تشتبه بمنزلتين أُخريين:

١- حسن الخلق: هو التخلُّق بالأخلاق الحسنة والتحلي بها.

٢- المروءة: أعم من (الفتوة: التي هي نتيجة حسن الخلق واستعماله)، فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد أو متعدٍّ إلى غيره وترك ما يُدنِّس ويشين من ذلك.

- أصل الفتوة: استرسال الناس في فضلك فلا تمنعهم من، وتَسَعُهم بخُلقُك بأخذ العفو منهم ولا تترك لنفسك رتبة بينهم كل هذا في حدود الشرع مع حفظ القلب مع الله عزوجل فالشَبَح معهم والقلب مع الله عزوجل.

- نكتة الفتوة: أن لا تشهد لك فضلاً ولا ترى لك حقاً. والناس في هذا مراتب فمنهم من هذا وصفه ومنهم عكسه وبينهما من يشهد هذا وهذا.

- ومن مظاهر التفوة: "ترك الخصومة، والتغافل عن الزّلة ونسيان الأذية".

أ- إلا في حق الله كما قال ﷺ: "وبك خاصمت" فتخاصم في الله وبالله وترد على الزائغين وتحذّر منهم المسلمين، وأما في حق نفسك فاترك.

ب- وخاصة ذوي الهيئات كما قال ﷺ: "أقيلوا ذوي الهيئات عثَراتِهم، إلا الحدود" رحم د عن عائشة الصحيحة (٦٣٨).

جـ- بل ونسيان الإحسان لمن أحسنت إليه. ومن مظاهرها أيضاً: "أن تقرّب من يُقصيك وتكرم من يؤذيك وتعتذر إلى من يَجْني عليك سماحة لا كظماً ومودةً لا مصابرة". وفَهْمُ هذا يتأتى بالنظر إلى سيرته ﷺ مع الناس ثم هذا من بعده

لورثته وقال ابن القيم: وما رأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه. قال وما رأيته يدعو على أحد منهم قط وكان يدعو لهم. وجاءه ابن القيم يوماً يبشره بموت أكبر أعدائه فنهره وتنكّر له واسترجع ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزّاهم وقال إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، فَسُرُّوا به ودَعَوا له وعظّموا هذه الحال. قلت: (إلى هنا فلنسكت أيها الأدعياء الدخلاء).

- وأما المروءة فكما سبق بيانه بُغض داعيي الحوانية والشيطانية وإجابة جاعي الإنسانية/ وكذلك الفتوة والإنسانية. والله تعالى خلق الملائكة عقولاً بلا شهوة. والبهائم شهوةً بلا عقول. والإنسان فيه العقل والشهوة. فأيهما غلب عليه كان شبيهاً به.

- حقيقة المروءة: تجنب الدنايا والرذائل من الأقوال والأعمال والأخلاق."اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق.....".

- المؤوءة على ثلاث درجات: المروءة مع النفس، المروءة مع الخلق، والمروءة مع الحق.

أ- بحملها على ما يجمل ويزين وترك ما يقبح ويشين، حتى لا يفعل خالياً ما يستحي أن يفعله على الملأ إلا ما أبيح له من الغسل والجماعة.

ب- بمعاملتهم بالأخلاق الحسنة ولْيتعلم من سيئ الأخلاق كما في قصة من كان عنده مملوك سيئ الأخلاق فسُئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه الأخلاق.

جـ- بالاستحياء من نظره سبحانه وإصلاح عيوب النفس التي بعتها لله فهل تسلِّم سلعة فيها عيوب وتريد استيفاء الثمن كاملاً.

٣٧- منزلة الإرادة.

- أصلها رَوْد والرائد هو الطالب ومنه الارتياد أي الطلب. فإذن راد يرود إرادة مثل فاق يفوق إفاقة وأما الرباعي فهو أراد يريد./ وانظر مختار الصحاح. وأما المشيئة فهي أخص من الإرادة.

- الإرادة هي نهوض القلب فهي حركة من الداخل. كما قال ﷺ: "أحب الأسماء ... وأصدقها حارث وهمام: حارث لدين ودنياه وهمام بهما...."/ تحت الصحيحة (٩٠٤). قلت فهذا التعريف هو المختار عندي، وسائر ما ذكروه هو من لوازمه وعلامة عليه كترك العادة والغفلة والإخلاد إلى أرض الطبيعة. وعلم السلوك مبني على الإرادة كما أنه علم الفقه موضوعه حركات الجوارح.

- المريد ينظر في حركة قلبه هل هي موصلة إلى مراده أو قاطعة عنه، هل هي مُصلحة لقلبه أو مُفسدة له؟!! ولابد في هذا من ثلاثة أشياء. ١- نفس مستعدة قابلة. ٢- دعوة مستّمعة. لا أنه ينظر كنظر الفلاسفة والسوفسطائيين. ٣- تخلية الطريق من المانع.

- ومن مقدماتها. ١- الذهاب عن العادات بصحة العلم. ٢- مع صدق القصد. ٣- وخلع كل شاغل: وخاصة صحبة أهل البطالة واللهو بالأموال والأولاد.

- ثم بعد المقدمات. أ- الأنس. ب- والسير بين القبض والبسط.

أ- فيأنس بالعبادات وينتقل من رسومها إلى حقائقها ويترقى من الإسلام على الإيمان والإحسان ويتخلص من مشقة التكاليف وتصير له قرة عين ولذة ويستريح بها.

ب- يقبضه الخوف ويبسطه الرجاء. وقد يهجم عليه قبض لا يدري ما سببه وعليه في هذه الحالة أمران: ١- التوبة والاستغفار لأن هذا القبض سببه جناية ولا بد. ٢- الاستسلام حتى يمضي فإنه ظلام ويشك أن يطلع الفجر. وأيضاً عند هجوم البسط يحذر من الاضطراب والطيش والعاقل يقف على البساط ويحذر الانبساط: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا.

٣٨- منزلة الأدب.

١- هذه اللفظة تدل على الاجتماع فإن الأَدْب: أن تجمع الناس إلى طعامك وهي المأدَبة والمأدُبة، والآدِب: الداعي كما قال طَرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى   لا ترى الآدبَ فينا ينتقر

ومن هذا القياس الأدب لأنه مجُمع على استحسانه وهو اجتماع خصال الخير في العبد، وعلم الأدب: علم اصلاح اللسان والخطاب – قلت: كما أُلّف "تقويم اللسان". وهذا رأى علم الأدب.

٢- شعبة من الأدب العام.

٣- حقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل واستخراج كمال الفطرة الكامن فيها كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾.

٤- أنواع الأدب ثلاثة:

أولاً:- الأدب مع الله عزوجل:

١- وهو حسن الصحبة معه سبحانه بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

٢- وتأمل أدب الرسل مع ربهم سبحانه وتعالى:

* أدب عيسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ﴾ قال: ١- ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾. ٢- ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾. ٣- ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ ٤-﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى ﴾. ٥- ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾. ٦- ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾. ٧- ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾. ٨- ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾. ٩- ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

شَهِيدٌ ﴾. ١٠- ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾. ١١- ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

فهذه إحدى عشرة جملة لا أبلغ منها في الأدب.

١- تنزيه عن الشرك. ٢- التوحيد حق الله تعالى وحده. ٣- ولم يقل: لم أقله. ٤- إحالة على علم الله. ٥- تبرؤ عن العلم بغيب ربه. ٦- ثناء على الله بالتفرد بعلم الغيوب. ٧- ما على الرسول إلا البلاغ دون زيادة ولا نقصان وتبليغ ماذا؟ تبليغ أعظم الأوامر وهو التوحيد. ٨- لا اطلاع له على شأنهم بعد موته. ٩- ثناء على الله تعالى بعموم شهادته لكل شئ. ١٠- أي أ- والسيد لا يعذّب عبده إلا إذا استحق هذا العذاب لأن رابطة البعودية تقتضي إحسان السيد إلى عبده. ب- وأيضاً: هم عبادك وأنت أعلم بهم. ١١- ولم يقل الغفور الرحيم لأن الرب سبحانه قد غضب عليهم وأمر بهم إلى النار فال: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ موافقة لربه في غضبه فالمقام مقام عزة مقرونة بالحكمة لا مقام استعطاف عليهم.

* أدب إبراهيم الخليل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ ولم قل أمرضني أدباً.

*- أعب الOHضر: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾امع قوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾.

*- أدب مـؤمني الجنـة: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠ ﴾.

*- أدب موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ولم يقل أطِعمني.

*- أدب آدم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ ولم ينظر إلى القدر كالقدرية – لا أقول قليلي الأدب – بل منعدميه.

* أدب أيوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ ﴾ ولم يقل اشفني.

* أدب يوسف عليه السلام: ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ ولم يقل "من الجب" يعايةً لاخوته أن لا يعاتبهم وقال: ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ ولم يقل رفع عنكم جهد الجوع والحاجة لأنه سبب فيه ففيه هضم النفس والكرم والفتوة والأدب.

٣- ومن الأدب مع الله ما قال ﷺ: "فالله أحق أن يُستحيا منه" لما قال ﷺ: "احفظ عورتك..." قالوا: أرأيت إذا كان أحدنا خالياً...."/ ص.ج (٢٠٣) حديث حسن. ورُوى: "إياكم والتعري" لكنه ضعيف / الارواء (٦٤)..

* أدب نبينا ﷺ: يكفي أن نقول أنه أكمل الخلق وأفضلهم في كل جانب من جوانب التفضيل لكن هنا ننبه على قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ ﴾

﴿ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ فإن من كمال الأدب اقبال الناظر على المنظور وعدم الالتفات، فلم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. ثم تواطأ فؤاده وبصره فلم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. ثم تواطأ فؤاده وبصره فلم ينكر الفؤاد ما رآه البصر أي تواطأ البصر والبصيرة في كون المرئي المشاهد حقاً. وهذا غاية الأدب. ولذا نال ﷺ ما لم ينله أحد من العالمين بهذا الأدب. انظر إلى موسى ﷺ لما كُلِّم تطلّع إلى أعلى من ذلك بأن يَرَى. فكم له ﷺ من مقام محمود بسبب هذا الأدب: مقام محمود في الدنيا وليلة الاسراء وفي العرصات وفي فتح باب الجنة، صلى الله عليه وآله وسلم وجعلنا الله تعالى من أهل شفاعته وكرامته.

٤- الأدب هو الدين كله: وهو القيام بدين الله عزوجل باطناً وظاهراً وتأمل الدين كله تجده كله أدباً:

ففي الصلاة: ستر العورة. والطهارة. وعدم رفع البصر في الصلاة والاطراق فيها. وحسن استماع القراءة. وعدم استقبال القبلة أو استدبارها ببول أو غائط (وهذا كما ترى يعم الفضاء والبنيان). والسكون في الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وفي ذلك اسناد مصري رواه ابن نصر في "تعظيم قدر الصلاة" عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير أخبره قال سألنا عقبة بن عامر عن هذه الآية فقال: هو الذي لا يلتفت.

وكذا احسان الركوع والسجود وغير ذلك من الأقوال والأفعال في الصلاة ترى أن كلها أدب.

٥- لا يستقيم الأدب مع الله غلا بثلاثة أشياء. ١- معرفة الأسماء والصفات. ٢- معرفة الشرع الدين. ٣- نفس مستعدة قابة للحق.

ثانياً٨ الأدب مع الرسول ﷺ : القرآن ملئ بالتزام الأد مع النبي ﷺ في حياتq وبعد مماته فمن ذلك:

١- رأس الأدب معه ﷺ التسليم له والأنقياد لأمره دون حرج في النفس كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ فلا تعارِض خبره ولا أمره بمعقول ولا بقياس ولا برأي ولا اجتهاد. فكما أنك توحد المرسِل سبحانه وتعالى فتوحد متابعة الرسول ﷺ كثير من الناس يُزعج الأعضاء بالصلاة عليه - ﷺ - ثم هو يعزل كلامه عن أن يكون مصدراً للمعرفة بالله ولأحكام الله. ثم ذكر ابنب القيم آيات يراها أن تصدق على حال هؤلاء وهي كذلك والآيات هي: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا .... لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

٢- قال تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾: والتقدم المذكور معنا: التعجل بالأمر والنهي دونه والافتئات عليه.

٣- وقال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ويدخل في ذلك رفع الأصوات بالآراء ونتائج الأفكار.

٤- وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ وفيها قولان: أحدهما: لا تدعونه كما يدعو بعضكم بعضا باسمه مجرداً بل قولوا يا رسول اله يانبي الله وهذا من باب الاضافة إلى المفعول. والثاني: لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا إن شاء أجاب وإن شاء ترك. بل لابد من إجابته كما في قصة أبي سعيد بن المعلَّى ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وهذا من باب الإضافة إلى الفاعل.

٥- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾. وهذا في المذهب الخاص بحاجته العارضة فما بالك بمن يذهب مطلقاً بمذهب مختلق في تفاصيل الدين وفروعه فأصحاب المذاهب المختلقة ذهبوا إليها بدون استئذان الرسول.

٦- لا تستشكل قوله ﷺ بالآراء والقياس بل العكس يُستشكل الرأي لقوله.

ثالثاً: الأدب مع الخلق: لكل شخصٍ أدب ولكل حال أدب: فالأدب مع الوالدين ومع العالم ومع الأمير ومع الضيف ومع الأقران ومع الأجانب، كل نوع يتميز عن البقية بل الأدب مع الأب يختلف عن الأدب مع الأم. وكذلك الأحوال: آداب

الطعام والشراب وقضاء الحاجة والجماع والركوب والسفر والنوم والكلام والاستماع وغيرها.

وعلى كل حال فالأدب مجلبة للسعادة وقلته مجلبة للشقاوة: انظر كيف نجىّ الله تعالى من تأدب مع والديه في الشراب وفي المقابل كيف ابتلى جريج العابد بضرب الناس له وهدم صومعته ورميه بالفاحشة لما أخل بالأدب مع أمه. وانظر أدب الصديق لما تقدم للصلاة وجاء النبي ﷺ فاخر وقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، فتأخر خطوات أدباً فتقدم بها قُدُماً وكان خليفة المسلمين بعده ﷺ.

لكن كما قال السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه فلا تفرّط في حقوق الخلق ولا تَغْلُ فيها بحيث تشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكيلها أو عن مصلحة دينك وقلبك. وحقيقة الأدب: العَدْل.

٥- ومن الأدب. أ- منع الخوف أن يتعدى إلى اليأس. ب- حبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن. جـ- ضبط السرور أن يضاهئ الجرأة.

أ- فالخوف ما حجزك عن المعاصي فما زاد فلا حاجة إليه لأنه سيؤدي على القنوط وهو إساءة أدب على رحمة الله.

ب- حد الرجاء: ما طيّب لك العبادة وحملك على السير كالرياح الكافية لسير السفينة لا تنعدم فتقف ولا تزيد فتهلك.

جـ- لا تستفزنك السراء فتغلب شكرك ولا الضراء فتغلب صبرك. /ص ٧٢٤-٧٢٥,

٣٩- منزلة اليقين.

١- اليَقَن واليقين والإيقان: زوال الشك تقول: يَقِنْت وأيقنت واستيقنت. قال الكفرة: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾. قلت: العلم إذا ذكر في سياق مدح كان هو واليقين سواء وكذا إذا أُفرد اليقين دل على العلم التام الذي ليس معه شك. وفي القرآن مواضع: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ والسياق هو الذي يحوج إلى التعبير باحدهما دون الآخر.

٢- أهل اليقين ممدوحون في الكتاب والسنة ولا يصل إلى المراتب العالية إلا هم وانظر كيف كانت النجاة من فتنة القبر يقول الملكان للرجل الصالح: "قد علمنا أنك لموقن".

٣- اليقين هو روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح. والتوكل ثمرته ونتيجته ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ بجميع المقامات: المحبة، الخوف، الرجاء، الرهنا، الشكر، التوكل، .... فهو إذن مادة جميع المقامات والحامل عليها.

٤- اليقين على ثلاثة أوجه. أ- يقين خبر. ب- يقين دلالة. جـ- يقين مشاهدة.

أ- سكون القلب إلى خبر المخبر الذي يثق به.

ب- أن يقيم له – مع وثوقه به – أدلة. كما أن الله تعالى أصدق القائلين ويقيم الأدلة على أخباره.

جـ- يصبح الخبر كالمرئي بالعين كما قال أحدهم رأيت الجنة والنار قيل كيف؟ قال بعيني الرسول ﷺ ورؤيته أثر عندي من رؤيتي.

٥- أركان علم اليقين: أ- قبول ما ظهر من الحق. ب- قبول ما غاب. جـ- الوقوف على ما قام بالحق.

أ- الأوامر والنواهي على ألسنة الرسل.

ب- الإيمان بالغيب فيما يتعلق بالآخرة.

جـ- من الأسماء والصفات والأفعال.

٦- من أعظم علامات اليقين الأُنس بالقرآن وهو السماع الرحماني وحرامٌ على قلب قد تربى على السماع الشيطاني أن يجد الأُنس بالسماع الرحماني. والناس في السماع أقسام:

١- من اتصف قلبه بصفات نفسه: حظه كحظ البهائم.

٢- من اتصفت نفسه بصفات قلبه: (له حظ كحظ الملائكة من السماع).

٣- من له منزلة بين المنزلتين. فبين القلب والنفس حروب وسجالات ودول. وصاحب هذه المنزلة يشتغل بهذه الحرب عن السماع فيفوته كثير من النعيم واللذة لكن لابد له من هذه المحاربة حتى تضع الحرب أوزارها، لكن مثل هذا إذا استقر ربما يفنى بشهود الخوف عن شهود ما يعده والمطلوب أن لا يشغله شأن عن شأن كاستقبال المزور لأضيافه. وهذا يسمى السير في الله وهو أعلى من السير إليه.

٤٠- منزلة الذِّكر.

١- عند ابن فارس أصلان: الأولك المذكّر الذي هو ضدالمؤنث تقول: امرأة مُذْكِر ومِذكار التي تلد الذاكران عادةً. والثاني: الذِّكر فبالضم للقلب تقول: اجعله منك على ذُكر وبالكسر للسان. ويدخل في هذا الأصل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي شرفكم وذلك أن الناس يذكرونهم بهذا الشرف.

٢- مدح ابن القيم هذه المنزلة أيما حدح وبألفاظجزلة المعاني وخلاصة كلامه ومنه يؤخذ (ثمرة الذكر).

- منشور الولاية: أي كتابها (كجواز السفر).

- قوتُ القلوب وبدونه تموت وتصبح الأجساد لها قبوراً.

- سلاحُ لمحاربة قطاع طريق السير إلى الله عزوجل.

- دواء القلوب من أسقامها.

- به تُستدفع الآفات وتُكشف الكربات وتهون المصيبات.

- رياض جنة عاجلة فيها يتقلبون.

- جلاء القلوب وصِقالُها.(صدأ القلوب بالغفلة والذنب وجلاؤها بالاستغفار والذكر).

- به يزول الوقر عن الأسماع والبَكم عن الألسن والظلمة عن الأبصار. (تزول به علل الجوارح فتصبح صالحة للعمل).

- هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عباده.

- هو رُوح الأعمال الصالحة.

- صرّاع الشيطان . (الجن والأنس).

- به ت□ذئق الحلاوة كما قال الحسن البصرЪ: تفقدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذBر وفي قراءة القرآن فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلقٌ.

٣- في كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقته، والذّكر عبودية القلب والфسان وهي غير مؤقتة بل كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ .... ﴾ وكان صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه.

٤- منزلة الذكر في القرآن تتبين من عدة أوجه:

١- الأمر به مطلقاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أي في سرك أو بلسانك بحيث تُسمع نفسك وهذا الثاني يُستفاد من قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ أي ذاكراً له بلسانك بخلاف الأول.

٢- النهي عن ضده: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣- تعليق الفلاح بكثرته: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

٤- الثناء على أهل ووعُدهم بالأجر العظيم: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ..... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

%- اخبāō بتِسران من لها عنه: ٱلشَّيْطَٰنِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ ....﴾.

٦- أن الذاكر يذكره الله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ .....﴾.

٧- الاخبار أنه أكبر من كل شيq: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ..... .....﴾ وفيها أقوال:

أ- ذكر الله أكبذ من كل شيء فهو أفضل الطاعات. حتى هو أفضل من الصلاة.

ب- ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له: مصدر مضاف إلى الفاعل.

جـ- ذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة فإنه إذا تم مَحَق.

د- قول شيخ الإسلام ابن تيمية أن الصلاة فيها فائدتان الثانية أكبر.

هـ- قول ابن القيم أن الصلاة هي أكبر الذكر: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾.

٨- أنه خاتمة الأعمال الصالحة: ختم به الصيام: ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ والحج: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ ...... ﴾ والجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ...... ﴾ والصلاة: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...... ﴾ وذلك حتى يكون جابراً لخللها.

٩- أهله هم أهل الانتفاع بآياته وهم أولو الألباب: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ .... ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ ...... ﴾ .

١٠- أنه قرين الأعمال الصالحة وروحها فمتى عدمته كان جسداً بلا روح: ولذا قرنه بالصلاة وبالصيام وبالحج وبالجهاد: ﴿ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

- وأما الأحاديث فقد دلّت على فضيلة الذكر من وجوه:

١- م عن أبي هريرة حديث "سبق المفرّدون" فأهل الذكر هم أهل السبق. والمفرّدون – علاوة على ما ذُكر في الحديث – هو الموحدون.

٢- حم عن أبي الدرداء / ص.ج (٢٦٢٩): "ألا أنبئكم بخير أعمالكم...." فالذكر هو خير الأعمال.

٣- م عن أبي هريرة وأبي سعيد مرفوعاً: "لا يقعد قومٌ يذكرون الله ...." فهذه فوائد أربع للذكر م هذا الحديث.

٤- م عن معاوية أن رسول Ϥللم ﷺ خرج على حلَقة من أصةابه فقال: "ما أجلركم؟ قالوا: جلسنئ نذكر الله عزوجل ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنّ علينا قال: ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أَفَا إني لم استحلففم تُهمة لكم ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن ɸله يباهي بكم المɄائكة" وهذه كافية.

٥- وفي حديث عبدالله بن بُسر أن رجلاً قال:" يارسول الله إن شذائع الإΓلام قد كЫرت علюيّ!فمُرني بأمر أتشبث به. فقال: لء يزال لسانك رطباً مɆ ذكر الله".

٥- وفي حديث عبدالله بن بُسر أن رجلاً قال:" يارسول الله إن شذائع الإΓلام قد كЫرت علюيّ!فمُرني بأمر أتشبث به. فقال: لء يزال لسانك رطباً مɆ ذكر الله".

٦- وفي الصحيحة (٢٥٦٢) عن أنس قال: خرج علينا رسول أله ﷺ فقال: "إذا مررتم برياض الجنة فأرتعوا قالوا: وما ريا الجنة؟ فقاɄ: مجالس الّكر" فالذكر جنة معجلة في الدنيا.

٧- ЮО م عن أبي موسى مرفوعاً: "مثل الذي يذكر ربه وإلذي لا يذكره كxثل الحي والميت" ولفظ مسلم: "مثل البيت الذي يُذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه: مΫثَلُ الۦيّ والميت". فبي الذاكر بمنزلة بيت الحي وبيت الغافل بمنذلة بيت الميت وفي ǻلƟفظ الأɈل الذاكر حي والغافƟ ميЪ. Ɉمن مجمшعȼما فǻلذاكر وبيته حيّ في حيّ والغفل وبيته ميت في ميت وهذا كقلوب لذاكرين حية في بدن حيّ وقلوب الغافلين ميتة وأبدانهم قبور لها.

فنسيانُ ذكر الله موتُ قلوبهم وأجسامُهم قبل القبور قبورُ وأحرواحُهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشورُ.

٨- خ م عن أبي هريرة مرفوعاً قدسياً: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي..." كما قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾.

٩- هذا ومن أفضل كلمات الذكر بعد القرآن – وهن من القرآن.

١٠- وحديث الحارث الأشعري.

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وكذا لا حول ولا قوة إلا بالله وقد أخبر إبراهيم الخليل محمداً الخليل بأنها غراس الجنة وأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء مُعَدّة للغرس فيها بواسطة هذه الكلمات كما قال ﷺ: "من قال سبحان الله وبحمده" غُرست له نخلة في الجنة".

وهذه الكلمات صح في فضلها أحاديث كثيرة ذكرنا طرفاً منها في كتابنا "صفة الصلاة".

هذا وفي الوابل الصيب لابن القيم مئة فائدة للذكر ذكر منها ابن القيم ثلاثاً وسبعين وختم ذلك بأحكام وتنبيهات تتعلق بالذكر سجلتها هناك وليمر عليها لاقتناص أهمها.

- الذكر أنواع بعدة اعتبارات:

أ- باعتبار مضمونه: ١- ذكر الأسماء والصفات والثناء بها وتوحيده سبحانه بها. ٢- ذكر الأمر والنهي والحلال والحرام. ٣- ذكر الآلاء والنعماء والإحسان وكم من آية في القرآن فيها الأمر بذكرنعم الله عزوجل حتى يُشكر. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

ب- باعتبار آلته: ١- ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان: أعلاها. ٢- ذكر بالقلب وحده: الدرجة الثانية. ٣- ذكر باللسان المجرد: الدرجة الثالثة.

جـ- باعتبار حال الذاكر: ١- ثناء: مجرد عن الطلب. ٢- دعاء: مقرون بالثناء أو الاعتراف. ٣- رعاية: رعاية مصلحة القلب بذكر ما يوجب المراقبة كقولك: الله معي وناظر إليّ.

٤١- منزلة الفقر.

١- أصل هذه الكلمة يدل على انفراج في شيء من عضو ونحوه فمن ذلك فَقَار الظهر سُمى كذلك للحزوز التي بينها وهي انفراجات، والفقير: المكسور فَقار ظهره وسُمّى بذلك يزيد الفقير أحد الرواة ومنه اشتُق اسم القير وكأن مكسور من الذلة والمسكنة. ومنه فَقَرتهم الفاقرة: الداهية. ومنه: فَقَرتُ الفَسَيل إذا حفرت له حين الغرس. وفقرت البعير إذا حززت خَطْمه لتجعل عليه الجرير حتى يخضع. والحاصل أن هذه المادة تدل على خَلّة وخَلَل.

٢- المراد بهذه المنزلة أخص من المعنى الأصلي للفقر ١- فقوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..... ..... ﴾ وفيهم أقوال: أنهم أهل الصفة (٤٠٠) لم يكن لهم مساكن ولا عشائر وحبسوا أنفسهم على الجهاد، وقيل حبسوا أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر: حبسوا أنفسهم في طاعة الله. وقيل: حبسهم الفقر والعَدم عن الجهاد. وقيل: حُبسوا عن الضرب في الأرض للمعاش لأنهم حبسوا أنفسهم على جهاد أعداء الله. والصحيح أنهم – لفقرهم وعجزهم وضعفهم – لا يستطيعون ضرباً في الأرض ومع ذلك أعفّاء فهذا نوع من الفقر. ٢- ونوع آخر قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ .... ﴾ وهذا عام في العفيف وغيره. ٣- ونوع ثالث قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ فهذا يعم أهل الأرض كلهم الغني والفقير والمؤمن والكافر وهو الفقر الإضطراري، الفقر إلى الربوبية. فهذه ثلاثة أنواع من الفقر ومنزلة الفقر هنا أخص من هذه الأنواع الثلاثة.

٣- منزلة الفقر: تحقيق العبودية لله تعالى والافتقار إليه في كل حالة وهي رُوح كل منزلة وسرها وغايتها. وهذا في الحقيقة تمام الغنى والعز. ومما أُثر عنهم لبيان قوله "في كل حالة" أنه سُئل أحدهم متى يستحق القير اسم الفقر؟ فقال: إذا مل يبق عليه بقية منه فقيل له وكيف ذاك؟ فقال: (إذا كان له فليس له وإذا كان ليس له فهو له) (إذا كان له فليس له) أي إذا كان لنفسه فليس لله. (وإذا كان ليس له فهو له) أي إذا كان ليس لنفسه فهو لله.

- والخلاصة أن تصير كُلّك لله كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ ولا يكن لنفسك منك شيء.

- وهذه المنزلة لا ينافيها تملك المال كما كان داود وسليمان وكما كان نبينا محمد ﷺ وكذا إبراهيم الخليل كان أبا الضِّيفان.

- هذه المنزلة هي التي قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية: والفقر لي وصف ذاتٍ لازم أبداً كما أن الغنى وصف له ذاتي.

٤- أركانه: ١- علم يسوسه. ٢- ورع يحجزه. ٣- يقين يحمله. ٤- ذكر يؤنسه.

٥- متى يستريح الفقير؟ إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه قاله سهل بن عبدالله. نعم والله كما قال ﷺ: "إذا أصبحت فلا تنتظر المساء........".

٦- قال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله ثلاثة: ١- دوام الافتقار إلى الله على جميع الأحوال. ٢- ملازمة السنة في جميع الأفعال. ٣- طلب القوت من وجه حلال.

٧- الفقر بدايته الذل ونهايته العز وظاهره العُم وباطنه الغنى.

٨- أول الفقر: الخروجُ عن النفس وتسليمُها لمالكها فلا يخاصم ويجادل ويحاجج عنها وهذا – أي عدم المخاصمة – مقتضى تسليمها لمالكها. ولوازم ذلك وعلامته: أ- قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً. ب- إسكات اللسان عنها مدحاً. جـ- السلامة منها طلباً أو تركاً.

أ- الدنيا عند القوم ما سوى الله من حال وجاه وغيرهما. فيقبض عن ذلك القلب واللسان والجوارح فلا يتعلق به فإذا حصل هذا القبض جاد بما عنده موجود ولم يطلب ما ليس عنده وهو مفقود وهذا معنى قوله ضبطاً أو طلباً، فلا يضبط الموجود ولا يطلب المفقود.

ب- وذلك أن اشتغاله بمدحها دليل على الرغبة فيها ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

جـ- عرفنا آفات طلبها فما آفات تركها؟ الجواب: من وجوه. ١- التعلق بها فإنه إذا ترك تعلق فيبقى يجاهد نفسه بسبب هذا الترك والأولى له أن يجعل بدل مجاهدتها في هذا الباب مجاهدةً لأعداء الله من شياطين الإنس والجن. ٢- تطلعه لما في

أيدي الناس فلو بقى على طلبها كان أفضل له من هذا التطلع. ٣- آفات الكبر والعجب لإنه تركها.

٩- ومن الفقه في هذه المنزلة: شهود السبق ومطالعة الفضل: أي ما من خيرٍ العبدُ فيه غلا وهو مسبوق بفضل الله تعالى عليه ولولاه ما حصل له هذا الخير وهذا يقيده في: أ- الخلاص من رؤية الأعمال. ب- ويقطع شهود الأحوال. جـ- ويمحّص من أدناس مطالعة المقدمات.

فليس له عُدة للقاء ربه إلا الفقر من أعماله وأحواله. وهنا نذكر وصية أبي عثمان النيسابوري (سعيد بن إسماعيل) أنه كان يوصي بـ ١- التزام الطاعات. ٢- ورؤية التقصير فيها.

فتبذل الطاعة لله وتعتقد أنها بالله وهذه صيانة عن الشرك ثم ترى التقصير فيها وهذه صيانة عن الإعجاب. أبو عثمان هذا له كلام رفيع عالٍ وكان شديد ألوحية باتباع السنة ولزومها وتحكيمها حتى قال في سياقه موته: خلاف السنة في الظاهر علامة رياء في الباطن.

١٠- من افتقر إلى الله تعالى اغتنى. ١- عنىً بالله. ٢- غنى عن غير الله. قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أغناه بالمال وأغنى قلبه عما سواه. ويكمل غنى القلب بغنى النفس فإنها بوابة الصرر على القلب فلا يكمل غناه إلا بغناها

وآيتـه. ١- سـلامتها مـن الحظـوظ: تعلقاتهـا الظـاهرة والباطنـة بمـا سـوى الله. ٢- وبراءتها من المراءاة: ارادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها.

٤٣- منـزلة الاجتبـاء.

١- جبا مادة تدل على الجمع فإذا أضيف إليها الألف والتاء دلّت على تقصُّد مثل فنى واقنى وبلى وابتلى، وجبا تدل على الجمع وبالتاء تدل على الاخيار وهو الجمع لنفسك فإذن الاجتباء هو الاختيار والاصطفاء ءي أنك لا تجمع مجرد جمع ولا تأخذ مجرد أئذ بل عن تقصّد وهو أنك تتلّص وتصفّى ϕنفسك كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ﴾.

٢- هذه المنزلة سُمِّيت باسم الثمرة منها وإلا فهي منزلة من منازϕ العبودية التي من فَعل أسبابها حصلت له هذا على وجه العموم وإلئ فهي فضل محض: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..... ٱجۡتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾ ﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾ فهي في حق الأنبياء موهبية لم تُنل بكسب ولم يُتوسل إليها بعمل بل هو أمر أُريد بالمصطفى المجتبى وفي حق غيرهم كسبية.

٣- هذه المنزلة هي منزلة الأنبياء وقليل القليل من المؤمنين **كمريم وآسيا وفاطمة وخديجة** وأتباع الأنبياء وعلى رأسهم الصدّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه وغيره.

٤- من أنواع اجتباء غير الأنبياء أن يعصم الله عبده الذي استشرف للجفاء بالشهوات، يعصمه: أ- بتنغيص هذه الشهوات. ب- وتويق الملاذ. جـ- وسدّ مسالك العطب عليه إكراهاً.

٥- اجتباء الله تعالى لموسى كان في مظهر الجلال (كان مهيباً شديداً في الله باطشاً بأعداء الله فاغتفر له القاءه الألواح) وأما عيسى فكان في مظهر الجمال (لم يكن في شريعته قتال البتة والنصارى عصاةٌ لشِرعته في هذا فإن في الإنجيل: "من لطمك على خدك الأيمن فأدِر له خدك الأيسر ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك ومن سخّرك ميلاً فامش معه ميلين".

وأما نبينا محمد ﷺ فكان في مظهر الكمال جمع محاسن من تقومه فشريعته شريعة القوة والعدل وهي شريعة اللين والرحمة: شريعة العدل والفضل.

- ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾

- ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾

- ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ .... وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

فهي تحرّم الظلم وتأمر بالعدل إيجاباً وبالفضل ندباً وفي آخر سورة البقرة من ناحية الأموال ذكر الله تبارك وتعالى أنواع التعاملات الثلاثة. ١- الظلم: بالربا. ٢- العدل: بالدين والإنظار. ٣- الفضل: بالصدقة.

٦- اجتباء الله تبارك وتعالى لأمتنا من وجوه متعددة:

- حرّم عليهم كل خبيث وضار وأحل لهم كل طيب ولم يعاقبهم – كالأمم السابقة – بمثل قوله: ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾.

- هداهم لما ضلّت عنه الأمم قبلهم من الجمعة والقبلة ونحوهما.

- جعلهم شهداء على الناس (وخير أمة أخرجت للناس). قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾.

٤٣- منزلة الإحسان.

١- الإحسان ضد الإساءة، وبضدها تتميز الأشياء. قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ وسمّى سبحانه جنته الحسنى فقال: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وأحسن الحسنى الزيادة التي قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ

﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وما أكثر هذه المادة في القرآن والواجب الوقوف عند كل آية فيها هذه المادة للشرب من مائها العذب الزلال.

٢- وأصل الإحسان احسان التوحيد حتى قال ابن عباس والمفسرون في قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾: من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد.

٣- والإحسان هو لب الإيمان وكماله وروحه وهو المنزلة التي تجمع جميع ما ذُكر منالمنازل فكل منازل العبودية من الإحسان.

٤- والإحسان هو كما عرّفه النبي ﷺ - وهو تعريف له بسببه – فسبب كل إحسان هو ما ذكره النبي ﷺ فإن الشيء أحياناً يُعرّف بحقيقته وأحياناً بثمرته وأحياناً بسببه والباعث عليه. ومعنى ما ذكره ﷺ - كما ذكر النووي رحمه الله – قال: لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعِه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلا أتى به فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العِيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سحبانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للإطلاع عليه، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد فينبغي أن يعمل مقتضاه. قلت: يدل على كل هذا الرواية الأخرى "اعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك" فرؤيته سبحانه وتعالى لك حاصلة في جميع الأحوال.

قلت: وهكذا تثمر المراقبة الاحسان في كل شيء.

٥- أول درجات الإحسان: الإحسان في القصد: أ- بتهذيبه علماً. ب- وإبرامه عزماً.

أ- تجعل القصد تابعاً للعلم فلا تقصد إلا ما يجوز في العلم الذي هو اتباع الأمر والشرع فالنية تحتاج إلى العلم.

ب- فلا يصحبه فتور ولا توانٍ.

٦- ومن درجات الإحسان: والإحسان في الأحوال بأن تستر وتكتم ما وهبك المولى الكريم من الحفظ والصيانة والاجتباء ولا تظهر ذلك إلا لحجة أو حاجة أو مصلحة راجحة وإظهار الحال بدون ذلك حمق وعجز وهو من حظوظ الشيطان والنفس.

٧- أعلى الإحسان: الإحسان في الوقت بأن تكون دوماً مهاجراً الهجرتين: هجرة إلى الله بالإخلاص وهجرة إلى الرسول بالاتباع وفي ذلك صنّف ابن القيم "طريق الهجّتين وباب السعادتين".

٤٤- منزلة العلم.

- هذه المنزلة إن لم تصحب السالك من بداية الطريق إلى نهايته فليس على الطريق فأعظم ما يميز طريق الحق عن بقية السبل هو العلم.

قال الجنيد: الطرق كلها مسدود على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيّد بالكتاب والسنة.

وقال أبو حفص: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يُعَدّ في ديوان الرجال قلت: أي العماء.

وقال أحمد بن أبي الحواري: من عمل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة. ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة.

وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد والخوف سائق والنفس حرون بين ذلك، جموح خدّاعة روّاغة فاحذرها وراعها بسياسة العلم وسُقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.

- فهذه منزلة العلم وأما من نهى عن العلم فهو قاطع طريق ونائب إبليس وشُراطيُّه كقوله من قال: "نحن نأخذ علمنا من الحيّ الذي لا يموت وأنتم تأخذونه من حيٍّ يموت". وقيل لآخر: ألا ترحل حتى تسمع من عبدالرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق من يسمع من الخلاق؟

وهؤلاء يسلكون طريق الشيطان والجحيم لأن الذي عند عبدالرزاق وأمثاله "حدثنا وأخبرنا" وما سوى ذلك فهو إما خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي.

- بيانات لمنزلة العلم:

١- العلم خير من الحال لأن الحال قاصر والعمل متعدٍّ.

٢- دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة بخلاف دائرة الحال فهي ضيقة.

٣- العلم هادٍ والحال مهتدٍ به.

٤- العلم يُعرف به كل اعتقاد صحيح وكل عمل صحيح به يُوَحّد الله ويُذكر وبه يُتّبع النبي ﷺ، والذكر شامل لكل العقائد والشرائع (أعني العقيدة الصحيحة والشريعة المرتبطة بها).

٥- مذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه قربة وبذله صدقة.

٦- الحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب. قال أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

٧- طلب العلم أفضل من النافلة (أي: المطلقة) نص عليه أبو حنيفة والشافعي ومالك: كان ابن وهب بين يدىّ مالك فقام يصلي / ووضع ألواحه/ فقال له مالك: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه/ ذكره ابن عبدالبر وغيره.

٨- استشهد الله تعالى بأهل العلم على أجل مشهود وهو توحيد، وفي هذا تعديل لهم كما في الحديث: "يحمل هذا العلم.......".

٩- رحل كليم الرحمن في طلب العلم حتى ظفر بثلاث مسائل بعد نصب وقال تعالى وللخليل الثاني ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ قلت: وانظر في مقدمة مفتاح دار السعادة ما يقرب من كذا وكذا وجه لبيان شرف العلم. (١٥٣) وجهاً فلا نامت أعين الكسالى. ص (٢١٩-٥٤١) طبعة الشيخ الحلبي.

- أنواع العلم:

أ- جليّ.١- يدرك بالعيان: بالبصر. ٢- بالسمع وهو الاستفاضة. ٣- بالعقل وهو علم التجربة.

ب- خفي: المعرفة = الالهام = الفهم = الحكمة = البصيرة.

أ- وسائر الحواس أبواب للعلم حتى الوجدان وكذا ما يدرك بخبر الصادق ولو كان واحداً.

ب- ينبت في القلوب الطاهرة: ١- في الأبدان الزكية بطاعة الله. ٢- وبالرياضة السنية (ذكر الله). ٣- وبالهمة العالية. ٤- في الأحايين الخالية. ٥- والأسماع الصاخبة التي صحت من تعلقها بالباطل وأصاخت لدعوة الإسلام. ويدل عليه قول علي: "إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه".

*** وهنا بيان الحكمة:**

- المفرة في القرآن هي إما النبوة أو علم القرآن والمقترنة بالكتاب هي السنة. ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾.

- أحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل.

- والحكمة: أ- الإطلاع على بواطن الأشياء وربط الأسباب بالمسببات. ب- وعملية: وضع الشيء في موضعه.

- أساس الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه ولا تعدِّيه حده ولا تعجّله عن وقته ولا تؤخره عنه.

- وعليه فإن الحكمة: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

- أكمل الخلق في الحكمة: الرسل وأكملهم أولو العزم وأكملهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ......﴾ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا ......﴾.

- الحكمة لها ثلاثة أركان. ١- العلم: لا جهل. ٢- الحلم: لا طَيش. ٣- الأناة: لا عجلة.

- كمال الحكمة بأن. أ- تشهد نظَر الله في وعده. ب- وتعرف عدله في حُكمة. جـ- وتلحظ برّه في منعه.

أ- بمعرفة الحكمة في الوعد والوعدي، عدلٌ في وعيده، محسن في وعده.

ب- الكوني والشرعي فلا ظلم فيها ولو أجراها على أيدي الظلمة فهم الظلمة لا هو سبحانه وتعالى. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ..... ﴾﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ..... ﴾.

جـ- فعطاؤه ومنعه سبحانه بالحكمة، لا يضعه إلا في موضعه ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ ..... ﴾﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ..... ﴾﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ..... ﴾. سواء كان المنع مادياً كالرزق أو ومعنوياً كالإيمان والدين.

قال شيخ الإسلام: الشاكرون الذين يعرفون قَدْر نعمة الله ويشكرون الله عليها.

٤٥- منزلة الفِراسة.

- هذه المنزلة هي ثمرة منازل الإخلاص والسنة والصدق والتقوى وغيرها مما يُصلح القلوب والأبدان، فهي مؤسَّسة على مثل هذه المنازل.

- الفِراسة لغةً: قال ابن فارس: أصل أصيل يدل على وَطء الشيء ودَقِّه يقولون: فَرَس عنقَه إذا دقها ويكون ذلك من دق العنق من الذبيحة ثم صُيّر كل قتل فَرْساً ومن ذلك الفَرَس لِرَكْلِه الأرض بقوائمه ووطئها وسُمِّي راكبه فارساً ومن الباب التفرّس في الشيء: إصافة النظر فيه. قلت: كأنه دقّ الشيء بالعين والفكر بالقلب لا ستخراج المخبوء. وقلت: ومما يدل على تصيير كل فَرْس قتلاً ما جاء في

حديث م (٢٩٣٧) في خروج يأجوج ومأجوج فيرغب نبي الله عيسى إلى الله "فيُرسل عليهم النَّغف فيصبحون فَرْس كموت نفسٍ واحدة".

- قوله تعالى: (للمتوسمين): جملة أقوال المفسرين: الناظرين المعتبرين المتفرسين المتفكرين. قلت: ينظر فيتفرس فيفكر ثم يعتبر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ فراسةِ النظر وفراسة السمع والثاني أقرب في المعرفة ولذا أكّده سبحانه وتعالى دون الأول.

فائدة: اللحن.

أ- صواب: ١- الفطنة: "ولعل أحدكم يكون ألحن....". ٢- التعريض والاشارة: لحن إليه: أشار كما في سيرة ابن هشام.

ب- خطأ وهو فساد المنطق. ١- إما إلى خطأ (خطأ في اللفظ وخطأ في المعنى). ٢- وإما إلى معنى خفي لم يُرَد من اللفظ.

- حديث: "اتقوا فِراسة المؤمن..." حديث ضعيف/ الضعيفة (١٨٢١) منه خمسة أوجه لكنها لا تتقوى. لكن يشهد – في جزئه الأول – لحديث : "إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم"/ الصحيحة (١٦٩٣).

- سبب الفراسة: نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد يفرّق به بين الحق والباطل ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ....﴾ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ .....﴾.

- **حقيقتها**: خاطر يهجُم على القلب ينافي ما يضاده.

الفراسة على حسب قوة الإيمان قال عمرو بن نُجيد: كان شاه الكِرماني حاد الفراسة لا يخطئ ويقول: من غضّ بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعَمَر باطنه بالمراقبة وظاهره بإتباع السنة وتعوّد أكل الحلال لم تُخطئ له فِراسة.

وقال الهروي: لا تَصيدُق إلا فراسةٌ تُجنىَ مِنْ غَرْس الإيمان.

– من المتفرسين:

- العزيز في يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ......﴾.

- ابنة شعيب في موسى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ......﴾.

- أمرأة فرعون في موسى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ......﴾.

- أبو بكر في عمر لما عهد إليه بالخلافة. وغير ذلك من فراسات الصديق الذي هو أعظم الأمة فراسة.

- عمر بن الخطاب كما في موافقاته ربه كيف وهو المحدَّث الملهم وقصته مع سواد بن قارب[١].

- فِراسة الصحابة أو صدق فِراسة. الشافعي وإياس بن معاوية.

- فراسة المتفرّس تتعلق بـ ١- عينه: للسيما والعلامات. ٢- أذنه: للكلام. ٣- قلبه: للعبور من الظاهر إلى الباطن. استدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الباطنة كاستدلال نقاد الحديث والصيارفة.

- **الفراسة لها سببان:** ١- داخلي: خاص بالمتفرس: جودة الذهن وحدة القلب وحسن الفطنة. ٢- خارجي: ظهور العلامات على المتفرَّس فيه.

٤٦- منزلة التعظيم.

- أي تعظيم الله عزوجل وتعظيم أمره وتعظيم ما أمر بتعظيمه من الأشخاص والأماكن والأزمنة، هذا التعظيم أصله في القلب ويكون باللسان حديثاً وبالبدن خضوعاً كما في رفع اليدين في الصلاة وكما في الركوع والسجود.

---

(١) خ (٣٨٦٦) عن ابن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط: "إني لأظنه كذا" إلا كان كما يظن إذ مر به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني إن إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، علَيّ بالرجل. فقال: كنت كاهنهم في الجاهلية: قال عمر: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك. قال: بينما أنا يوماً في السوق إذ جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت: ألم تر إلى الجن وإبلاسَها * ويأسها بعد إنكاسها * ولحوقها بالقِلاص وأحلاسه.
فقال عمر صدق وذكر نحو ما ذكر في بداية بعثة النبي ﷺ.

- مبنى التعظيم على المعرفة بالله فما عظّم من لم يعرف، والتعظيم على قدر المعرفة.

- روح العبادة. (التعظيم – والمحبة) لا روح لها بواحد دون الآخر ثم يُعبّر عن ذلك بالثناء وكل هذا هو الحمد.

- أدلة التعظيم من القرآن: صفة الله بالعظمة ومن أسمائه العظيم: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي تعظيماً أي: لا ترجون لله عظمة بأن تفعلوا ما يدل على تعظيمكم له سبحانه. وأما الأحاديث فكثيرة منها حديث الكرب.

- أنواع التعظيم.

أ- تعظيم الله سبحانه. ١- لا تجعل غيره سبباً. ٢- ولا ترى عليه حقا.

ب- تعظيم أمره ونهيه. ١- ألا يُعارضا بترخص جافٍ. ٢- ولا يُعرّضا لتشدد غالٍ. ٣- ولا يُحملا على علة توهن الأنقياد.

أ١- فهو سحبانه مسبب الأسباب فالأسباب راجعة إليه ولولاه ما وصل خير لعبد ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل

﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ وتأمل كلام الأنبياء في القرآن كيف عرفوا ذلك قال الخليل الأول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ وقال نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وغير ذلك كثير. وهذا هو لُبّ التوكل على الله الذي هو لب العبادة والخضوع والتسليم والتفويض.

أ٢- بل هو الذي أوجب ذلك على نفسه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: "أني حرمت الظلم على نفسي" وهذا من جوده وكرمه سبحانه لا أن ذلك أوجبه أحد عليه.

ب١- الدِّين وسط بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والتقصير ودلّ على هذه الوسطية أدلة كثيرة من الكتاب والسنة وتأمل ذلك في كل حكم من أحكامه ولذا كان الصراط المستقيم: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وكل الأدلة الدالة على الأمر بالاعتدال وترك الغلو التفريط هي أدلة وسطية هذا الدين. وسطية بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدنيا والآخرة: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة

أمري..." قال ﷺ: "أرسلت بالحنيفية السمحة"/ حم عن عائشة وإسناده قوي. وفي البخاري تعليقاً "أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة" وما أكثر الأدلة الناهية عن الغلو "إياكم والغلو" "هلك المتنطعون" "إن الدين يسر...." "ليصل أحدكم نشاطه..." وحديث قطع حبل زينب "عليكم من الأعمال ما تطيقون". وما دين من الأديان المنحرفة ولا نظام وضعي إلا وفيه من الأغلال والآصار ما لا يعلمه إلا الله عزوجل لأنه سبحانه هو الخالق وهو العليم بما يصلح الأفراد والمجتمعات.

والغلو نوعان:

أ- نوع يخرجه عن الطاعة: كزيادة ركعة عملاً وصيام الدهر كاملاً والسعي عشراً....

ب- ونوع يُخاف منه الإنقطاع: كقيام الليل كله وصيام الدهر دون المنهيات والأوراد المرهقة.

ب٢- مثال على الترخص: أكل الربا بالحليل والأخذ بالأقوال الموافقة للهوى في كل مسألة كمسألة شراء السيارات عن طريق البنوك، أنكرها ابن عثيمين انكاراً شديداً في الممتع.

ب٣- مثال على التشديد: قيام الليل كله. والتشدد في النهي كالنهي عن صيام السبت.

ب٤- علة توهن الانقياد كما في تعليلات الأحناف للمنهيات في المعاملات.

٤٧- منزلة السكينة.

- السكون ضد الحركة، والسكون هدوء واستقرار وراحة لكن لابد من الحركة وقد يكون ساكناً وهو متحرك فعُلم أن السكون ناشيء من القلب ومداره على سكون القلب. ولا يسكن القلب – حقيقةً – إلا بتسكين الله له ولذا قالوا: هذه من المنازل "المواهب" لا من منازل "المكاسب" أي أنها وهبية لا كسبية. قلت: لكن الهبة منه سبحانه بحكمة فلا يضع سبحانه فضله في محل كسول لا يطلب المعالي: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾.

- آيات السكينة في التوبة موضعان وفي الفتح ثلاثة: في التوبة بعد فرارهم يوم حنين وحين كان ﷺ وصاحبه في الغار. وفي الفتح في الحديبية وعند المبايعة تحت الشجرة وعند كتابة شروط الصلح.

وهذه الآيات كان الشيخ وتلميذه: (ابن تيمية وابن القيم) يقرآنها عند القلق والإضطراب فيسكن القلب. وأنشد ﷺ يوم حفر الخندق شعر ابن رواحة /خ م.

- السكينة منحة ربانية تنزل على قلوب أوليائه في مواضع القلق والإضطراب وعند المخاوف فلا ينزعج القلب. بل يزداد إيماناً ويقيناً وثباتاً.

- السكينة في القلب لكن يظهر ذلك على اللسان والجوارح كما قال ابن عباس: "كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه" فالسَّكين ينطق بالحق ويظهر عليه رونقه وبهاؤه إلى حد أنه ربما ينطق بما لم يكن له على بال كما في قصة سارية وهي في الصحيحة (١١١٠).

- السكينة عند الهروي: هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين وهي شيء يجمع قوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلّى به الحزين والضّجِر وسكن إليه العَصِيّ والجرئ والأبيّ".

قلت: أنظر كيف عبّر عنها بصفاتها وآثارها دون بيان حقيقتها إلا بالتي نزلت وذلك أنها موهبية نازلة فلا يُعبّر عنها إلا بآثارها مضفاتها (نور – روح – قوة) وآثارها (يسكن لها الخائف – ويتسلى بها الحزين – ويسكن لها الشارد) لأنها فيها راحته التي لا تُقارن براحة. هي روح يحيا بها القلب فيقوى وهي نور يُبصر بها الحق ودلائل الإيمان.

- وليست السكينة فقط في مواطن القلق والاضطراب بل هي أيضاً: تحصل عند المعاملة: أ- محاسبة النفس: المؤمن دائماً يقول: ماذا أردت بكذا؟ ب- ملاطفة الخلق: ليس للقلب أنفع من معاملتهم باللّطف. جـ- ومراقبة الحق.

أ- إذا حاسب نفسه عرف مالها وما عليها فإنه يسكن ومن أسباب عدم السكينة ترك النفس بلا حساب، تراه مضطرباً ولا يدري أن ذلك بسبب ترك محاسبة النفس.

ب- الناس: ١- إما أجنبي: فتكسب مودته ومحبته. ٢- أو صاحب: فتسديم محبته. ٣- أو عدو: فتطفئ بلطفك جمرته وتكتفي شره واحتمالك لمضض اللطف معه أهون من احتمالك ضرره عند عدم اللُّطف.

جـ- هي الموجبة لكل خير وصلاح ولا يصح أ،ب بدونها لأنها مقصودة لذاتها وما قبلها وسيلة إليه.

٤٨- منزلة الطمأنينة.

١- هي أثر من آثار السكينة وأعم منها فهي ناية السكينة لأنها سكون مع قوة الأمن الصحيح لا أمن الغرور وكونها أعم لأنها تكون أيضاً طمأنينة إلى الخبر كطمأنينة القلوب إلى القرآن وأ/ا السكينة فإنها عند المخاوف. وأيضاً: السكينة تصول على الهيبة التي في القلب فتخمّدها في بعض الأحيان وتزيد الطمأنينة على ذلك بأنها دائمة وتوجب الأمن والراحة بوجود الأُنس.

فإذن الطمأنينة: سكون يقوّيه أمن صحيح شبيه بالعيان.

قلت: وعندي فرق أخر أن السكينة تنزل وأما الطمأنينة فتحصُل وذلك أن القلب يسكن إلى شيء كالسكون إلى الصدق "الصدق طمأنينة والكذب ريبة" وكالسكون إلى البر "البر ما أطمأن إليه القلب" ضد الإثم فإن القلب لا يطمئن إليه.

٢- متعلقات الطمأنينة – عرفنا أنها أعم – وأعظمها الطمأنينة بذكر الله وهو القرآن على القول الصحيح في عدة آيات:

- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾.

- ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ ﴾.

- ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾.

فإن السياق يدل على هذا. والقول الآخر أنه ذكر العبد ربه. والدليل على الأصحية أن الطمأنينة لا تحصل إلا بالإيمان واليقين وتحصيل ذلك إنما هو بالقرآن.

٣- النفس لا ترجع إلى ربها ولا تدخل في عباده ولا إلى جنته يوم القيامة إلا إذا كانت مطمئنة ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ﴾.

٤- أعظم مواطن الحاجة إلى الطمأنينة مواطن الدعوة إلى الله عزوجل ومجاهدة أعدائه فإن مثل هذا لابد أن يضجر ويضعف صبره فإذا أراد الله راحته أنزل عليه سكينته فاطمأن إلى حكمه الديني فعلم أنه الحق وأيقن بذلك وإلى حكمه القدري فلا ينزعج وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فلا جزع مما قُدّر ولا مما لم يُقدّر. إلا أنه إن كان الأمر فيه حيلة فلا ينبغي أن يضجر عنها وإن كان لا حيلة فيه فلا ينبغي أن يضجر منها. وكذلك مواطن الإبتلاء تحتاج السكينة والطمأنينة.

٤٩- منزلة الهمة.

١- الهمة فَعلة وهي مصدر للهيئة كما قال ابن مالك: وفَعلةٌ لمرة كجَلسة وفِعلة لهيئة كجِلسة. فهو إذن مصدر يبيّن هيئة صاحبه وأن هذه صفته من الهَمِّ. لكن قالوا: الهم بداية الإرادة والهمة نهايتها. قلت: نعم لأن الهيئة صفة لازمة مستقرة.

٢- إذا كان العامة تقول: قيمة كل إمرئ ما يحسنه. فإن الخاصة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلبه، فليس الشأن في الفعل فقط وإنما الترقي فيه لبلوغ أعلى الغايات.

٣- وهل هناك مطلب وغاية أعلى من طلب الحق سبحانه وتعالى بعبادته على وجه الصدق والإخلاص ومن كانت هذه همته فإنه مغلوب بها ملزمة له سريع الظفر بمطلوبه والله الهادي. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾.

٤- أول نبضات الهمة همة. أ- تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني. ب- وتحمله على الرغبة في الباقي. جـ- وتُصَفّيه من كَدَر التواني.

أ- الرغبة في الدنيا وحشة لأن الدنيا وأهلها موحشة للراغب فيها والزاهد أيضاً. أما الراغب فلأنه في وحشة بسبب فوات ما يفوته منها وأما الزاهدون فأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم كما يستوحش الناس من يحول بينهم وبين أموالهم، وأيضا لأن الزاهد ينظر إليها بالبصيرة – بخلاف الراغب ناظر بالبصر – فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب.

ب- الباقي: ١- لذاته: هو الله سبحانه وتعالى. ٢- بإبقاء الله: الدار الآخرة.

جـ- التواني: هو سبب الإضاعة والتفريط.

- وتعلو الهمة (فالتي قبلها نبضات) وهذه أعلى. حتى تورث أنفةً أ- من المبالاة بالعلل. ب- ومن الثقة بالأمل.

أ- صاحب هذه الهمة يأنف من المبالاة بعلل الأعمال (كأن يرى أعماله عظيمة وأنه أتى بها على الوجه). وسبب ذلك: ١- إما لأن العلل لم تحصل له لأن علو همته حال بينه وبينها. ٢- أو لأن همته وسعت مطلوبه وعلُّوه يأتي على تلك العلل فالتعلق بالعالي يسأصل الأدنى.

فالحاصل أن صاحب هذه الهمة قد قصر همته على المطلب الأعلى فهو في سلامة من علل الأعمال. وهذا لا يكون إلا لمن كان كله لله عزوجل في حِله وترحاله، في مكانه وزمانه وحاله.

ب- إن الوثوق بالأمل يِوجب الفتور والتواني. ثم صاحب هذه الهمة طائر لا سائر فكيف يتعلق بأمل أو يثق به.

٥٠- منزلة المحبة.

١- المحبة: واضحة ومعروفة ولو عرّفناها لكُنا متكلفين فاتحي على أنفسنا باب جنون أيقول قائل ما هي الشمس؟!! فإذن الحدود لا تزيد المحبة إلا خفاءً وحفاءً فحدُّها وجودها ولا توصف بوصف أظهر منها.

وعلى كل حال فماتها تدور على خمسة أشياء:

١) الصفاء والبياض: ومنه حَبَب الأسنان أي صفاؤها وبياضها.

٢) العلو والظهور: ومنه حَبَب الماء وحُبابه وهو ما يعلوه عند المطر الشديد.

٣) اللزوم والثبات: ومنه حَبَّ البعير وأحَبَّ إذا برك ولم يقم. كما قال الشاعر: حلّت عليه بالفلاة ضرباً ضَرْبَ بعير السَّوء إذا أحبّا.

٤) اللُّب: ومنه حبة القلب وحبة البذر لأنها أصله ومادته.

٥) الحفظ والإمساك: ومنه حِبّ الماء للوعاء الذي يحُفظ فيه.

لكن هذا كله من لوازم المحبة. فإذن المستطاع في هذه المنزلة هو بيان لوازمها وآثارها وعلاماتها وشواهدها وموجباتها وأحكامها.

لكن من أحسن ما قيل ما فيها ما ذكره أبوبكر الكتاين أنه في مكة جرت مسألة في المحبة فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم فقالوا: هات ما عندك يا عراقي فأطرق ودمعت عيناه ثم قال:

عبدٌ ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا مذيد جزاك الله يا تاج العارفين.

٢- المحبة هي الحياة التي من حُرمها فهو في جملة الأموات وذلك أنها لا تصح إلا باتوحيد والموافقة/ روضة المحبين لابن القيم.

وهي معقد النسبة بين الرب والعبد فالربوبية من الرب والعبودية من العبد ومبنى العبودية على المحبة، والعبودية معقودة بها فمتى انحلت المحبة انحلّت العبودية.

٣- المحبة هي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال فهي كالإخلاص بل الإخلاص من ثمراتها.

٤- المحبة كثيرٌ مُدّعيها فلذا طولبوا بإقامة البينة وذلك بالبذل والاتباع: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ ثم بـ ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ...... ﴾ ثم بـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ...... ﴾.

٥- كيف تتعلم المحبة؟ الأسباب الجالبة لها والمواجبة لحصولها. ولعمري إن هذا مما ينبغي العض عليه بالنواجذ فإن المحبة قد تكون معدومة عرفنا ذلك من الآثار. كيف تصبح محباً لله عزوجل وكيف تجد حلاوة ذلك؟

١- قراءة القرآن بالتدبر والفهم لتعرف ربك وإلهك، تعرف اسماءه وصفاته وآلاءه. فالنظر في كلام المتكلم والتبصر فيه يوجب محبته إذا وقف الناظر فيه على محاسنه فكيف بكلام رب العالمين.

٢- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية (أي يحبه الله) بعد المحبة (أي محبة العبد لربه) والحديث معروف: (... ولا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه...).

٣- دوام ذكره سبحانه على كل حال بالقلب واللسان والعمل والحال فمثلاً: لا نزال نذكر فلاناً بحسن صفاته وكرم أخلاقه وفضائله حتى يوجب لنا هذا الذكر محبته فكيف بذكر الله تعالى.

٤- إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى والتسنّم لها وإن صعُب المرتقى / وفي روضة المحبين باب كامل في ذم الهوى وذكر الشيخ أموراً بها يتخلص العبد من الهوى بإذن رب العالمين أوصلها الشيخ خمسين ختم بها كتابه رحمه الله تعالى ولتنظر هناك.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته.

٦- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة.

٧- انكسار القلب بين يديه سبحانه وتعالى.

٨- الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه ودعائه ثم ختم ذلك بالاستغفار.

٩- مجالسة المحبين الصادقين.

١٠- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزوجل. وملاك ذلك كله. أ- همة. ب- وبصيرة.

- الكلام في المحبة من جانبين. أ- محبة العبد ربه. ب- ومحبة الرب عبده. ويدل على هذا - كما قال ابن القيم – مئة طريق ذكرها في "الروضة" قلت: لعله كتاب آخر غير الذي بأيدينا فإن ابن القيم له ثلاث كتب في المحبة. وصفة المحبة من الرب للعبد صفة زائدة على الرحمة والإحسان والعطاء فإن ذلك من آثار المحبة.

- آيات في المحبة وكذلك أحاديث:

- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ قولان:

١- يحبونهم كما يحبون الله فيكون أثبت لهم محبته لكنهم يشركون معها محبة آلهتهم والذين آمنوا أشد حباً لأن محبتهم خالصة لله.

٢- يحبون الأنداد كما يحب المؤمنون الله. والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأندادهم وفي هذا القول لم يثبت لهم محبةً لله. وشيخ الإسلام ابن تيمية يرجح الأول لأنهم إنما ذُمّوا لأنهم أشركوا.

- ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي في المحبة والتعظيم لا في الخلق والربوبية كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

- ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذه امتحان لمدّعي المحبة كما قال الداراني وبعض السلف: ١- المحبة. ٢- ليلها. ٣- ثمرتها.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ أربع صفات: أذلة على المؤمنين ولم يقل لهم لأنه ضمّن أذلة معنى رحماء مشفقين عاطفين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم لأن من أخذه اللوم عن محبوب فمحبته غير صحيحة فإذن علامة صحة المحبة وهو هذا.

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ .... ﴾ فعطف ذلك على الخوف والرجاء يدل على أن الابتغاء لأجل شيء أخر وموجبه شيء آخر وهو المحبة. فالمحب يتقرب إلى محبوبه بكل الوسائل.

- ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ..... ..... ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ..... ..... ﴾ فالمحبة سبب الإخلاص. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ ﴾.

- ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ..... ..... ﴾ فجعل ارادته غير ارادة الآخرة وهذه الارادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة كما في الحديث المرفوع: "اللهم بعلمك الغيب.....".

- خ م عن أنس مرفوعاً: "ثلاث من كن فيه.......".

- خ عن أبي هريرة مرفوعاً حديثاً قدسياً: "من عادى لي ولياً....".

- خ م عن أبي هريرة مرفوعاً: "إذا أحب الله العبد دعا جبريل............".

- خ م في قصة الرجل الذي كان يقرأ لأصحابه ويختم بـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ﴾ وقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها فقال ﷺ: "خبره أن الله يحبه" وكذا قصة الآخر في مسجد قباء كان يفتتح وفيه "حبك اناها أدخلك الجنة". وهناك فروق بين القصتين.

- والقرآن والسنة مملوءان بأن الله يحب كذا ولا يحب كذا وأن أحب الأعمال إليه كذا ولو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الاخلاص إليها بل هي حقيقة الإخلاص بل هي نفس الإسلام بل هي حقيقة لا إله إلا الله لأن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيماً وذلاً. والتأله هو التعبد الذي هو آخر امراتب الحب كما سيأتي فإذن المحبة حقيقة العبودية وهل يمكن أي مقام من المقامات مما تقدم ذكره ومما سيذكر ومما لم يذكر إلا بالمحبة، فمنكر هذه المسألة منكر لذلك كله ولذا ضحى خالد بن عبدالله بالجعد منكر الخلة.

- مراتب المحبة أذكرها مرتبة من القاع إلى القمة.

١- الخلة: محبة تخللت روح المحب وقلبه فلم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

٢- التعبد: العبد: هو الذي ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شيء من نفسه بل كله لله ظاهراً وباطناً.

٣- التتيم: تيّمه الحب: عبّده وذلك. ويَتْم الله: عبد الله وبينه وبين التيم تناسب هو الانفراد فانفراد التيم بنفسه عن أبيه وانفراد المتيم بحبه وشجوه وكلاهما مكسور ذليل.

٤- العشق: الحب المفرط والعشق نبات أصفر يلتوي على الشجرة وهذا لا يوصف به الرب في حبه لعبده ولا العبد في حبه لربه/ الفتاوى (٥/٨٠).

٥- الوداد: صفو المحبة وخالصها ولبها ومن أسمائه تعالى الودود المودود الواد وقد ذكر الله عبده المصطفى ورسوله المجتبى بهذا الوصف في محامد المقامات كمقام الإسراء والتحدي وإنزال الكتاب والدعوة وتأمل قول عيسى في الشفاعة عن نبينا "عبد غفر الله له...." كمال العبودية وكمال المغفرة وحقيقة العبودية: الحب التام مع الذي التام والخضوع للمحبوب.

٦- الغرام الحب اللازم للقلب الذي لا يفارق: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

٧- الصبابة: انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه فصبا أصله صبّ.

٨- الإرادة: ميل القلب إليه وطلبه له.

٩- العلاقة: تعلق القلب بالمحبوب.

- المحبة عند الهروي:تعلق القلب بين الهمة والأُنس.

- تعلق: (إفراد الرب بهذا التعلق.

- الهمة: لأن المحب شديد الرغبة والطلب لمحبوبه ولما يرضيه.

- الأُنس: قد يكون ذا همة دون أُنس الذي هو بجمال المحبوب والطمع في الوصول إليه والنظر إلى وجهه.

- مبادئ المحبة عند الهروي:

١- محبة تقطع الوساوس وتُسلِّى عن المصائب.

- الوساوس: لأن الوساوس والمحبة متناقضان لأن الوساوس توسوس له بغير المحبوب والمحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب. وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير.

- تُسلِّي عن المصائب: ولا يجد من مَسِّها ما يجد غيره بل يلتذ المحب كثير من المصائب فقد صارت للمحب طبيعة غير طبيعة الناس تجاه المصائب.

٢- وتنبُت من مطالعة المنة وتثبُت باتباع السنة ومن أعظم المنن تأهيل الرب عبده لمحبته.

- وتتصاعد المحبة حتى: أ- تبعث على إيثار الحق على غيره. ب- وتُلهج اللسان بذكره.

وإنما تظهر هذه المحبة بـ ١- اثبات الصفات أولاً . ٢- ومعرفتها ثانياً. ٣- ونفي التعطيل والتحريف عن نصوصها ثالثاً. ٤- ونفي التكييف والتمثيل عن معانيها رابعاً.

- وتزداد تصاعداً بالنظر إلى الآيات المشهودة والمسموعة نظر فكر واعتبار فكل منهما داعٍ قوي للمحبة.

ـ من آثار المحبة:

ـ الشوق: قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾: هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم وتعليل لهم، فإن من علم باللقاء هان عليه البلاء والجفاء وكذا في الحديث: "والشوق إلى لقائك" وهو نوعان شوق إلى الله وشوق إلى ثوابه والثاني لا ينافي الأول، ونعم الثاني ناقص لأن الأصل هو الشوق إليه سبحانه ولذا كان أطيب ما في الجنة النظر إلى وجهه سبحانه. وهذا الثاني من آثاره: "يأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل" وذلك أن الخوف المجرّد يؤدي إلى القنوط والحزن المجرّد على الفوات يقتل صاحبه والآمل إن لم يصحبه رَوْح الظفر مات أملُه.

١ـ الذكر: فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

٢ـ الحياء ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ونهى المصلي أن يرفع بصره في السماء في الصلاة حال المناجاة.

٣ـ الانقياد لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحب.

٤ـ قلة الصبر عن المحبوب بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته والصبر عن معصيته والصبر على أحكامه وأما الصبر عنه فهو صبر الفارغ عن محبته سبحانه. ولذا قال القائل: والصبر يُحمد في المواطن كلها وعن الحبيب فإنه لا يُحمد قلت: كعدم صبر المحب عن دعاء المحبوب.

٥- الاقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه. وانظر اقباله ﷺ على حديث ربه عندما أمر ابن مسعود بالقراءة "فإذا عيناه تذرفان" وكذا لما مر ﷺ على أبي موسى وقف يستمع قراءته بل الله سبحانه يأذَن ويستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه كما في الحديث: "ما أذن الله لشيء أذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن".

٦- قلت: فهذا هو الصحيح: أي "لنبي" وأما "لقارئ" ففي الضعيفة (٢٩٥١).

محبة دار المحبوب وبيته وهذا هو سر تعلق القلوب بالكعبة. وكل ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب: (بيتي) (عبدالله) (عبده) (عبدنا) (بيدك الخير).

٧- الاسراع في السير وطيّ المنازل للوصول إلى المحبوب، والاجتهاد في القرب منه والرغبة في كل ما يرضيه وتجنب كل ما يسخطه.

٨- محبة أحباب المحبوب وما يتعلق به وانظر كيف قال القائل: فيا ساكني أكنافِ ضَيبةَ كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ.

٩- الغيرة: فإنها على قدر المحبة. وستأتي.

٥١- منزلة الغير.

١- معنى الغَيرة لغةُ: أصلان صحيحان أحدهما يدل على صلاح وإصلاح ومنه غَيرة الرجل على أهله لأنها صلاح ومنفعة، والآخر: المغايرة بين شيئين.

٢- الغَيرة صفة الرجل في الدين: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ .... ﴾ ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ﴾، تلكم الصفة التي افتُقدت في زمن الطغيان فلم تعُد غيرةٌ لا على عِرض ولا على دين حتى صارت الحيوانات أحسن حالاً من الإنسان في غيرتها، يأنف ذكر الحيوان أن يشاركه حيوان آخر في أُنثاه. قال ﷺ: "لا يدخل الجنة ديّوث" وهو الذي يرضى بالفُحش في أهله.

٣- يكفي الغيرةَ شرفاً أنها من صفات الله عزوجل كما في خ م عن أبي هريرة مرفوعاً: "إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار، ويغرة الله: أن يأتي العبد ما حُرّم عليه" وفي خ م عن المغيرة مرفوعاً: "أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني" وفي خ م عن ابن مسعود مرفوعاً: "ما أحدٌ أغيرّ من الله، ومن غَيرته: حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أَحبَّ إليه المدحُ من الله ومن أجل ذلك أثنى على نفسه، وما أحد أحب إليه العذرُ من الله ومن أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين". قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ .... ﴾ حتى ذكروا أنه مما يدخل في الغيرة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ ﴾ فجعل سبحانه بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون غَيْرةً أن يناله من ليس أهلاً له.

٤- تقسيمات الغيرة:

أ- ١- غيرة من الشيء: كراهة مزاحة الشيء لك في محبوبك. ٢- غيرة على الشيء: حرصك على محبوبك أن يشاركك غيرك في الفوز به.

ب- ١- غيرة العبد من نفسه: على قلبه أي أن تصيبه صفاتُها المذمومة. ٢- وعلى نفسه: من صفاته المذمومة.

جـ- ١- غيرة الرب على العبد: أن يكون للخلق عبداً. ٢- وغيرة العبد لربه: أ- من نفسه: بأن يكون مخلصاً. ب- من غيره: بأن يغضب عند انتهاك الحرمات.

وذاك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حَرَص الإسلام على تأجيجه بالغيرة كما هو حال الرسل الذي هم أغير الناس بعد الله عزوجل، قاموا في وجوه أقوامهم فأمروهم ونهوهم ولابد للمؤمن من انكار ولو بالقلب وغلا ما كان مؤمناً "وذلك أضعف الإيمان" "وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من إيمان". ١- والناس إذا تركوا فلم يغيروا المنكر أوشك الله أن يعمهم الله بعقاب". ٢- وتركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ويوجب تسلط الأشرار وتركه يوجب مخالفة القلوب والوجوه. ٤- وتركه يوجب اللعنة: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ....كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ ﴾.

٥- درجات الغيرة: أولها: غيرة العابد على ضائع يَسْترد ضياعه ويستدرك فواته، ويتدارك قواه.

أ-ب- الضائع يُعّوض بمثله (كمن فاته الحج في سنة فلم يحج عوّض بمثله في عام مقبل) والفائت يُعوّض بنظيره (كقضاء الواجب المؤقت أو يعوّضه بالنوافل من جنسه).

جـ- قبل أن يضعف كما كانت تقول حفصة بنت سيرين: "يا معشر الشباب اعبدوا الله في الشباب". أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ ﴾.

ومنها: الغيرة على الوقت الفائت فإنه لا يرجع فيغار أن ينقضي بدون طاعة فإن الوقت منقضٍ بذاته، لا ينتظر أحداً فكيف تكون الحسرة إذا مّر الوقت بدون ربح على العبد: ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ ﴾ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ وكيف الحسرة إذا انقطعت الأنفاس، وتأمل كيف يُقال ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ويقال: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ الأول يقال للسعداء والثاني يُقال للأشقياء.

٥٢- منزلة الوَجْد.

١- الوجد لغةً: له معانٍ منها وِجدان الشيء بعد فقده ومنها وجد عليه أي غضب وحَزِن ووجد به وَجْداً في الحب فقط.

٢- هذه المنزلة هي وجود أثر المحبة الصادقة والغيرة لله عزوجل فمن أحب وجد كما في خ م عن أنس مرفوعاً: "ثلاث من كن فيه ...." فالحلاوة أثر المحبة. واستشهد صاحب المنازل على هذه المنزلة بفرار أصحاب الكهف واعتزالهم وذلك لو جدهم فقد أحبوا ربهم فأوجب ذلك لهم وَجْداً أخرجهم من بين قومهم، وهذا كله بربط الله على قلوبهم بالتوفيق: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ فتأمل في قولهم وكيف ربطوا توحيد الأولهية بتوحيد الربوبية اللذين لا نعرف منهما إلا ذكرهما وإحاءهما وأما الصادقون فعرفوا ذلك بقلوبهم فحسن منهم التعبير عن ذكل بألسنتهم والله ولي التوفيق، وهذا الربط على القلب عكس الخِذلان الذي هو حل القلب من رباط التوفيق فيغفل ويتبع هواه ويكون أمره فرطا.

٣- مراتب الوجد:

أ- التواجد: تكّلف واستدعاء. وفيه خلاف انظره ص ٨٤٤.

ب- الموجيد: نتائج الأوراد وثمراتها.

جـ- الوجد ثمرة أعمال القلوب من الحب لله والرسول وللمؤمنين وغير ذلك.

د- الوجود: وهو أعلى ذروةِ مقامِ الإحسان فيترقى من عبادة عبادة الله كأنه يراه إلى أن تصير له ملكة تُحمد نفسه وتصبح له طبيعة أخرى.

قلت: هذا إغراق وتوهم وخيال يفتح على الإنسان ما هو في غنى عنه باتباع طريقة الأنبياء الذين لم يُؤثر عنهم مثل هذا.

٤- درجات الوجد:

أولاً: وجدٌ عارض آلته السمع والبصر والفؤاد، السمع يبنه والعين ترى الآيات والفؤاد يفكر لصيد المعاني قال تعالى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم .... ﴾

: ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

هذا الوجد العارض يخرج صاحبه من جملة الغافلين ويبقى له أثر.

ثانيـاً: وجد الروح: الروح هي الحاملة للسمع والبصر والفؤاد على الوجد العارض وأما هي فوجدها بالمحبوب لذاته، والأول وجد في آياته. ووجد الروح هو واعظ الله في قلب كل مؤمن كما في حديث النواس بن سمعان عند ت مرفوعاً ص.ج (٣٨٨٧) "ضرب الله مثلاً........".

ثالثاً: وجد يمحّص العابد من درن الحظ ويسلبه من رق الماء والطين فيُخلص عبوديته ليكون حراً حقيقةً، فلا حرية إلا بعبودية الله عزوجل والتخلص من حظوظ النفس. فأنت بالروح لا بالجسم إنسان.

والناس هنا: ١- عبد محض: عبد الدينار والدرهم، عبد الدنيا، عبد الشهوات واشباع حاجة الجسد فقط.

٢- حر محض: عبد الله الذي قهر نفسه وملكها لا أن تملكه هي فيكون عبداً لها.

٣- بين بين: ساعٍ في كمال العبودية لله عزوجل حتى يكون حراً تماماً لا مُبعّضاً.

٥٣- منزلة البرق.

- هذه المنزلة منزلة أثر لا منزلة عمل فإن المراد بها نور يظهر لأرباب التوسط والنهايات يدعوهم إلى الدخول في طريق الصادقين. وبهذا يظهر الفرق بين هذه المنزلة ومنزلة اليقظة فإن الثانية بداية أرباب البدايات ليدخلوا في الطريق عموماً وأما الأولى فهو دخول خاص للسائر على الطريق. واستدل صاحب المنازل

على ذلك بقوله تعالى عن موصى عليه السلام: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ...... ﴾ فهذه برق النبوة والولاية.

* مراتب البرق.

١- ومضته الأولى ناشئة من العِدة بالرجاء(ما وعد الله به من أنواع الكرامة في الدنيا والأخرة): أ- فيستكثر العبدُ قليلَ العطاء. ب- ويستقل كثير الاعياء. جـ- ويستحلي مرارة القضاء.

أ- الحامل له على هذا الاستكثار: ١- حلالة معطيهْ وعظمته. ٢- احتقاره لنفسه. ٣- محبته له (أي لهذا العطاء). ٤- فُجاءته له ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ .... ﴾.

ب- وذلك لظهور هذا البرق الذي حمله على الجِد والطلب وحمل عنه مشقة السير.

جـ- وهو الابتلاء في هذا الطريق لتَبَيُّن الصادق من الكاذب.

٢- وومضةٌ أخرى ناشئته من الحذر من الوعيد: أ- فيستقصر الأمل. ب- ويزهّد في الخلق على القرب.

أ- وتخيَّلَ في كل وقت أن المنية تعاصفه وتفاجئه فاشتد حذره منها أن تأتيه قبل التطهر التام الذي هو شرط الدخول على الله عزوجل ولقائه فإذا لم تتم طهارته لا يدخل دار كرامته حتى يُطَهّر كما أنه لا يدخل عليه في دار التكليف بالصلاة إلا

بطهارة. وليُعلم أن هجوم وقت الموافاة مُضَيّق لا يقبل التوسعة. فإذن من شام برق الوعيد بقصر الأمل لم يزل على طهارة.

ب- زهد في أقربائه والقريبين منه والمخالطين له وذلك لكماله حذره واستعداده.

٣- ثم يتوهج البرق (بعد الوعد الوعيد) بافتقار العبد مع متاعبته للرسول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيحصل له السرور بربه حتى لكأنه في نفحة من نفحات الجنة ويطرَب باطنه (يرقص القلب طرباً إلى الله) ثم يشتد الطرب حتى يجري نهر الافتخار: أ- فمنه: افتخار على الشيطان. ب- ومنه: شعوه بأنه حريٌّ بالافتخار من غير عُجب ولا فخر.

أ- وهذا الأفتخار محمود كما يحب الله الأختيال عند الحرب وعند الصدقة: اختال على أعداء الله أعوان الشيطان – وهو نوع من العزة والكرامة – واختيال على أهل البخل الذي يأمرهم الشيطان به: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾. والحديث في ذلك معروف.ص.د (٢٣١٦) الختصر: "إن من الخيلاء ما يحبه الله وإن منها ما ينبغض الله فأما ما يحبه الله فاختيال الرجل على العدو واختياله عند الصدقة وأما ما يبغض الله فاختياله في البغي والفخر".

قلت: ومثل هذا الافتخار يقنّط الشيطان من الوسوسة للعبد ويعلم أنه لا حيلة له فيه، نسأل الله منّه وكرمه وبرّه ولطفه.

ب- وهذا نوع من الفرح كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ فهو افتخار مع انكسار للعزيز الجبار فلا منافاة بينهما. كما قال ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" فالمراد اخبار بنعمة الله عزوجل عليه وكذلك افتخار المؤمن. وكذلك قال يوسف الصديق: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ فالحاصل أن من كان له قصد حسن في الافتخار – الذي لا يفهمه الأغمار – فهو حينئذ محمود وأثر من اللطف والجود من ربنا المعبود.

٥٤- مزلة الذوق.

١- الذوق لا يختص باللسان بل يكون بالقلب والجوارح بل أصل الذوق من القلب لأنه الموجّه للسان والجوارح وها هنا أدلة على هذا المُدّعي:

١- ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾: وذلك شامل للقلب واللسان والجوارح فالثلاثة تحترق.

٢- ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾: الأول للجدل والثاني بالغم، والقلب يتألم وكذا بقية الجوارح.

٣- ومما يدل على شمول الذوق لهذه الأعضاء قوله تعالى: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ المراد الجوع والخوف اللابس من باب اضافة الصفة لى الموصوف بصيغة المصدر.

٤- قوله ﷺ: "ذاق طعم الإيمان......." وهذا بالقلب أصلةً.

٥- قوله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد حلاة الإيمان....." ووجدانها ذوقها.

٦- قوله ﷺ: "إني لست كهئتكم إني أُطعم وأسقى" "إن لي مُطْعِماً يطعمني وساقياً يسقيني" لما قالوا له: إنك تواصل.

يقول ابن القيم: وقد غلُظ حجاب من ظن أ، هذا طعام وشراب حسي للفم ولو كان كما ظن هذا الظان لما كان صائماً فضلاً عن أن يكون مواصلاً ولما صح جوابه بقوله: "إني لست كهيئتكم" وإنما المراد الاكتفاء بالطعما والشراب الروحاني. قلت: لا نقول إلا ما قال نبينا ونجريه على ظاهره دون هذا التأويل وسامح الله ابن القيم الذي أبطل التأويل من مئتات الوجوه ثم هو هنا يقع فيه.

٧- قول هرقل: "وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشتهُ القلوب". فالحاصل أن القلب يذوق المعنويات كما يذوقه اللسان الحسيّات.

٢- فائدة هذه المنزلة: أن القلب لا تزول عنه الشبقه والشكوك إلا إذا وصل إلى هذه الحال فباشر الإيمانُ قلبَه فذاق طعمه ووجد حلاوته.

٣- المراد هنا ذوق القلب طعم الإيمان ومخالطة بشاشته له فيثمر الأعمال، فإن الأعمال ثمرات العلوم والعقائد وانظر كيف قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل

لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ فهناك فرق بين مجرد الإيمان وهو الإسلام الظاهر – الذي هو حال أكثر المنتسبين للإسلام، وبين الإيمان الحق الذي ذاق صاحبه فبذل أغلى ما عنده في سبيل الله. فلتَتَأَمَّلْ هذه الآيات حق التأمل حتى تنكشف لك حقيقة إيمانك.

٤- أول الذوق: ذوق طعم الوعد فلا يعقلك ظن ولا شك أن ما وعد الله به كائن لمن أتى بأسبابه فتَجِدَّ في الطلب ولا تتردد فلا يقطعك أمل ولا تعوقك أمنية. فتقول ما جاء في سيد الاستغفار: "وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت" لأنك واثق بوعد الله عزوجل الذي من كان على عهده حصل له وعده. كل هذا بسبب الذوق ولولاه ما بذل الباذلون ولا اجتهد المجتهدون.

أ،ب،جـ، هي في الحقيقة من علامات هذا الذوق وهنا بيان.

ب- لا يُقال ليس لك أمل وإنما المراد أن لا يقطعك، وأملك الأعظم هو في الله لا سواه وإن تعلق أملك بغيره فهو للإعانة على مرضاته ومحابه فيكون أملاً لأجله لا معه. والذي يقطع به العبد الآمال الزائفة. ١- قوة الرغبة في المطلب الأعلى. ٢- العلم بخسة ما تؤمّل دونه تأمّل قوله ﷺ: "مالي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها" وقال: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع؟". قال

عمر: لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يَسُرُّه ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء".

فيكف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل في هذا الحقير عن نعيم لا يزول، كيف يفرّط في رؤية الله عزوجل التي "والله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه".

جـ- الفرق بين الأمل والأمنية أن الأمل يتعلق بما يُرجى وجوده والأمنية قد تتعلق بما لا يُرجى حصوله كما يتمنى العاجز المراتب العالية.

٥- ثم يذوق طعم الأنس(١). أ- فلاً يعْلَق به شاغل. ب- ولا يفسده عارض. جـ- ولا يكدّره تفرقة.

أ- يشغله عن السير والسلوك وذلك لشدة طلبه الباعث إليه أُنسه.

ب- يطلب منه الالتفات إليه عن ربه وكل ما سوى الله فهو عارض فإياك وإرادة السوى وإن علا. وإنك تُحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره وإليك هذه الآيات: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) والفرق بين هذا الذوق والذي قبله أن الأول ذوق العابد الناشيء من تصديقه بالوعد (الجنة وثوابها) وأما هذا فهو ذوق المريد الذي ذاقت ارادته طعم الأنس، والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بثوابه. والأنس بالله حالة وجدانية وهي من مقامات الإحسان تقوى بثلاثة أشياء ١- دوام الذكر. ٢- صدق المحبة. ٣- أحسان العمل. وقوته وضعفه على حسب قوة القرب وضعفه.

رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾.

جـ- اجتماع القلب والهمة على الله تورث أُنساً وصفاءً للقلب، وتفرقة القلب بالخواطر وإرادة السوى يكدّر هذا الصفاء والأُنس. وجمعية القلب وهمته أولى ما تُصرف فيه في شهود الأسماء والصفات [قلت: وتدبر القرآن سورة سورة والربط بين آيات السورة الواحدة رداً على هؤلاء المستشرقين المخرّبين الذين تطاولوا على كتاب ربنا تشكيكاً في ترتيب آياته بأن آيات كذا مُقحمة في سورة كذا كما قالوا في الملك والذاريات، وهذا من العجائب أن يأتي هؤلاء العجم ويُخضون كلام الله لنقدهم – وسخّروا مثل طه حسين لمثل ذلك، فالواجب على أهل العلم بيان ذلك للناس لتبقى ثقتهم بكلام ربهم دفعاً للباطل بالحق إن الباطل كان زهوقا] لكن هذه الجمعية غلِط فيها طائفتان: طائفة غالية: قدّمت الجمعية على الفرائض والسنن حتى قيل لبعض من زعم أنه ذاق ذلك: قم إلى الصلاة فقال:

يُطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته وردُ؟ وهؤلاء إن رأوا عدم القيام بالفرائض فهم كفرة وإن قدموا الجمعية على المصالح الراجحة (كالسنن والعلم والجهاد والنفع المتعدي) فهم نَقَصةً. والطائفة الثانية: مفرّطة: لا تعبأ بالجمعية بل ربما لا تدري ما مسمّاها.

والحق بين الغلو التفريط فتقوم بالجمعية في التفرقة ما أمكن؛ تقوم بالعبادات ونفع الخلق والإحسان مع جمعية القلب على الله فإن ضَعُفْتَ قمت بالفرائض ونزلت عن الجمعية ولم تلتفت إليها (كأن الجمعية هذه هي الخلوة والانفراد للذكر والاستحضار).

ويبدو أن هذا قصور في فهم الجمعية وإلا فالجمعية حاصلة بكل ما ابتُغى به وجه الله عزوجل من الصلاة والصيام وغيرها من العبادات بل في حال كسب المعاش: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ١٦٢ ﴾ وانظر حال الرسول ﷺ وأصحابه تتضح لك الأمور. ثم الفقيه كل الفقه هو من إذا تعارض عنده مصلحتان قدّم أولاهما وأكثرهما ثواباً. ثم دوماً استحضر: إيثار مرضاة الرب على حظ العبد.

فوائد تتعلق بالجمعية:

١- المراد بها أصالةً جمعية الأولوهية بأن يجتمع القلب على الله عزوجل. محبةً وخوفاً ورجاءً وإنابةً أي قياماً بالعبودية أي فناء العبودية. وهناك جمعية الربوبية بأن ترى وحدنية الله عزوجل تفنى فيها رسوم المشاهد. أي فناء الربوبية: تغيب في الغائب عن الشاهد. وبهاتين الجمعيتين تحصل له اللذة الغامرة وهي الأنس فيصير العبد كأنه يخاطب ربه تارة ويعتذر إليه أخرى ويتملق تارة ويُثني عليه أخرى فيصل إلى درجة الإحسان فيزداد لهجاً بالدعاء والسؤال تذللاً وإظهاراً لفقر العبودية بني يدى عز الربوبية وحينئذ يعلم فضل الله عليه وأنه لا غنى له

عن ربه طرفة عين فيأتي بالدعاء الذي هو العبادة. قال عمر: "إني لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء" فالقضية في أن يفتح عليك ربك بالدعاء ومن جرّب عرف.

وحينئذ يعمل العبد أن فضل ربه سبق له مع علم ربه بأن العبد سيقصّر. فاللهم رحماك وفضلك وكرمك ياذا الجلال والإكرام.

٢- هذا الأنس سيوجب له فرحاً ولا بأس بهذا الفرح لكنه فرح بضوابط بلا طغيان، والفرح في القرآن محمود ومذموم المحمود كقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ وفضله الإسلام والإيمان ورحمته القرآن. فتفرح بالله عزوجل رباً وإلهاً ومنعماً ومربياً، والمذموم كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ وقله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ وسبب ذمه أنه لم توجد فيه ضوبط الفرح وهي:

١- الحذر من مكر الله عزوجل: ومن أحيل إلى نفسه مُكر به، روى أحمد بإسناده إلى مطرّف قال: وجدت هذا الإنسان ملقى بين الله عزوجل وبين الشيطان فإن يعلم الله في قلبه خيراً: جبذه إليه وإن لم يعلم فيه خيراً: وكله إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه هلك.

وقال أيضاً: "لو أُخرج قلبي فجعل في يدي هذه اليسار وجيء بالخير فجُعل في هذه اليمنى ثم قُرّبت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئاً حتى يكون الله عزوجل يضعه".

٢ـ الشكر: وذلك باستحضار أنه سبحانه هو المنعم وحده وأن فضله سبحانه سابق على شكر العبد له.

٣ـ فتذكر البدايات عند حالات الفتور وهذا ملحوظ لكل من عاد إلى ربه سبحانه فكان في بداية عودته ذاهمة ونشاط، فليتذكر هذه البدايات فإنها تبعثه وتنشّطه، ولا تحزن لهذه الفترات فإنها من قدَر الله عزوجل لحكمة بل لحِكَم منها: الذي والافتقار إلى الواحد القهار لتملأ الإناء الذي أوشك على الفراغ قال الجنيد: ـ عندما يذكر بدايته – واشوقاه إلى أوقات البداية. ومنها: معرفة مواقع قدر الله عزوجل وأن لكل وقت ما يناسبه وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أي في الوقت الذي يُحتاج فيه إليك قال جرير: نال الخلافة إذا كانت على قدر كما أتى ربّه موسى على قدر وهكذا بعثة كل رسول تكون عند حاجة الناس إليه.

ـ ثم هذا الأنس يسبب له الوجْد لما يرى من الفضل الذي هو عطاء بلا استحقاق يقول ابن القيم: دخلت على بعض أصحابنا وقد حصل له وجْدٌ أبكاه فسألته عنه فقالك ذكرت ما منّه الله علي به من السنة ومعرفتها والتخلص من شُبه القوم –

أي أهل البدع وقواعدهم الباطلة – وموافقة العقل الصريح والفطرة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ: قال: فسرّني ذلك حتى أبكاني.

وقد سبق أن أسباب الوجد. أ- محبة. ب- خوف. جـ- رجاء. وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية وعليها دارت رحى الأعمال.

٥٥- منزلة الصفاء.

١- منزلة تحصل بعد منازل قبلها من توبة وإنابة ومحبته وإخلاص فيصفو علمه وحاله. والصفاء لغةً: البراءة من الكدر. وعلى هذا تدور هذه المادة "صفو" كما في معجم المقاييس: قال: أصل واحد يدل على خلوص من كل شوب وهو ضد الكَدَر يقال: صفا يصفو إذا خلص يقال: لك صفو هذا الأمر وصِفوته. ومحمد صِفوة الله وخيرته من خلقه ومصطفاه .... والصفى: ما اصطفاه الإمام من المغنم لنفسه والصفية والصفى: الناقة الكثيرة اللبن والنخلة الكثيرة الحمل وذلك أن صاحبها يصطفيها. ويقولون: أصفت الدجاجة إذا انقطع بيضها كأنها صفت أي خَلَصت من البيض. ومنه الباب الصفا والصفوان وهو الحجر الأملس لأنه صفا من الطين والرمل. ويوم صفوان إذا كان صافي الشمس شديد البرد.

٢- والصافي هو الخالص من شوب شركة غيره له، والمصطفى هو المُخلَّص من غيره قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ

ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. فإن قلت: أصطفاهم سبحانه لشيء فعلوه أم هكذا الحكمة؟ فالجواب: أنه سبحانه هو الذي أعطاهم ما جعلهم به أهلاً للاصطفاء: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٣- أساس الصفاء: صفاء علم. أ- يهذِّب لسلوك الطريق. ب- ويصحح همة القاصد.

أ- صفاء العلم المهذِّب ليسلك صاحبه الطريق: هذا العلم هو الذي جاء به الرسول ﷺ.

الجنيد: عِلْمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، متشبِّك بحديث الرسول.

الداراني: تمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة.

النصر آبادي: أصل هذا المذهب: ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع والاقتداء بالسلف وترك ما أحدثه الآخرون والاقامة على ما سلكه الأولون.

- ليسلك الطريق: أي طريق العبودية: وحقيقتها التأدب بآداب الرسول باطناً وظاهراً وتحكيمه باطناً وظاهراً والوقوف معه حيث وقف والمسير حيث

سار. فلا تخالفه البتةَ. فهو معلمك ومربيك ومؤدبك ظاهراً وباطناً لا واسطة بينك وبينه إلا سلسلة الاسناد للتبليغ[١]، لا عقل أحد ولا اجتهاده ورأيه وقياسه. وهذا هو تجريد شهادة محمد رسول الله.

- هذا العلم هو العلم الحاصل بالشواهد والأدلة وهو العلم الحقيقي. لا ما يُدّعى حصوله بغير دليل. فلا يقع نوع علم بغير سبب من الاستدلال. حتى الرسل أيدهم الله بأنواع من الأدلة والبراهين دلتهم على أن ما جاءهم هو من عند الله.

- وبهذا نفهم "العلم اللدني" بأنه العلم الذي قام الدليل الصحيح عليه وما عداه فلدني من لدن النفس وتسويل الشيطان: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾فمن قال: هذا علم لدنى بلا دليل ولا برهان له أعظم النصيب من هذه الآيات.

- فهذا هو طريق العلم الصحيح ومن كان عليه فلا يتعنى فهو كما قال القائل:

---

(١) أراد الشيخ أن لا تتقيد بالواسطة فلا تعمل بالحديث إلا بها كما عليه متعصبة المذاهب وإلا الرجوع إلى فهم العلماء والاستنارة بكلامهم ليس محل خلاف عند الإنصاف.

من لي بمثل سيرك المدلّل تمشي رويداً وتجي في الأولِ.

ومن كان على غير هذه الطريق فهو: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

ب- ليس الشأن في علو الهمة وإنما الشأن في همة صحيحة، والذي يصحح الهمة هو العلم الحقيقي وأعلى الهمم: همة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصداً وأوصلت الخلق إليه دعوةً ونصحاً. وهذه همة الرسل وأتباعهم.

- همة صحيحة بتوحيد: أ- مطلوبها: بالاخلاص. ب- طلبها: بالصدق. جـ- طريقها: بالاتباع لا بالابتداع.

- أمثلة على الهمم العالية:

١- همة ربيعة بن كعب الأسلمي: "أسألك مرافقتك في الجنة".

٢- همة إبراهيم وإسماعيل: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥﴾.

تلّه: ألقاه. للجبين: للإنسان جبينان يكتنفان جبهته.

٣- همة رسولنا ﷺ حين عُرضت عليه مفاتيخ كنوز الأرض فأباها، وأبى أن يكون ملطاً نبياً واختار أن يكون عبداً رسولاً. وحياته كلها همة ﷺ فإنه أفضل الخلق وأفضل العابدين ولا يكون ذلك إلا بالهمة.

وللشيخ الفاضل محمد بن إسماعيل كتاب بعنوان: "صلاح الأمة في علو الهمة".

٤- وأما صفاء الحال. فالحال ثمرة العلم ولا يصفو حال إلا بصفاء العلم، وإذا صفا الحال وجد العبد حلاوة المناجاة. فإذا كان الحال مشوباً لم يجد حلاوة المناجاة. واعلم أن حلاوة المناجاة مبنية على معرفة الأسماء والصفات كاسم الودود وهو المحب المحبوب سبحانه وتعالى. وكذلك باقي الأسماء والصفات.

٥٦- منزلة الفرح.

- مثل هذه المنازل التي هي منازل آثار وثمار لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب وذلك بتحصيل المنازل التي هي شرط للوصول على هذه المنازل، يأتي على العابد زمان لا يكون له فرح إلا بالله وبفضله وعطائه ورحمته تولِّيه لعبده. وكذلك السرور والاستبشار وبينها فروق:

الفرح: يكون بالمحبوب بعد حصوله ومحله القلب. وهو فوق الرضا بالشيء.

الاستبشار: يكون بالمحبوب قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله ولذا قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ﴾.

السرور: يبدو على الوجه تقول: أسارير وجهه. وقد ورد في القرآن في موضعين فيما يتعلق بالآخرة: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ ﴾ ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾: نضرةً في الوجه وسروراً في القلب. وفيما يتعلق بالدنيا ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ ﴾.

والترجيح للفرح: لأن الرب تبارك وتعالى يوصف به ويطلق عليه اسمه دون السرور فدلّ على أن معناه أكمل من السرور ثم إن الله تعالى أمر به فقال: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ وكذلك أثنى على السعداء به فقال: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

- متعلقات الفرح:

١- فرح مطلق: ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾. وهذا مذموم.

٢- فرح مقيد: أ- مقيد بالدنيا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾: مذموم. ب- مقيد بفضل الله ورحمته: ١- فرح بالسبب. ٢- فرح بالمسبِّب.: بالسبب كقوله تعالى:

﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾ ﴿ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ وبالمسبِّب كقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ فإذن نفرح بالله وبفضله من العلم والإيمان وبالرزق، والفرح بالسبب دليل على الفرح بالمسبِّب والتعظيم له والمحبة له والرغبة فيما عنده وهذا الذي ينبغي الفرح به لا حطام الدنيا.

- **فإذن ما هو الفرح؟** لذة تقع في القلب بإدارة المحبوب ونيل المشتهى فيتولد من إدراكه حالة تُسمى الفرح والسرور.

والفرح أعلى أنواع نعيم القلب وكذلك السرور. والهم والحزن عذابه ولذا جاءت أذكار وأدعية كشف الهم والكرب لأنه مضر بالقلب.

- سرور القلب تجلبه هزتان. أ- هزة سرور ذوق: سببها ذوق الشيء السار. ب- هزة سرور سماع الإجابة: سببها الاستجابة لنداء الرحمن فيستجيب الله له.

أ- هذا السرور يَذْهب بثلاثة أحزان: ١- حزن أورثه خوف الانقطاع. ٢- حزن هاجته ظلمة الجهل. ٣- حزن بعثته وحشة التفرق.

١- تخلّف وانقطع عن رَكْب المحبين فاكتنفه خوف أورثه حزن. لكن بذوق طعم الإيمان يزول هذا الحزن وذلك بمثل هذه الآيات: ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ

﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

٢- **الجهل نوعان**: أ- جهل علم ومعرفة (كالنصارى). ٢- جهل عمل وغيّ (كاليهود). وكلاهما ظلمة ولذا كان العلم نوراً: ﴿ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا .... ﴾ ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ .... ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ....... ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ .... وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا .... ﴾ ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ .... نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ....... ﴾ ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.

٣- تفرق القلب عن الله: حديث: " من كانت الدنيا همه....." وهذا التفرق لا تحصل معه لذاق أهل الدنيا بأسرها كما في هذا الحديث. وهذا أمر لا يصدّق إلا من ذاق. قلت: وقد حصل لي مرة: ضاقت علّيّ نفسي ومكلني هم لا أعلم جهته ولا سببه حتى استحضرت لحظات إيمانية فزال عني ما أجد. ثم هذا التفرق لو لم يكن فيه إلا ألم الوحشة لكان كافياً فكيف إذا ابتلى – ولابد – بصحبة المنقطعين وهذه عقوبة من رأى النور فمشى في الظلام ورأى الأرض الخضراء فذهب يرعى القاحلة الجرداء كما هو حال من عرف طريق السلف ثم تركه من هؤلاء الشباب نسأل الله الثبات حتى الممات. فإذن في القلب شَعَث لا يَلُمّه إلا الاقبال على الله...../ انظر ص ٨٩٨.

فيا لوحشة الحجاب ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾.

ب- وأما هزة سرور سماع الإجابة: فالسماع قسمان – وإن شئت قل ثلاثة – سماع إدراك وسماع فهم وسماع إجابة: الأول والثاني تقوم بهما الحجة فيشترك فيهما المعرض والمجيب، والثالث يختص به المجيب، قال تعالى في الأول والثاني: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ وقال اليهودي الذي سأل النبي ﷺ عن أمور من الغيب وقال له ﷺ: "ينفعك إن حدثتك؟" قال: أسمع بأذني"/ م (٣١٥) وأما الثالث فكقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ أي سمع إجابة وانقياج وكذا قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ وأيضا قوله المصلي "سمع الله لمن حمده".

فهذا السماع: سماع الإجابة والقبول يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التام: سماع القلب والروح والجوارح قلت: وفي هذا عبرة للمعرضين فإنهم في وحشة لو كانوا يعلمون وهي باديته للمتوسمين.

وسماع الاجابة هذا محض التوفيق من الله تعالى لكن له أسباب.

- لمن كان له قلب: حي واعٍ.

- ألقى السمع: فيُميله كله نحو المخاطبة.

- وهو شهيد: حاضرا القلب والذهن.

وذلك كالمبصر فإنه يدرك حقيقة المرئي إلا: أ- بقوة مبصرة. ب- وتحديق. جـ- وحضور قلب. فإن فعل العبد ذلك سمع له ربه وأجابة وأعطاه فسُرّ وفرح بهذا العطاء.

٥٧- منزلة السر.

- السر لغة: ضد الإعلان فهو الخفاء ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ ﴾ وفيه معنى آخر وهو خالص الشيء ومستقره وقد مضى في السرور.

- هي منزلة وصول العبد إلى درجة إخفاء نفسه وعبادته وإيثار أن يكون في عامة الناس، لا يتميز لئلا يُعرف. قلت: فهي منزلة أويس القرني وأضرابه أي منزلة الأخفياء.

- أدلة هذه المنزلة:

١- قوله تعالى عن أتباع نوح علهي السلام إذ قال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ وقبل ذلك قول قومه له: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا .... ﴾ وقال بعد ذلك: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ وهذه الآيات تُبيّن لتتضح هذه المنزلة وما في هذه القصة حصل أيضاً لبنينا محمد ؟؟؟؟ قالوا له: اطرد بلالاً وعماراً وصهيباً فقال الله له: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ........﴾ وقولـــه تعـــالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ........﴾ فيتصور هؤلاء المترفون أنهم هم الأهل للهدى كما كانوا هم أهل العطاء الدنيوي، ومعلوم أنه لا تلازم بين هذا وذاك: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ – الذي هو دليل هذه المنزلة – قولان:

أ- الزجاج: أي ليس لي الإطلاع على بواطنهم وإنما أخذهم بالظواهر وذلك رداً على قول قومه: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي فما أدارني أنهم اتبعوني عن صدق ويقين أم هكذا؟ لا دخل لي في هذا.

ب- ابن القيم: الله أعلم بما في أنفسهم إذ أهّلهم لقبول دينه وتوحيده فهو سبحانه عليم حكيم يضع العطاء في مواضعه فيكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

٢- م عن سعد بن أبي وقاص قال له ابن عمر أنت هنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فضرب في صدره فقال هل اسكت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفيّ".

٣- م عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "رُب أشعث أغبر مدفوعٍ بالأبواب لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبره".

- طبقات الأخفياء:

الأولى: هم طائفة لها ثلاث صفات ثبوتية وثلاث سلبية.

الثبوتية: ١- علت هممهم. ٢- صفت قصودهم. ٣- صح سلوكهم.

١- همتك في الله وحده وفي رضاه لا ترضى بغيره بدلاً فهو مطلوبك ومرجوّك لا غله غيره ولا رب سواه أي اجعل همتك في تحقيق التوحيد وفي تحصيل جزاء ذلك.

٢- تصفي القصد من كل إرادة تزاحم مراد الله عزوجل فتتجر لطلبه سبحانه وتطلبه لذاته لا لغيره وعلامة ذلك اندراج حظك في حق الرب سبحانه وتعالى فيصير حظك هو نفس حقه سبحانه.

٣- بسلامته من الآفات والعوائق والقواطع والحُجب وإنما يصح ذلك بثلاثة أشياء:

أ- أن يكون على الدرب الأعظم، المنهاج المحمدي لا على اصطلاحات الدون وأذواهم.

ب- السلامة من البطالة والوقوف والدعة.

جـ- النظر إلى المقصود دوما حتى لا ينقسم وحتى يقطع العلائق وينحي العوائق ويلتمس الحقائق "أنت الحق ووعدك الحق..." ولسنا نقول هنا إن صحة السلوك تميت الطبيعة والنفس بالكلية وإنما الذي حصل أنهما قُهرا وأُسرا بسلطان العلم والسلوك فتكون حركتهما حركة أسير لا حركة أمير وأيضاً سلامة السلوك من الحُجب التي تحجب القلب عن الرب وهي عشرة:

١- حجاب التعطيل (شرك الربوبية).

٢- حجاب الشرك (شرك العبودية).

٣- حجاب البدعة القولية (الأهواء).

٤- حجاب البدعة العملية (السلوك).

٥- حجاب الكبائر الباطنة (كالحسد...).

٦- حجاب الكبائر الظاهرة (وهذه أخف).

٧- حجاب الصغائر.

٨- حجاب الفَضْلات والمباحات الزائدة.

٩- حجاب الغفلة عما خلقت له.

١٠- حجاب الغلو.

وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر: الشيطان ، النفس، الهوى، الدنيا وهذه الأربعة تُفسد القول والعمل والقصد والطريق، وتقطع القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب، وإذا وصلت تقطع طريق وصولها إلى الرب، والعبرة بالوصول إلى الرب لتحصيل الثواب العاجل والآجل فالعاجل: زيادة الإيمان واليقين وجمال الظاهر والباطن، والهداية لأحسن الأخلاق وصرف الأخلاق السيئة وحماية القلب من قطاع الطريق [قلت: الآن عرفت ما أنا وما عملي!!!].

وأما أن يبقى العمل في القلب لا يجد منفذاً ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فحينئذ يصبح من جنود النفس صول به وتتكبر وتطعى ويصيبه الصلف والغرور. فلا تغتر بالعمل إن لم يصعد إلى الرب سبحانه واعتبر حال ذي الخويصرة وحال حمار الذي كان شريباً سطيراً ويحب الله ورسوله. فإذن طغيان المعاصي أسلم عاقبةً من طغيان الطاعات. قال ﷺ عن الخوارج: "يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم" أي لا يصعد أو لا يصل إلى القلب. وعلى الأول يتم الاستدلال على المطلوب هنا. وعلى الثاني يتم الاستدلال على عدم الوصول إلى القلب.

السلبية:

١- لم يوقف لهم على رسم. ٢- لم يُنسبوا إلى اسم. ٣- لم يُشَر إليهم بالأصابع.

١- لأنهم سبقوا سبقاً بعيداً فلم يقف السائرون لهم على أثر على الطريق فلا يدري المتأخر أين ذهبوا والمشمِّر بعدهم قد يرى ميزانهم.

٢- أي لم يشتهروا باسم يعرفون به ولا بعمل يتميزون به (لأن شأنهم الاستتار) فإذن هم أتوا بالعبودية المطلقة فله مع كل عبودية نصيب وكذا لا بِزِيّ ولا بطريقة غير طريقة الرسول ﷺ بل شيخهم الرسول ﷺ وطريقهم الاتباع وخرقتهم لباس التقوى ومذهبهم تحكيم السنة ومقصودهم ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ورباطهم ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾. ونبسهم أبى الإسلام ......

٣- فهم أهل الذخائر والقواصم والآفات كلها تحت الرسوم والشهرة هذه هي التي قطعت أكثر الخلق فمن الناس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره وبجلوس لا يجلس غيره ومشية لايمشي غيرها وهيئة لا يخرج عنها يتعبد في الخلوة فإذا قيل له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدّ ذلك فضولاً وشراً.

الثانية: طبقة: أ- أشاروا عن منزلة وهم في غيره. ب- ورَّوا بأمر وهم لغيره. جـ- ونادوا على شأن وهم على غيره.

أ- يشيرون – مثلا – إلى منزل "التوبة" "والمحاسبة" وهم في منزل "المحبة" والوجد والذوق.

ب: يظهرون أمراً وهم لغيره فيُخفون المحبة باظهار التوبة والمحاسبة لنفوسهم.

جـ- ينادون إلى مقام وهم على مقام آخر.

والخلاصة أنهم يظهرون للمخاطب أنهم من أهل البدايات وهم في أعلى المقامات، وهم مع الناس بظواهرهم ويخاطبونهم على قدر عقولهم.

فهم بين: أ- غَيرةٍ عليهم تسترهم. ب- وأدب فيهم يصونهم. جـ- وظُرفٍ يهذّبهم.

أ- يغار الحق عليهم فيسترهم عن الخلق ويغارون على أحوالهم ومقاماتهم فيسترونها عن رؤية الخلق كما يغار الغيور على حريمه نسائه وبناته وأمه وأخواته.

ب- أن يقوم به أدب يصونه عن سوء الظن به ويصونه عن دناءة الأخلاق فأدبهم صِوانٌ على أحوالهم. فالأدب زينة الحال.

جـ- ما قُرن شيء إلى شيء أحسن من ظُرفٍ إلى صدق والإخلاص (لا كما عليه الناس يكشر لك ابتسامة صفراء لا حياة فيها) ومع ذلك الظُرف فقلبه مجتمع على الله ومراضيه والعجب أن أكثر السائرين يضيقون عن سوى ماهم بصدده فلا يحتملون أهليهم وجلسائهم ويضنون عليهم بالبشر والطلاقة والتبسط ولين الجانب، والذي ينبغي أن من رسخ في هذا الشأن استأنس به الناس وانبسط إليهم وحملهم على عُجرَهم وبُجَرهم وأخذ العفو من أخلاقهم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ والناس ينفرون من كثيف الطبع ولو بلغ في الدين ما بلغ، وما ثَقُل

أحد إلا من آفة، تجد الناس يبغضون شخصاً ملتزماً – فإذا لم يكن بغضهم إياه لدينه – فلا بد أن يكون هناك شيء.

ومن ظُرف هذه الطبقة أن لا يَظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام ولا يواجهه إذا لقيه بالحال بل بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ وطلاقة الوجه فيفرش له بساط الأنس فهو أحب إليه من الفُرش الوثيرة لكن على كل حال: احذر الاسترسال مع هذه الأمور فإن من استرسل معها قطعته ومن تركها بالكلية وعّرت عليه طريق السلوك وخير الأمور أوساطها.

٥٨- منزلة الغربة.

- الغُربة لغةً من غَرَب يغرُب له معانٍ عديدة يهمنا منها: البعد عن الوطن، يقولون غربة الدار ومن ذلك غروب الشمس لبعدها عن وجه الأرض/ ابن فارس. لكن ليس المراد هنا الغربة الحسية وإنما هي المعنوية وهي "عدم الشكلط كما قال أحدهم:

فوالله ليس البعد في شقة النوى وإنما واللهِ في "عدم الشكل"
وإني غريب بين بُست وأهلها وإن كان فيها عشْيرتِي وبها أهلي

- أدلة هذه المنزلة:

١- قولـــه تعـــالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ لما ذكر سبحانه في سورة هود القرون المهلكة قال: فهلا كان من هذه القرون جماعة ينهون أقوامهم عن الفساد ويشدّون من أزر الأنبياء، وهم بقايا أهل الخير يدعون إلى الهدى وينهون عن الفساد ما لردى، وقد وُجدوا ولكنهم قليلون جداً، هم الغرباء في كل ملة وهم البقية الصالحة السائرة على الصدر الأول. وهذه الطائفة نجت لما جاء عقاب الله عزوجل، وأما في هذه الأمة فالعقاب يعم ويُبعثون على نياتهم.

٢- حديث: "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء" وفي رواية: "وهو يأرز بني المسجدين كما تأرز الحية في جحرها"/ (م) عن أبي هريرة وابن عمر و(ت) عن ابن مسعود و (هـ) عن أنس و(طب) عن سلمان وسهل وابن عباس.

وعند أبي عمرو الداني في "الفتن" والأجرى في "الغرباء": "قيل ومن الغرباء يارسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس"/ الصحيحة (١٢٧٣) من حديث ابن مسعود.

وفي حديث عبدالله بن عمرو عند أحمد: "أناس صالحون في أُناس سُوء كثير من يعيهم أكثر ممن يطيعهم" وهو حسن لغيره حم (٦٦٥٠). وفي حديث ابن مسعود: "النُّزّاع من القبائل" أي الذين نزعوا من قبائلهم وفارقوهم فهم غرباء.

٣- حم عن أنس والبزار عن ابن مسعود وغيرهم مرفوعاً: "رُبّ أشعث أغبر ذي طِمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبَرّه"/ ص.ج (٣٤٨٧). صحيح.

٤- خ عن ابن عمر مرفوعاً: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل".

٥- حديث أبي ثعلبة الخشني عند د ت ص٩٢٢/ الصحيحة (٤٩٤). وله شواهد عدة.

٦- الصحيحة (٩٥٧) ت عن أنس موضوعاً: "يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه.....".

- أوصاف الغرباء وأحوالهم:

١- يصلحون إذا فسد الناس.

٢- ينزعون من بين أهليهم إلى أشكالهم لأن الأرواح جنود مجندة والطيور على أشكالها تقع.

٣- قليلون وأقل من القليل في ناس سوء كثير.

٤- من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم.

٥- الغربة على درجات: فالناس في هذه الدنيا غرباء، والمسلمون في الناس غرباء، والمؤمنون في المسلمين غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل

السنة في أهل العلم غرباء والداعون إلى السنة في أهل السنة غرباء فقمة الغربة في الدعوة إلى طريق الغربة.

٦- الغربة إنما هي بالنسبة إلى الناس وإلا فلا غربة على الغرباء ولا وحشة عليهم كيف وهم أهل الله حقاً وهو وليهم وإن عاداهم أكثر الناس.

٧- الغريب لا يجزع من ذل الدنيا ولا ينافس في عزها للناس حال وله حال، الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب/ قله الحسن.

٨- الغرباء مجرِّدون للتوحيد والاتّباع.

٩- الغرباء قابضون على الجمر والناس لائمون لهم ويعدونهم أهل شذوذ ومفارقة للسواد الأعظم.

١٠- يقول ابن القيم: الإسلام الحق – الذي كان عليه رسول الله ؟؟؟ وأصحابه – هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره وإن كانت أعلامه ورسومه ظاهرة فالإسلام الحقيقي غريب جداً وكيف لا تكون فرقة واحدة غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، كل فرقة فيها لها رياسات ومناصب وولايات يتبعون أهواءهم وشهواتِهم. قلت: عجبٌ، يقول هذا في زمنه.

١١- الغريب حقاً له أجر خمسين من الصحابة كما في حديث أبي ثعلبة الخشني عند د ت وانظر ص ,٩٢٢

١٢- لا بد للغريب أن يوطّن نفسه على قدْح الجهال وأهل البدع وطعنهم فيه وتنفير الناس عنه لأنه غريب في دينه لفساد دينهم وفي صلاته لسوء صلاتهم وفي تمسكه بالسنة لتمسكهم ببدعهم.

١٣- الغريب غريب في دينه ودنياه لا يجد من العامة معنياً ولا مساعداً.

٥٩- منزلة التمكن.

- التمكن: تَفَعُّل من المكان وذلك أنه في هذه الحالة يصير المقام مكاناً للقلب منزلاً ومستقراً.

واصطلاحاً: هو القدرة على التصرف في الفعل والترك وهو فوق الطمأنينة لأن الطمأنينة استقرار والتمكن منازعة نحو الكمال التام وصبر على الإعتقادات.

- أدلة هذه المنزلة:

١- ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ فإذن هو موقن صابر ولا يكون متمكناً غير مستخف إلا بهذا.

٢- ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي على مكاني وتمكني. وطريقتي التي اعتقدت صدقها وحقها.

٣- الآيات التي فيها الاعتصام ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ

تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ هذا في اعتصام العمل = توكل واستعانة وتفويض وأما اعتصام العلم وهو الاعتصام بالوحي: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾.

- مراتب التمكن.

أولاً: تمكن المريد: أ- بصحة المقصود. ب- وسعة الطريق. (أي الموافقة في المقصود والطريق؛ في الغاية والوسيلة. جـ- وأيضاً استقامة الطريق وإلا انحرف إلى السبل ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

ثانياً: تمكن السالك: أ- بصحة الانقطاع: انقطاع قلبه عن الأغيار. ب- وبرق كشف: وذلك بزوال الحجاب وهو نفسك فتعبد الله كأنك تراه. جـ- وضياء حال: وذلك بمعرفة الأسماء والصفات ومن شاهد ذلك شاهد متعلق كمن شاهد صفة الكلام زادته تعظيماً لله عزوجل وكذلك بقية الصفات.

٤- ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

٦٠- منزلة المعاينة.

- المعاينة مفاعلة من عاين وهي وإن كانت من جانب واحد لكن لتكررها ومعالجتها كانت مفاعله. وهي بالحس وبالعقل الأولى بالبصر والثانية بالبصيرة

وهي القوة العاقلة، الأول يقع على نفس المرئي أو مثاله الخارجي والثاني يقع على مثاله العلمي المطابق للخارجي.

- قد تغلب البصيرة على البصر والسمع حتى يكون الحكم لها فيسمع ويبصر ما تدركه البصيرة لكن لا تنسى أن المُدَرك بالبصيرة هو شاهد دال على الحقيقة وليس هو الحقيقة كمن يقول رأيت الله في بديع صنعه فإنما رأى شاهداً دالاً على الله ومن يقول: رأيت نور الله إنما هو شاهد على نوره وهو نور التعظيم والإجلال. لأنه سبحانه لا يُرى في الدنيا. بل ولا جنته ومن هنا تعرف وجه حديث: "إني أجد ريح الجنة من دون أحد" "وإذا مررتم برياض الجنة فارتعوا" "الجنة تحت ظلال السيوف" فالمراد بكل هذا المثال العلمي لا الحقيقة .

- على حسب الشواهد تكون الأعمال وحسنها.

- مراتب الشواهد:

١- شاهد الدنيا وحقارتها.

٢- شاهد الآخرة ودوامها.

٣- شاهد من النار وتوقدها.

٤- شاهد من الجنة وما أُعِدّ لأهلها.

٥- شاهد تضمحل معه الشواهد السابقة لكن لا تزول وهو شاهد جلال لارب وهو ما يقوم بقلوب المحبين والعابدين وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة وبقية مقامات العبودية. وشرط هذا الشاهد هو طهارة القلب ونزاهته.

وليُقرأ شيء عن هذه الشواهد من هناك ص,٩٣٢

٦١- منزلة الحياة.

- الحياة لغة: الحياة والحيوان ضد الموت والمَوتان، ويسمى المطر حَيَاً لأن به حياة الأرض، وناقة مُحْى ومحيِيَة: لا يكاد يموت لها ولد.

- واصطلاحاً: المراد بها هنا حياة الروح بالعلم والإيمان إذ لا حياة للروح إلا بذلك.

- أدلة هذه المنزلة:

١- ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ .... ﴾.

٢- ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ .... ﴾ أي موتى القلوب.

٣- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .... ﴾ فسَمّى وحيه روحاً لأن به حياة الأرواح.

٤- ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﴾.

٥- ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

فالوحي حياة الروح كما أن الروح حياة البدن فمن فقد روح الروح فهو ميت وإن كان حياً ببدنه كحياة البهائم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾.

٦- ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾. هي حياة القلب ونعيمه وسروره بالإيمان وآثاره وإذا كانت حياة القلوب كانت حياة الجوارح. "ألا إن في الجسد مضغة....." "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه". وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث: (الدنيا والبرزخ والآخرة) كما أن المعيشة الضنك تكون فيها أيضاً ومدار ذلك على الوحي والذكر ولوازمهما (الإيمان والعمل الصالح).

٧- ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

٨- ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا .... ﴾.

- مراتب الحياة ست.

الأولى: حياة العلم.

- وفي الجهل – قبل الموت – موت لأهل ... وأجسامهم قبل القبُور قبُورُ

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... فليس لهم حتى النشور نشور.

فالجاهل جسمه قبر يمشي به وذلك لأنه ميت ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ شُبهوا بأهل القبور لأنهم قد ماتت أرواحهم وما الفائدة في بدن بلا روح وتنبه أن هذا ليس تشبيهاً لموت الروح بموت البدن بل هو ميت القلب والروح حقيقةً.

- في كتاب الزهد عن لقمان: إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل المطر.

قلت: قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ....﴾ وحديث أبي موسى **عند** خ م مرفوعاً: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم .....".

- وعند طب عن معاذ قال: ".. العلم حياة القلوب من الجهل....." أثر طويل جداً ص ٩٤٤.

الثانية: حياة الإرادة والهمة:

- وذلك بحاة القلب وسلامته، والحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية ومن ليس له همة فحياته كالبهائم:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة   وليلك نوم والردى لك لازم
وتكدح فيما سوف تنكر غِبّه   كذلك في الدنيا تعيش البهائم

- وحياة القلب. أ- بدوام الذكر: كما أن حياة البدن بالطعام والشراب. ب- وترك الذنوب.

- قال ابن المبارك:

رأيت الذنـوب تمـت القلــوب وقد يـورث الذلَّ إدمــانُها

وتْرك الذنـوب حيــاة القلوب وخير لنفســك عصيــانها

- ولا يزال المرض بالقلب ويتوالى الضعف عليه حتى يصبح القلب لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً كما في حديث حذيفة مرفوعاً: "تعرض الفتن على القلوب....".

- والعاقل هو الذي يخاف موت قلبه لا موت بدنه إذ أكثر الخلق يخافون موت أبدانهم ولا يبالون بموت قلوبهم ولا يعرفون حياةً غلا الحياة الطبيعية وما هي إلا ظل زائل ونبات سريع الجفاف ومنام يُخَيّل أنه حقيقة.

ومن أمات نفسه موتاً إرادياً – وذلك بقمع الشهوات ومخالفتها – كان موته الطبيعي حياةً له تلك هي الحياة الهنيئة بعد الموت ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ ﴿.......بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ....﴾.

الثالثة: حياة الأخلاق والصفات المحمودة:

فإن صاحب الخلق حي والفظ الغليظ القلب ميت ولذا ينجذب الناس إلى الأول وينفرون من الثاني لخروج رائحته فيشمئزون منها، ومدار الأخلاق على الحياء ولذا اشتق اسمه من اسم الحياة، تأمل كيف قال ﷺ: "الحياء خير كله" وقال:

"إن لم تستح فاصنع ما شئت" والذي لا يستحي قد مات قلبه فلا تؤلمه القبائح، ولما كان الأنبياء أحسن الناس خلقاً كانوا أكمل الناس حياةً حتى إن الأرض لا تأكل أجسادهم.

ومن أجلّ الأخلاق التبسّط الذي مداره على البشر وسعة الصدر والمزاح بالحق وإجابة الدعوة ولين الجانب ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ومن كان كذلك انجذبت إليه القلوب وصار إماماً للناس لكن احذر – مع التبسط – أن تُطلع أحداً على سرّك مع الله عزوجل. فأنت خفيّ في بسْطك . قلت: في صحيح البخاري عن ابن مسعود: "خالط الناس ودينك لا تَكْلِمنّه"/ انظر تعليق على صحيح الأدب المفرد باب (١٠٧).

الرابعة: حياة الفرح والسرور وقرة العين بالله:

- حديث "وجُعلت قرة عيني في الصلاة".

- هذه الحياة تكون بعد الظفر بالمطلوب فهل ضَفِرنا بالله عزوجل؟!!! كلا. وكيف نظفر وعقولنا مسبية في الشهوات وأملنا موقوف على اجتناء اللذات وسيرتنا جارية على أسوأ العادات ودنينا مستهلك بالمعاصي والمخالفات وهمتنا واقفة خع السفليات ففي الشهوات منغمسون وفي الشبهات منتكسون وعن الاصح معرضون وعلى المرشد معترضون، وبالجمعة حياتنا بهيمية وتميزت علينا البهائم بخلوها من المنكرات.

- فهل من مشتاق إلى هذه الحياة وطالب لها؟ وعلى كل حال فالسؤال عنها دليل على حياة القلب!

طريقة هذه الحياة: ١- المعرفة بالله عزوجل. ٢- المعرفة بالآخرة. ٣- فيتوب إلى الله عزوجل. ٤- ويقوم بالمأمورات وينتهي عن المنهيات. ٥- ثم تقوم حارساً على قلبك فلا ترد عليه خاطرة يكرهها الله.

ومن صدق في هذا رُزق محبة الرسول وفُتح عليه فهم الوحي المنزل وفُتح في قلبه عين يشاهد بها صفات الرب سبحانه وتعالى وأعظمها "الحياة" و"القيومية" فيحصل له القرب والمعية ويصبح صادقاً في محبة الله باذلاً الجهد في امتثال أمره. فقلبه للمحبة وتوابعها ولسانه للذكر وجوارحه للطاعات، فيتقرب إلى ربه أولاً بالأعمال الظاهرة ثم بأعمال القلوب ثم هناك قرب ثالث يدل عليه حديث: "من تقرّب إلى شبراً....." ولا تأيس فمن أكثر طرق الباب وَلَج وعلى قدر ما تبذل للقرب يحصل لك القرب وزيادة فإنك تتقرب إلى أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى.

- والجزاء من جنس العمل:

- ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾.

- ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ ﴾.

- حديث: "منت ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيّر من أي حلل الإيمان شاء يلبسها"/ الصحيحة (٧١٨).

- ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

- "من ذكرني في نفسه....."

ثم إياك أن تذوق حلاوة القرب ثم تبتعد فيحل بك بلاء الإنفصال الذي يُعرف بـ "أين يبيت قلبك إذا أخذت مضجعك وأين يطير إذا استيقظت من منامك".

الخامسة: حياة الأرواح بعد مفارقة الأبدان:

- فالمؤمنون أرواحهم في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهار الجنة وإن كانت أجسامهم ممزقة وأوصالهم مقطعة فالعمل على الساكن لا على الطلل.

- وأعلى حياة هي حياة الأنبياء لأنه إذا كانت حياة الشهداء كما ذُكر في القرآن والسنة – يتمنون الرجوع إلى الدنيا فيقتلون مرات وكرّات لما يرون من الكرامة – فما بالك بحياة من كانوا السبب في ذلك إنما نال الشهداء هذه الحياة بفضل متابعة المرسلين.

- حياة مع الرفيق الأعلى ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾.

- ما نسبة هذه الحياة إلى حياة الرفيق المؤذي الذي تنغّص مشاهدته الحياة فضلاً عن مخالطته ومعاشرته.

- إن الموت تحفة المؤمن لأنه الباب الذي يدخل منه إلى هذه الحياة ولكننا للإلف والعادة آثرنا حياة السجن على حياة السعة.

- هذه الحياة عرفناها بالخبر الإلهي الصادق على يد أصدق الناس فليمت الملحدون والزنادقة الذي ينكرون الحياة الآخرة بعقول عفنة وقلوب ميتة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ....كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ وغيرها من الآيات الكثيرة التي صرّفها الله تبارك وتعالى. ولكن: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ واغتروا بالحياة الدينا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ والآيات في الحذر من الدنيا كثيرة جداً.

السادسة: الحياة الآخرة.

- ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾.

- ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ فالحياة الدنيا كالنوم بالنسبة إليها وهي ظل زائل "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه...."

- قيل تنفست الآخرة فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها.

- كل المنازل المذكورة قبلُ هي وسيلة إلى هذه الحياة.

- إذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح حياة طيبة فما الظن بحياتهم في البرزخ فما الظن بهذه الحياة الآخرة.

- لكن ما هو سبب تخلف الناس عن طلبها؟ والزهد فيها مع رغبتهم في هذه الحياة الدنيا

١- ربما يكون السبب الفساد في تصورها وشعورها.

٢- أو التكذيب بها. ٣- أو آفة في العقل وعمى. ٤- أو إيثار للحاضر على الغائب.

٥- وكل ذلك بسبب ضعف الإيمان فإنه الآمر لصاحبه: ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ومن قوي إيمانه قوى شوقه إلى هذه الحياة.

٦- جثوم الغفلة على القلب: والغافل نائم القلب مع حياة بدنه ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾. والمتيقظ حي القلب ولو كان نائماً "تنام عيناي ولا ينام قلبي".

- ومع ذلك فإن نور الحياة الآخرة والحياة فيها مقتبس من نور دار الدنيا وحياتها لكن هذان بنور الوحي والقرآن فعلى قَدْر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار وفي البرزخ وفي موقف القيامة وعلى الصراط.

- وأخيراً فإن علامة الحياة الأنفاس، وأنفاس الحياة خمسة:

١- نَفَس الخوف ومصدره مطالعة الوعيد.

٢- ونفس الرجاء ومصدره مطالعة الوعد.

٣- ونفس المحبة ومصدر مطالعة الأسماء والصفات والنعمة.

٤- ونفس الإضطرار ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾.

٥- ونفس الافتخار وهو فرح وسرور لا يمكن دفعه عن النفس بما فتح عليه ربه.

٦٢- منزلة المعرفة.

- المعرفة لغة: السكون والطمأنينة إلى شيء تقول عرفت فلاناً: سكنت إليه وهذا أمر معروف: سكنت إليه النفس فمن عرف شيئاً سكن إليه ومن أنكره توحش منه. وأما العلم فأصله أثر في الشيء يميزه عن غيره فالعلم ميّز العالم عن الجاهل. وفي "الأصول" لابن عثيمين: المعرفة تشمل العلم والظن. والذي يهمنا هنا هو المعنى الأول وهو السكون والطمأنينة.

- أدلة هذه المنزلة:

١- قوله تعالى: ﴿ ....مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ .... ﴾ لكن لماذا عُبِّر بالمعرفة دون العلم وقد جاء مثل ذلك – أعني البكاء – في سياق العلم وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴾.

والجواب: يبدو لي – والله أعلم – أن العلم وسيلة إلى المعرفة وأن المعرفة علم استقر فاطمأنت النفس إليه.

٢- وكل آية في العلم هي دليل على هذه المنزلة كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ والأكثر استعمالاً في القرآن هو العلم.

- أثار المعرفة وشواهدها وأماراتها: (وفي ضمن ذلك محاولة تعريفها.

١- من عرف الله هابه وبزيادة المعرفة تزيد الهيبة منه سبحانه.

٢- المعرفة توجب السكون.

٣- علامة المعرفة الاحساس بقرب القلب من الله والأُنس به سبحانه.

٤- من كان بالله أعرف كان له أخوف: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ وحديث: "ألا إني أعلمكم بالله وأخشاكم له".

٥- من عرف الله ضاقت عليه الدنيا بسعتها وعكس من عكس فقال: من عرف الله اتسع له كل ضيّق، ولا منافاة وذلك باعتبارين ضاقت عليه الدنيا إذا لم تساعده على مطلوبه واتسعت له لأن قلبه ليس فيها ولا محبوس بها.

٦- من عرف الله صفا له العيش وطابت له الحياة ولم يخف مخلوقاً وأنِس بالله وحده.

٧- من عرف الله وحّد فيه الرغبة وقرّت به عينه وأحبه ولم يبق له رغبة فيما سواه.

٨- العارفون أخذوا الأعمال عن الله وإلى الله رجعوا فيها قال الجنيد: ولو بَقِيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة. يقول هذا رداً على القوم الذي أسقطوا الأعمال قال: وهو عندي عظيم والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا.

٩- من علامات العارف: لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ولا يرى على أحد له فضلا ولا يرى على أحد له حقاً.

١٠- العارف لا يأسف على ما فات ولا يفرح بآت لأنه ينظر إلى الأشياء بعين الفناء والزوال.

١١- لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يُظِل كل شيء وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

١٢- وقال يحيى بن معاذ: "يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاءٍ على نفسه وثناء على ربه". وذلك أن هذا يدل على معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله.

١٣- العارف لا ينشغل عن الله طرفة عين حتى لو أُعطى ملك سليمان وذلك أنه إذا اشتغل بشيء من الملك فهو يشتغل به لله ولأجله سبحانه.

١٤- العارف مستأنس بالله متسوحش من الخلق مفتقر إلى الله غني عن الخلق.

١٥- العارف يتلوّن بتلون أقسام العبودية فتراه ذاكراً مصلياً متعلماً معلماً مجاهداً مساعداً للضعيف، يتنقل في منازل العبودية وذلك كلن لمعبود واحد.

١٦- العارف كأئن بائن: أ- كائن مع الخلق ظاهراً بائناً عنهم باطناً. ب- كائن مع أنباء الآخرة بائن عن أنباء الدنيا. جـ- كائن مع الله موافقةً بائن عن الناس مخالفةً.

١٧- "العارف لا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحُكم" فهواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

١٨- "ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله".

١٩- مجالسته العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك والرياء والغفلة والدنيا والكبر وسوء الطوية إلى أضدادها.

- حد المعرفة عند الهروي وشرح ذلك.

المعرفة: "معرفة الصفات التي وردت أساميها بالرسالة وظهرت شواهدها في الصنعة ويه على أربعة أركان: ١- اثبات الصفات باسمها من غير تشبيه

(المعنى). ٢- ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل (الكيفية). ٣- والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأيلها. ٤- مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات"

- قوله: "المعرفة معرفة الصفات":

١- نعم فإن المعرفة المتعلقة بالخالق المعبود هي المعرفة الحقة وما سواها من المعارف إن لم تكن وسيلة إليها فهي وبال ونكال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾فماذا أغنت عنهم علومهم من عذاب الله؟!!

٢- ولا تقوم قدم الإيمان إلا بمعرفة الصفات فتعرُّفها هو أساس دين الإسلام.

٣- ومن أنكرها مسيء الظن بربه ولم يأت وعيد على شيء ما أتى على إساءة الظن بالله: ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ .... ﴾.

٤- وأحب الأشياء إلى الله تعالى حمده بصفاته والثناء عليه بها فإذن جحدها أعظم الكفر والإلحاد وهو شر من الشرك فالتعطيل شر من الشرك بل هو أساس كل شرك وبهذا يتضح معنى قول الخليل: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ماذا ظننتم به حتى أشركتم أهو فقير محتاج أهو له ولي من الذي، أله ولد يحتاج إليه، أهو لا يقدر على تلبية الحوائج حتى طلبتم الحاجات من غيره.

٥- إن خلاصة وزبدة رسالة الرسل من ثلاث قواعد: أولها: التعريف بالمدعو إليه وثانيها: التعريف بالطريق الموصلة إليه. ثالثها: التعريف بحالهم بعد الوصول. قلت: وهذه القواعد الثلاث مرسومة منقوشة في أم الكتاب على هذا الترتيب فلله در هؤلاء العلماء الذي عرفونا بكتاب ربنا. فإذن بداية الطريق هي معرفة الأسماء والصفات وإذا أردت ادراك ذلك فانظر في القرآن لتعلم حظ الأسماء والصفات من آيات فما آيات الأحكام إلا خمسمئة أو تزيد/ وليُقرأ ما في ص ٩٨٦ من قوله: "فعرّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه...... إلى قوله وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة".

٦- إن معرفة الصفات هي الشواهد (الأدلة) على المحبوب سبحانه وتعالى وإذا كانت كذلك فهي التي تحث على السير إليه سبحانه وتعالى، ولولاها لتعطل السير لأن القلوب إنما تحب من تعرفه وتخاف وترجوه وتشتاق إليه ولذا كان المعطّل خَلْواً من كل هذا إذ كيف تأله القلوب من لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ولا يفعل شيئاً ألبته فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته وهم ما عطلوا تنزيهاً وإنما ضُرب عليهم حجاب معرفته لأنهم ليسوا أهلاً لها ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾.

- قوله: "التي وردت أساميها بالرسالة.....".

هذه دلائل الصفات:

١ـ دلائل الرسالة: فصّلت الرسالة هذا الأمر بما لا يدع مجالاً لشبهة ولا احتمال فإن أدلة الكتاب ولاسنة جاءت بالاثبات المفصّل للأسماء والصفات والأفعال فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه من الوجوه كما في الأمثلة الآتية.

- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ .... ﴾ فلا يمكن تأويل إتيانه سبحانه بإتيان ملائكته أو إتيان أمره.

- ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ....وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ ففرّق بين الوحي والتكليم وأكد التكليم بالمصدر.

- ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾.

- حديث: "إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو....." وهكذا أدلة الرسالة واضحة لا إجمال فيها. فكيف أوّلها هؤلاء الذي كانوا وبالاً على الأمة وفتحوا الباب للآخرين لتأويل آيات الأمر والنهي وآيات المعاد. والتأويل هو أصل الفساد وزوال الممالك وتسليط أعداء الإسلام عليه إنما كان بسبب التأويل حتى إن عقلاء الفلاسفة حرّموا التأويل مع اعتقادهم لصحته لأنه سبب فساد العالم وتعطيل الشرائع. قلت: بيانه أن كل أمر أمر الله به أو نهى الله عنه يمكن تأويله على قواعد هؤلاء بما لا يكون هناك أمر ولا نهي ولا معاد ولا شيء إلا عبادة الهوى والشيطان وبهذا تخرب الممالك والعباد والبلاد.

٢- دلالة شواهد الصنعة: فكل مصنوع ومخلوق يدل على صفات صانعه وخالقه. فالاتقان يدل على حكمة الصانع والنفع يدل على رحمته سحبانه والتنوع يدل على فعله الاختياري وإرادته وعلمه وكمال المخلوق يدل على كمال خالقه فمعطي الكمال أحق به. وحصول الاجابة يدل على علم الرب الجزئيات وعلى سمعه وبعصره واطلاعه والإحسان إلى المطيعين يدل على محبته ورضاه وعقوبته للظلمة والعصاة والأعداء تدل على صفة الغضب والسخط وغير ذلك. وقد دعا سبحانه إلى ذلك – أي الاستدلال بالآثار والشواهد على الصفات الإلهية فنستدل بالخلق والرزق والعطاء الدائم وعدم المعاجلة بالعقوبة ومغفرة الذنوب والتوبة على صفات الخالق الرازق المعكي الحليم الغفور التواب وغيرها.

فالخلق والأمر يدلان دلالة واضحة على صفات الخالق الآمر ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ .... ﴾.

تأمل سطور الكائنات فإنها   من المَلِك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خطّ فيها – لو تأملت حظها-   ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ
تشير بإثبات الصفات لربها   فصامتها يهدي ومن هو قائلُ

ولكن هذا إنما يدركه من جعل الله تبارك وتعالى له نوراً ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾. ومما يساعد على هذا التفكرُ الذي دعا الله تبارك إليه في غير ما آية ومدح أهله وأثنى عليهم – وقد خطبنا خطبة في ذلك – وهذا هو الاعتبار الذي هو العبور من الأثر إلى المؤثر ومن الخلق إلى الخالق. ثم هذا الاعتبار

يقوى حتى يستدل العبد بالصفات على الأفعال وهو الطريق الثاني للاستدلال الذي ذكره سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فأسماؤه وصفاته دالة على فعله وأمره سبحانه. فاسمه الحميد يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر واسمه الحكيم يدل على أنه لا يخلق شيئاً عبثاً واسمه الغني يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وهكذا .

ـ قوله "وهي على أربعة أركان"..... إلخ.

١ـ اثبات الصفة فلا ينفيها ولا ينكره، يثبتها باسمها لا باسم آخر ويثبت معناها الذي عليه دلت. كما تسمي الجهمية والمعطلة السمع والبصر والقدرة والحياة والكلام أعراضاً ويسمون الحكمة علةً وغرضاً ويسمون الفعل القائم به سبحانه حوادث ويسمون علّوه على خلقه تميزاً. وههنا تنبيه أن باب الأخبار والأفعال أوسع من باب الأسماء فليس كل خبر أو فعل يُشق منه أسم كما اشتقوا من يريد المريد والصانع والفاعل والمتقن حتى غلط بعضهم غلطاً شنيعاً فاشتقوا الماكر والمخادع والفاتن والكائد وأما الواجد "بمعنى ذي الوُجد والغنى" فهو وإن كان معناه صحيحاً لكن لم تجيء التسمية به إلا في حديث تعداد الأسماء وهو حديث ضعيف بهذا السياق فهذا الإثبات ونفي التشبيه عن الإسم.

٢ـ نفي التشبيه عن الصفة لكن بلا تعطيل وذلك أنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله فتثبت المعنى ولا تشبّه في الكيفية لأنك لو شبهت تروم التنزيه فتعطّل. ثم كيف تشبه وأنت لا

تعلم حقيقة ذاته والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى حذوه والعقل قاصر محدود عن إدارك الحقيقة حتى فيما يتعلق بما أُخبرنا به مما يكون في اليوم الآخر فكيف بالخالق القهار ولقرأ ما في ص ٩٩٨. فقتل الله الجهمية المعطلة أساءوا الظن بالله حيث نسبوا إليه أنه أنزل كتاباً مشتملاً على ما ظاهره الكفر وأن حقائق غير مراده وأساءوا الظن بالرسول إذ لم يبين البيان الكافي للأمة وأساءوا الظن بأتباعه حيث كانوا مشبهة ممثلة إذ أثبتوا ما أثبته الله ورسوله.

٣- الإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها. وقد بُيّن هذا أن الواجب اثبات المعنى بلا كيف ولا تأويل.

٤- اسقاط التفريق بين الذات والصفات: فإنه يمتنع تجريد الذات عن الصفات إلا في الذهن وأما في الخارج فالصفات ملازمة للذات ونحن لا نقول: الصفات هي الذات ولا نقول غيرها بل نقول: ذات لها صفات وأسماؤه سبحانه دلّت على هذا فهي ليست أسماء مجردة بل هي أسماء دالة على صفات، فصفاته سبحانه داخلة في مسمى اسمه فثبت أن تجريد الصفات عن الذات والذات عن الصفات فرض خيال لا فائدة فيه ولا يترتب عليه معرفة ولا إيمان، والذين قالوا الصفات غير الذات أرادوا نفي الصفات. فإلهنا سبحانه ذات لها صفات بخلاف إله الجهمية الذي هو لا شيء إذ هو غله النفي لا ولا.....

وبخلاف إله الفلاسفة الذي هو الوجود المطلق لا صفة له. وبخلاف إله الإتحادية الذي هو الوجود الساري في الموجودات وهو عين وجودها وبخلاف إله النصارى الحلولية الذي حل إلههم وتدرّع بناسوت ولده تعالى الله عما يقول الظالمون.

- أثر المعرفة في التوحيد:

إذا عرف العبد هذه المعرفة ربوبيةً وأسماءً وصفاتٍ ١- سقط عن قلبه طلب ما سوى الله عزوجل وأنه سبحانه المعبود المطلوب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ علماً وعملاً. ٢- ويدرك أن المفعولات عائدة إلى أفعاله سبحانه وأن أفعاله عائدة إلى أسمائه وصفاته ويتضح له قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ....﴾ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ ﴿ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ والقلوب أن تزيغ: "قلوب بن آدم بني إصبعين من أصابع الرحمن...." ويمسك النفوس عنده ويرسلها: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ....﴾ "إن أسمكت نفسي فارحمها" والخلاصة أن كل شيء قائم به سبحانه وهذا الشهود يحتاج مرابطة ومصابرة حتى يمتلئ القلب من ذلك ثم ينعكس ذلك على الجوارح فيتحدان ويتشابهان "أي الظاهر والباطن". ٣- والخلاصة: شهود الربوبية والقيومية والأسماء والصفات. ٤- ثم شهود الإلهية والعبودية وتتحقق مرتبة الإحسان التي حقيقتها ارادة الله ومحبته فتصح في القلب القوتان العلمية والعملية لكن هذا كله

بشرط خلو القلب عن الدنيا ثم التعلق بالآخرة والتأهب للقدوم على الله ثم يفتح له حلاوة العبادة فإنها لا تحلو إلا بمعرفة الأسماء والصفات بحيث أنه إذا دخل في الصلاة ود أن لا يخرج منها. ٦- ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله ولا يهدأ إلا إذا سمعه كالصبي إذا أُعطى ما هو أحب إليه. ٧- ثم يفتح له باب شهود عظمة المتكلم به وجلاله. ٨- ثم باب الحياء من الله تعالى فيستحي منه في خلْواته وجلْواته. ٩- ثم باب الشعور بمشهد القيومية فيتخذه وحده وكيلا ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾. ١٠- وهكذا إلى أن يصل (ولا مساحة في الإصطلاح) إلى مشهد لا يرى فيه إلا الله سبحانه وتعالى ولا يراعي جناباً إلا جنابه ولا يقف إلا ببابه وهذا هو التخليص ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فلا يلتفت عن ربه يميناً ولا شمالاً.

والمراد بهذا الشهود هو شهود المثل الأعلى والمثال العلمي الذي تقدّم ذكره وهو رقائق وشواهد تقوم بقلب العابد من العلوم والأعمال، والله تعالى على عرشه وإنما يجد العارف آثار هذه التجليات والفتوحات الناشئة عن المعرفة بالأسماء والصفات ويصل إلى درجة التحقيق ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ وذلك بتحقيق العلم بالعِيان "ولي الخبر كالمعاينة" ولعل هذا هو مراده ﷺ بقوله: "نحن أحق بالشك من إبراهيم" وذلك للتفاوت بين مرتبة العلم ومرتبة العيان ومن هذا الباب اطلاق الظن على العلم اليقين فالمراد حينئذ قبل مشاهدة معلومة: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ فهو وإن كان علماً جازماً بدليل ﴿

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ إلا أنه لما لم يقع معلومه أُطلق عليه "ظن" وانظر تغير حال موسى لما أُخبر أ، قومه عبدوا العجل ولما رآهم عياناً.

- **التحقيق:**

- فالتحقيق لغة تفعيل من حقّق الشيء إذا أثبته وخلّصه من غيره قلت: وهو مطابق تماماً لما هو مشهورالآن من تحقيق المخطوطات والكتب.

- **واصطلاحاً:** هو تحقيق مصحوب الحق.

- **والمصحوب:** ما يصحبك في سيرك إلى الله من معلوم ومراد؛ من معرفة وقصد.

- **والحق:** هو الله سبحانه وما كان موصِلاً إليه.

فالتحقيق هو أن تخلص المعلوم والمراد المتعلق بالله وبالطريق الموصلة إليه أي تجريد التوحيد والاتباع. بمعنى تخليصهما من القواطع والعوارض والمشوّشات وسبيل التخلص من ذلك هو التغافل عنها وعدم الوقوف معها لأن الوقوف معها توسيع لدائرتها ثم العلم بأنها من المقادير في دار المحن كالحر والبرد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

- وبعبارة أخرى: صاحب التحقيق يعرف الحق ويميز بينه وبين الباطل فيمسك بالحق ويُلغي الباطل ثم يَعلم أن هذا بالله وحده فيبرأ من حوله وقوته ثم يرسخ في هذا المقام ويتمكن فيه.

فهذه ثلاث مراتب: الأولى: تخليص مطلوبه من غيره. هذا مثل المعرفة الخاصة بالأسماء والصفات. (سفر إلى الله). الثانية: تخليص إضافته إلى غير الله: (سفر بالله). الثالثة: تخليص في المُخْلَص: (سفر في الله) هذا بعد المعرفة الخاصة في الأسماء والصفات فكشف له فيها ما حُجب عن غيره.

إنك إن كنت تنسب العلم إلى نفسك قبل مقام التحقيق فإنك فيه تنسبه إلى معلمه الأول كما قالت الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ فقد قيل في معناه قالوه تأدباً معه سبحانه إذ ردوا العلم إليه وقيل معناه: لا علم لنا بحقيقة الباطن وإنما أجابنا من أجابنا ظاهراً والباطن غيب وأنت علام الغيوب قال ابن القيم: والتحقيق أن علومهم تلاشت واضمحلت فصارت بالنسبة إليه كلا علم كما قال الخضر: "ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر".

٦٣- منزلة رعاية الأسباب.

- المراد برعاية الأسباب: أعبارها وعدم إهمالها، والالتفات إلهيا لا الركون إليها وإلا انخرق توحيده، فالتوحيد يقتضي القيام بالأسباب الظاهرة والباطنة لكن

تعزلها عن ولاية النجاح والنجاة كما قال صلى الله عليه وسلم: "سددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن ينجيه عمله"/ خ م عن عائشة.

- فإذن رعاية الأسباب هو محض التوحيد والعبودية اللذان هما بتصديق الخبر وتعظيم الأمر.

- وكم من دليل على هذه المنزلة من القرآن والسنة.

أما الكتاب:

١- فما أكثر باء السببية في القرآن: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢- واللام: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

٣- وأنْ: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

٤- وكي: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

٥- ذكر الوصف المقتضى للحكم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

٦- التصريح بالتعليل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

٧- ذكر الجزاء: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

٨- ذكر المقتضي للحكم والمانع منه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ وعند منكري الأسباب والحِكم قالوا: لم يمنعه إلا محض المشيئة ليس إلا.

٩- أسلوب الشرط والجزاء: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ ﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾.

وأما السنة:

١- خ م عن علي مرفوعاً: "ما منكم من أحد إلا وقد عُلم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال لا اعملوا، فكل ميسر لما خلق له".

٢- خ م عن عمران مرفوعاً: "يا رسول الله، أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعملون أمرٌ قضى عليهم ومعنى أم فيما يستقبلون مما آتاهم فيه الحجة؟ فقال: بل

شيء قُضى فيهم، فقالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا؟ قال: لا اعملوا. فكل ميسر لما خُلق له".

٣- وفي السنن أنه قيل له: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورُقىً نسترقي بها وتُقاة نتقي بها، هل ترد من قدر الله فقال: نفر من قدر الله إلى قدر الله ثم جاء عبدالرحمن بن عوف وذكر حديث الطاعون مؤيداً لقول عمر.

- ففي هذه الأحاديث أثبت النبي ﷺ الأسباب وجعلها من قدر الله عزوجل فكل شيء بقدر كما في أدلة كثيرة من الكتاب والسنة – والكون والشرع غلا مشيئته سبحانه وأما غيرها من الأسباب فلابد أن يكون معه سبب آخر يشاركه – فهو جزء سبب – ثم جُعل لكل سبب أسباب تضاده وتمنعه، ومشيئة الله تعالى لا يشاركها سبب ولا يمنعها مانع.

وإذا كان كذلك فلا يصح التوكل عقلاً ولا شرعاً إلا عليه سبحانه فإن قيل: والأخذ بالأسباب؟ فيُقال هي من التوكل. ويبين هذا – أي أن التوكل لا يصح إلا عليه سبحانه – قوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ برضاك..... وبك منك....." وقوله ﷺ: "لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك" ولا يستقيم السير إلا بالتوحيد (ومنه التوكل) واثبات الأسباب.

- وسَبْقُ علم الله وحُكمه حق وهو لا ينافي إثبات الأسباب ولا يقتضي إسقاطها وذلك أنه سبحانه علم كذا وحكم بكذا بحصوله عن سببه فهو قدرٌ مقدر بأسباب

فإسقاط الأسباب شهود للأمور بخلاف ما هي عليه فلا نجرّد الأسباب عن الأقدار.

- احذر في الأسباب أمرين ١- التوكل عليها: فهذا شرك يرق ويغلظ. ٢- تركها واهمالها: هذا قد يكون كفراً وظلماً.

- زبدة القول في القدر والأسباب أن تتخذ الأسباب اتخاذ من لا يرى النجاة إلا بها وتتوكل على الله توكل من يرى أنها لا شيء وقد جمع .... بين هذين الأصلين بقوله: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله" (أخذنا بالأسباب بحرص واهتمام) (توكل على الله) ثم "ولا تعجِز" في أيٍّ من الأمرين فلا تقصِّر في الأسباب ولا في التوكل.

- اقتضت حكمته سبحانه أن يكون الكون والشرع بأسباب لتظهر آثار أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى فالمغفرة تقتضي سبباً لها وهو الذنوب والمعاصي والرحمة تقتضي سبباً لها وهي الطاعات والاحسان وغير ذلك. وفي الحديث: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم.....".

٦٤- منزلة استئنا التوبة.

- أَنف لغةً أصلان أحدهما أخذا الشيء من أوله والثاني أنف كل ذي أنف والمراد هنا الأول. قال الخليل: استأنفت كذا أي رجعت إلى أوله ومُؤتنف الأمر: ما يُبتدأ

فيه. وفعل كذا آنفاً كأن ابتداؤه قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾.

فالمراد إذن ابتداء التوبة لمن تاب قبل ذلك في كل لحظة أي دوام التوبة فكما إن النازل في منازل السائرين – أول ما نزل – والدارج في مدارج السالكين – أول ما سلك – كان بالتوبة فلا تزال معه فهي غاية ونهاية كما كانت بداية.

- فإن قال قائل أنعود للخلف بعد أن قطعنا هذه المقامات؟ فالجواب قلت: لكن هذه التوبة المستأنفة ليست من جنس الأولى المبتدأ بها بل هذه المستأنفة توبة في التوبة فأنت ما رجعت إلى الوراء بل تترقى بهذه التوبة. وقال ابن القيم: هذه توبة من التقصير المصاحب للنزول في المنازل السابقة ثم هي تجمع القلب على المعبود وحده وتمحض الهمة على تنفيذ أوامر الله في الخلق دعوة وجهاداً.

- فلا يُتسغنى عن التوبة طرفة عين ومن رأى استغناءه عنها فهو جاهل بنفسه التي كان ﷺ يقولك "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا". وجاهل بربه سبحانه وجلاله وكما له وأن ما نعبده به سبحانه لا يليق بهذا الجلال والكمال ولا يوفىّ بنعمة واحدة ولا أدنى من ذلك. ومن لم يقنع فهو مغرور.

- الأدلة على هذه المنزلة: و(أنها ضرورية وغاية ونهاية – كما أنها بداية).

١- ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فمع إيمانهم أمروا بالتوبة في كل حال.

وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ وقول المؤمنين: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ مع أنهم هُدوا إليه فلا يزال العبد بحاجة ضرورية إلى التوبة والإيمان والهداية.

٢- ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ فهذا نزل في آخر الغزوات فجعل سبحانه توبته عليهم شكراناً لهم على ما قدموه وجاهدوا في سبيله فإذن هي غاية الغايات.

٣- ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ ﴾ ولما نزلت ما ﷺ صلاة إلا قال فيها: "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي" وفهم منها علماء الصحابة كعمر وابن عباس أنها أجل رسول الله ﷺ فأمر الله تعالى نبيه بالتوبة في نهاية أحواله.

٤- ما ثبت من سبنته ﷺ أنه كان يختم أعماله وأزمانه بالتوبة والاستغفار كالصلاة والصوم والحج ومجالسه وعودته ﷺ إلى المدينة: "آيبون تائبون".

ثم ماذا قال ﷺ عند موته: "اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلى" فالمغفرة والتوبة غاية الغايات ومعقد السعادات.

- ثمرات هذه المنزلة:

١- تحقيق العبودية والقيام بأعبائها والجهاد لأعداء الله عليها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل الأذى ومعرفة الأسماء والصفات.

٢- تكميل مراتب العبودية فإنه لا سبيل إلى هذا التكميل إلا بالتوبة ولم يكمل أحد العبودية إلا الخليلان ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ وأما نبينا ﷺ فأكمل مراتب العبودية لأنه سبحانه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.بـ

٣- جمع الهمة على الله تعالى وجمع الهمة على تنفيذ أوامره دعوةً وجهاداً وهذان الحالان يحصلان ﴿ بـإِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ وهو معنى قولهم الطريق في "إياك أريد بما تريد" فجمع المراد في واحد وجمع الإرادة في مراده سبحانه.

٦٥- منزلة استئناف التوحيد.

- سبق معنى الاستئناف لغةً. والمراد هنا ظَفَر السالك في النهاية بحقيقة التوحيد المحض. فالتوحيد أولاً وآخراً. فهو أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق ومفتاح الدعوة إلى الله تعالى، فكل الرسل أول ما يدعون فإليه قبل كل شيء لأن الثمرة لا تأتي إلا به. وقال ﷺ لمعاذ: "ليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده". وهو أخر ما يخرج به من الدنيا كما قال ﷺ: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنية"/ د عن معاذ وحديث: "من مات وهو يعلم أن لا غله إلا الله دخل الجنة" /م. فإذن التوحيد أول واجب وآخر واجب.

- ومجر تنزيه الله عن الحَدَث –أي كونه قديماً – لا يدل على التوحيد فإن كل الطوائف تنزّه هذا التنزيه حتى الفلاسفة والإتحادية والمشركون لكن هذا لا يعطي إسلاماً ولا إيماناً ولا يُدخل في شرائع الأنبياء.

وإنما التوحيد هو "إفراد القديم عن الحديث" كما قال الجُنيد.

فالنصارى والأتحاية وغيرهم من المشركين لم يفردوا القديم عن المحدث والذين نفوا علوه سبحانه وأنه مباين للمخلوقات لم يفرد والقديم عن المحدث، والزاعمون أنه يحل في الصورة الجميلة أوفى الكُمّل من الناس المجردين عن الشهوات لم يُردوا القديم عن المحدث.

وهذا الافراد الذي أشار إليه الجنيد نوعان: غفراد اخباري وذاك نوعان اثبات مبانية الرب للمخلوقات والثاني إفراده بصفات كماله ويدخل في ذلك افراده بعموم القضاء والقدر. وبهذا النوع تُباين الاتحادية والحلولية والجهمية. والنوع الثاني: افراد إنشائي: وهو افراده سبحانه بالعبادة المبنية على تمام الحب مع تمام الذل. فعبارة الجنيد شاملة لنوعي التوحيد.

- وكل المنازل التي مرّت المراد بها اصلاح التوحيد وتحقيقه كمنزلة التوكل فإنما المراد بها تصحيح التوحيد وتكميله ولذا كانت علله تؤثر في التوحيد كترك الأسباب في التوكل وأن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه كالدعوة إلى الله عزوجل كما قال نوح: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ

وقال هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ وقال موسى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وقال إبراهيم والذين معه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾. العلة الثالثة في التوكل: أن يرى أن توكله منه لا أنه توفيق من ربه وجُودٌ منه سبحانه وتعالى. فهذه العلل كلها علل في التوحيد.

- وأهل التوحيد يتفاوتون فيه تفاوتاً عظيماً فأكمل الناس الخليلان قاما بالتوحيد بما لم يقم به غيرهما علماً ومعرفةً وحالاً ودعوةً ثم أولو العزم ثم الرسل ثم الأنبياء ثم خواص أتباعهم وهكذا وبذا جعلهم الله أئمة ولا ينال الإمامة ظالمٌ ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾.

- **وحقيقة التوحيد**: إخلاص الدين كله لله وهو نفي واثبات: تثبت إلهية الحق في قلبك وتنفي إليهة ما سواه، وقد حوته لفظة الشهادة فتفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾ ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا ﴾ ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ وغيرها من الآيات ص١٠٣٦، ١٠٣٧ والقرآن كله في بيان حقيقة التوحيد قال ابن القيم: "وإذا تدبرت القرآن – من أوله على آخره – رأيته يدور على التوحيد وتقريره وحقوقه". وقال ابن تيمية: "وكمال التوحيد هو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً" قلت: يدل على ذلك قوله ﷺ: "من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان" وذلك أن العطاء والمنع ظاهر والحب والبغض باطن فخلُص الظاهر والباطن لله رب العالمين.

- وهذه الحقيقة؛ حقيقة التوحيد ظاهرة جلية ولذا دلّت عليها الفِطر والعقول والحس، وهي مستترة في القلوب وإن كان أكثر أهلها لا يحسنون الإستدلال علهيا والتعبير عنها وهم أهل التوحيد لا هؤلاء المتكلمون، فلا يغرنك كلام المتكلمين ولا تستهن بسكوت أهل التوحيد الذين لا يحسنون التعبير عنه.

- قال الهروي: ويجب التوحيد بالعقل والسمع ويوجد بتوفيق الله بعد تبصيره، وينمو بإجابة داعي الحق والتبصر في الشواهد.

وجوب التوحيد:

المسألة الأولى:

أ- قالت المعتزلة: يجب بالعقل والسمع مقرّر لما يجب بالعقل.

ب- وقالت الأشعرية: يجب بالشرع ولا يثبت بالعقل شيء.

جـ والحق أن وجوبه بالعقل والشرع فإن القرآن ذكر كثيراً من الأدلة العقلية على وجوبه ولهذا ضرب له الأمثال: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾، ولكن العقاب على هذا الواجب يتأخر إلى ورود الشرع لا كما قالت المعتزلة أنه يُعاقب على تركه ولو قبل ورود الشرع ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ

ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ فإثبت أنهم ظلمة قبل مجيء الرسل وأنه لا يءلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم فالآية در على الطائفتين. ومثل هذه الآية في الاستدلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ فالقبح العقلي ثابت قبل ورود الشرع لكن لا عقوبة إلا بإرسال الرسل، وقد بيّن ابن القيم ذلك في "مفتاح درار السعادة" من ستين وجهاً. والخلاصة أن العقل يوجبه بمعنى اقتضائه لفعله وذمّه على تركه وتقبيحه لضده والسمع يوجبه بهذا المعنى ويزيد إثبات العقاب على تركه. وطالما أن العقل يقضي بحسن التوحيد وقبح الشرك ويقضي بكمال الرب فإنه ينتج عن هذا أمر الله تعالى بالتوحيد ونهيه عن الشرك ولكن تفاصيل العقاب لا تُعلم إلا بالسمع. ومن الأدلة العقلية أمره سبحانه بالنظر والاعتبار والنعي على من لا يتذكر ولا يعقل ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وآيات كثيرة في التفكر والاعتبار.

٣- ومن الأدلة العقلية: آثار عقوبات المهلكين والأمر بالنظر فيها ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ فدلالة القرآن على التوحيد سمعية عقلية.

وجود التوحيد:

المسألة الثانية:

- الوجوب الشرعي لا يستلزم الوجود الحسي. فمثلاً الإيمان واجب شرعي ومراد شرعي لكن لا يلزم وجوده حساً في كل الناس وهذه إراداة شرعية لا كونية. وقوله: "بتبصير الحق" مراده التبصير التام الذي لا تتخلف عنه الهداية وإلا فقد يحصل تبصير دون هداية كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ذكر السعدي فيها قولين: الأول: أن الله تعالى إذا هدى قوماً فإنه يتمم عليهم هدايته ببيان ما يتقون ولا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم.

والثاني: - وهو الذي ذكره ابن القيم وابن كثير-: أن الله يهدي ناساً ويبين لهم فإذا لم ينقادوا عاقبهم بالإضلال جزاءً على ردهم الحق المبين. قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ فالدعوة والبيان لا يستلزمان الهداية وإنما هي فضل الله يؤتيه من يشاء.

نمو التوحيد:

المسألة الثالثة: لا يكفي في نمو التوحيد مجرد مشاهدة الشواهد بل لابد من إجابة الداعي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى﴾. وهذا من أعظم أصول أهل السنة والجماعة الذي فارقوا به الجهمية وهو زيادة التوحيد والإيمان.

- أدلة التوحيد: تعلُّق العبد بأدلة التوحيد من التوحيد لأن الله سحبانه أمرنا بالنظر في هذه الأدلة والاستدلال بها، وهذه الأدلة مشهودة ومسموعة. والتوحيد كل التوحيد أن تشهد كل شيء دليلاً على التوحيد والرسل هم أدلة التوحيد الهادون إليه دلالةً وبياناً وعلى الله البلاغ والتوفيق.

- محض التوحيد: أن تشهد أنه منة خالصة من الله تعالى وأنك فقير محتاج إليه سبحانه وتعالى وقد خرج ﷺ على حلقة من أصحابه وهم يتذاكرن فقال: "ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر ما مَنّ الله به علينا وهدانا بك إلى الإسلام فقال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك؟ فقال: أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم ولكن الله يباهي بكم الملائكة"/ م عن معاوية.

فسبب المباهاة هو شهودهم سبب التوحيد – وهو الرسول ﷺ - وأنه من منة الله عزوجل ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ .....﴾.

لكن لا منافاة بين الشعور بالفقر والافتخار بنعمة الله عزوجل كما قال ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر....." وقال سبعد بن أبي وقاص: "أنا أول من رمى بسهم في

سبيل الله" وقال عليّ: إنه لعهد النبي الأميّ إليّ: لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق" وقال عمر: "وافقت ربي في ثلاث...." وقال ابن مسعود: "ولو أعلم ان أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لرحلت إليه" وقال بعض الصحابة: "لأن تختلف فيّ الأسِنة أحبّ إليّ من أن أحدّث نفسي في الصلاة بغير ما أنا فيه".

- من تمام التوحيد: أن يكون العبد صاحب جمع وفَرْق.

وهو عند الصوفية: شخوص البصيرة إلى من صدرت عنه المتفرقات كلها.

وعندنا: ان تشهد الفرق بين الأمر والنهي وأنه سبحانه يحب الأول ويكره الثاني وقد أنكر أصل الشهوات هذا الفرق فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وقالوا: الميتة مثل المذكاة. وقالوا: الحرام والحلال واحد. قلت: وأخبرني أحدهم عن أحدهم أنه قال في الزنا: كله سواء لحم على لحم. وأما الجمع فهو جمع توحيد الربوبية بأنه سبحانه رب كل شيء وجمع توحيد الألوهية بأن يجتمع القلب على مراد الله سبحانه.

وهذا الجمعان في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

وأيضاً تشهد جمع الصراط المستقيم في طريق واحد وهو طريق الأنبياء والفرق بينه وبين طرق الضلالة.

فائدة: في الهداية إلى الصراط المستقيم عشر مراتب إذا حصلت حصلت: هداية العلم والبيان (العلم بالحق وإدراكه) – الإقدار عليه – الإرادة له – الفعل – الثبات – صرف الموانع والعوارض المضادة – الهداية الخاصة في الصراط بعد الهداية الإجمالية إليه – شهود المقصود في الطريق – شهود فقره وضرورته إلى الهدياة – شهود طريق المنحرفين وهم أهل الغضب وأهل الضلال.

٦٦- منزلة الشهادة.

- هذه المنزلة يمكن أن تُسمى منزلة العلم وذلك تسمية لها بسببها فإنه يستحيل الشهادة بلا علم، ولذا بنى ابن القيم شرحه لهذه المنزلة على آية واحدة هي آية آل عمران. ولو لم يكن للعلم شرف إلا هذا الوجه لكان كافياً إذ كل منازل العبودية مبناها على العلم فياويح الكسالى والمضيعين لأعمارهم وأوقاتهم.

- الأية التي بنيت عليها هذه المنزلة هي قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ ﴾ آل عمران أية ١٨. فهذه آية الشهادة العظمى شهادة أعدل العادلين على أجلّ مشهود به وهو التوحيد: أعظم شهادة من أعظم شاهد على أعظم مشهود به.

- (شهد): الشهادة لها أربع مراتب: العلم – التكلُّم – الإعلام - الإلزام فشهد بمعنى علم وتكلم وأعلم وألزم وعلى هذا تدور عبارات السلف. ولا يُشترط في الشهادة أن يقول أشهد بل من تكلم بشيء فقد شهد به قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ فسمّاها سبحانه شهادة مع أنهم لم يتلفظوا بلفظ أشهد أو نشهد وغير ذلك من الآياتوالأحاديث كما قال ابن عباس: "شهد عندي رجال مرضيون – وأرضاهم عندي عمر – أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس" فالمراد أنهم تكلموا وردوا هذا الحديث عن النبي ﷺ وأيضاً أجمع المسلمون أن من قال: "لا إله إلا الله" فقد دخل في الإسلام وإن لم يقل "أشهد" وغير ذلك من الأدلة الكثيرة.

والإعلام يكون بالقول وبالفعل فالقول ما أرسل الله به الرسل والفعل ما نصبه سبحانه وتعالى من الأدلة على توحيده فهي شاهدة حالاً لا مقالاً ولذا سمّى الله تبارك وتعالى حال الكفار شهادة فقال: ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ أي بما يفعلونه من أعمال الكفر والآيات الأفقية والنفسية تصدق الآيات القولية كما في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

- وأما الإلزام والأمر بذلك فهو وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه لكن هنا – في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فإنه سبحانه شهد به شهادة من حَكَم به وقَضَى وأَمَر ووجه ذلك: ١- أنه سبحانه إذا أخبر بأنه لا إله إلا الله فهذا خبر بمعنى الأمر لأن معنى هذا الخبر أنه لا يُعبد سواه ففي ذلك أمر بعبادته وحده وأن إلهية

ما سواه باطلة. ٢- دلّت الأدلة أنه سبحانه وحده هو المستحق للعبادة فإذن تكون هذه الشهادة أمراً للعباد بأداء ما يستحقه الرب عليهم.

- ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ نُصب على الحال وفيه وجهان: أنه حال من الفاعل في "شهد اللهُ" والمعنى حينئذ: شهد الله حال قيامه بالقسط أو أنه حال من قوله "هو" بمعنى لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط وبينهما فرق لأن الأول دل على أن هذه الشهادة شهادة عدل وقسط وأما الثاني فالمعنى لا إله إلا هو مع كونه قائماً بالقسط ورجح شيخ الإسلام الثاني لأن فيه زيادة معنى إذ المعنى شهد الله وملائكته على توحيده وأنه قائم بالقسط لكن لماذا فُصل بين الحال وصاحبه هذا الفصل الطويل؟ والجواب لدفع توهم عطف الملائكة وأولى العلم على الضمير في قوله ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ فالقيام بالقسط مختص به سبحانه.

- ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾: قال محمد بن جعفر: الأولى وصف وتوحيد والثانية رسم وتعليم أي قولوا لا إله إلا هو فالتالي عندما يتلو يخبر بالتوحيد وينشئه فيالله من أسرار في كتابه وفرق آخر أن الأولى إخبار عن الشهادة بالتوحيد والثانية اخبار عن نفس التوحيد.

- ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ العزة تتضمن كمال القدرة والقوة والحكمة تتضمن كمال العلم والخبرة وأن الخلق والأمر لحكمة يستحق عليها كمال الحمد سبحانه وتعالى.

قلت: هذه تثنية للتوحيد وأدلته فالدليل الأول قائماً بالقسط "يَخْفِض ويرفع" والدليل الثاني العزيز الحكيم والعزة ملك والحكمة حمد فكانت هذه الآية التضمنة لأعظم مشهود به "توحيده وعدله وعزته وحكمته" كأعظم الدعاء يوم عرفة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

- وشهد الله أيضاً على صدق رسله وذلك من معاني اسمه المؤمن أي الذي يصدق أولياءه فيما يخبرون به عنه ويؤيدهم بالمعجزات والآيات المسموعة والمشهودة والمعقولة.

ومن أخفى آيات الرسل آية هود/ انظر ص ١٠٦٨، ١٠٦٧ فشهد ربنا سبحانه على الشهادتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

- ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾.

- ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ وهذا استدلال بأسماء الله وصفاته على أفعاله كما تقدم بيانه.

- وشهد سبحانه أيضاً أنه أنزل هذا القرآن بعلمه ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ أي

مشتملاً على علمه فعليك يا أخي بالعلم فإنه يستحيل أن تكون من أهل الطريق بدونه.

- ومن شهادته سبحانه – شهادة بالفعل – ما أوعه في قلوب عباده من التصديق الجازم والإطمئنان إلى وحيه وكلامه فلو كان هذا الوحي كذباً لما اطمأنت به القلوب لأن الصدق طمأنينة والكذب ريبة ولأن الكذب تدفعه القلوب السلمية الفطرة كما يدفع الحيوان – فِطرةً – الأغذية الخبيثة الضارة لأنه سحبانه فطر القلوب على قبول الحق والأنقياد إليه والطمأنينة به وعلى بغض الباطل والكذب والنفور منه.

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ فلو رُفعت الأقفال لباشرت القلوب حقائق الإيمان والقرآن ولعلمت بالضرورة أنه من عند الله، وهذا الشاهد اعتمده هرقل في القصة المعروفة حيث قال: "فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان: لا فقال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشابته القلوب" ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن

يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ فالآية التي يقترحونها لا توجب هداية لأن الهداية والإضلال منه سبحانه وحده ثم نبههم على أعظم آية وأجلها وهي إطمئنان القلوب بذكر الله فكم لله سبحانه في كتابه من أسرار فاعتبروا يا أولى الأبصار.

- وأما قوله سحبانه بعد ذلك ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾: فهل هو كلام مستأنف أو داخل في مضمون هذه الشهادة، فهو بعض المشهود به؟ والجواب: أن هذا مبني على القراءتين:

١- القراءة الأولى قراءة الكسائي بالفتح فيكون من جملة المشهود به بتقدير واو محذوفة.

٢- القراءة الثانية قراءة الباقين بالكسر وهو الوجه لأن الكلام السابق تم وتكون هذه الجملة مقررة مؤكدة لمضمون الأولى. وذلك أن الدين هو الإسلام الذي هو إسلام الوجه لله تعالى وهو التوحيد.

وهذا مثل كسر همزة إن في التلبية: "لبيك اللهم لبيك ..... إن الحمد.....". والإسلام هو دين جميع الأنبياء كما قُرر في غير ما آية ص ١٠٨١. وهو دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض فإن في الأرض أديان كما في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ

﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ دين واحد للرحمن وخمسة للشيطان.

- وبدخول السالك ضمن أولي العلم الشاهدين يبلغ مقصده ويعتلي الذروة فيقف على القسمة شامخاً ويكون في الفردوس الأعلي وفي الرفيق الأعلى، فعاد الأمر إلى العلم فتباً للكسالى والمخدوعين.

"اللهم يا ولي الإسلام وأهلِه كما هديتني للتوحيد والإسلام فمَسِّكني به حتى أموت وأنا مسلم مُوَحّد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن الله حق ووعده حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق والجنة حق والنار حق، على ذلك أحيا وعلى ذلك أموت وعلى ذلك أُبعث إن شاء الله" وصلِّي اللهم وسلِّم وبارك على خير البرية وأزكى البشرة صاحب الحوض والشافعة ولواء الحمد الحاشر الماحي العاقب المقفي. اللهم آمين.

فُرغ منه في الأحد ٢ محرم سنة ١٤٢٨هـ بدبي

وكتب

أبو عبدالرحمن سعد بن السيد قطب الشال